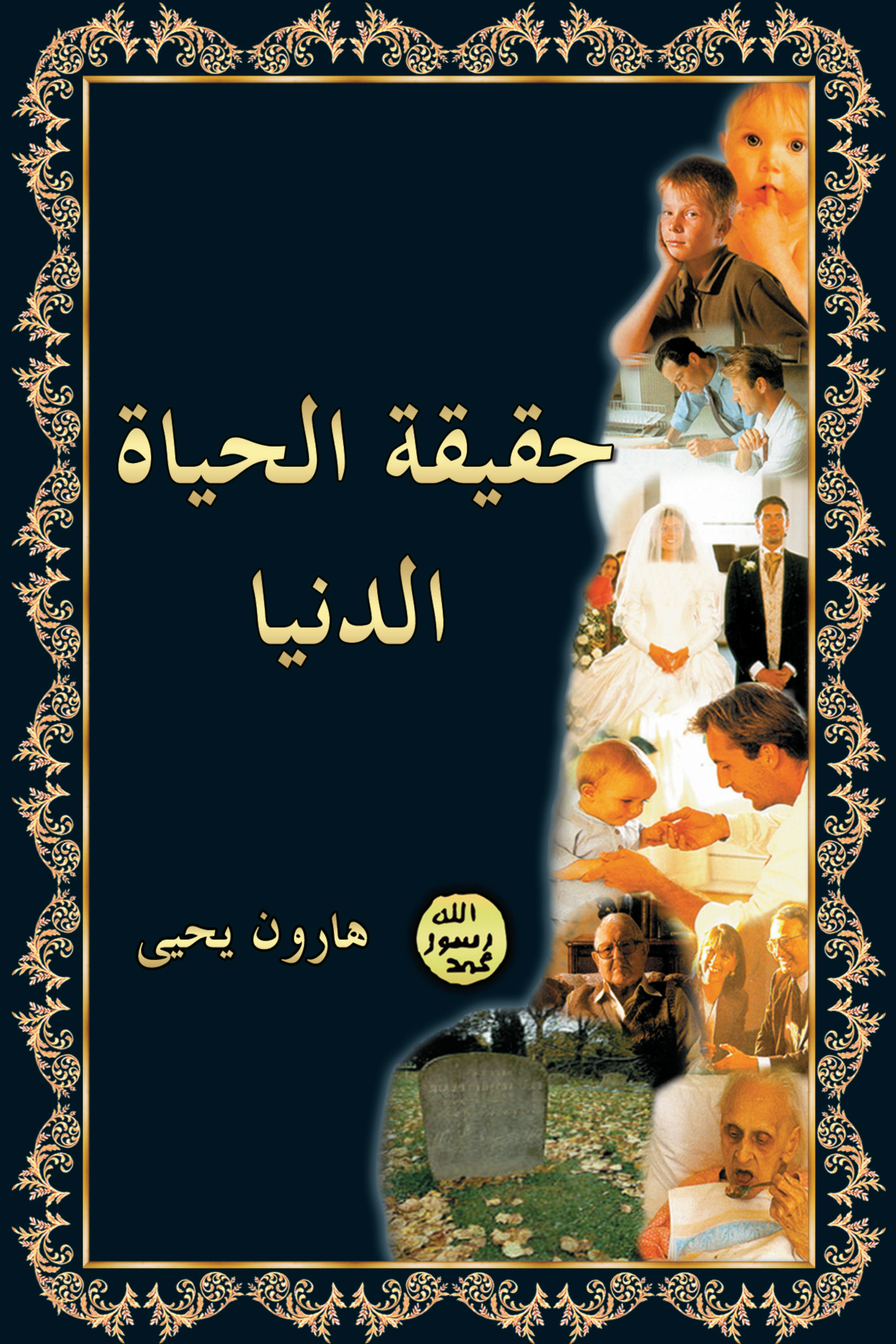

حقيقة الحياة
الدنيا
هارون يحيى

لاشك أن أكثر شيء يبعد الإنسان عن الدين هو تعلقه بالدنيا، فبالرغم من أن الموت حقيقة كبرى فإن أكثر الناس يعيشون في هذه الدنيا وكأنهم مخلدون فيها، وكأنما لا يوجد أي حساب في الآخرة. وهؤلاء يغفلون عن كون هذه الدنيا فانية، ويقضون الأيام التي وهبت لهم في أعمارهم في الإضرار بأنفسهم، بل ويقضون حياتهم في الجدال بأن نهايتهم لا تزال بعيدة.

إن هذا خطأ جسيم، فالحياة الدنيا أوجدها الله تعالى من أجل اختبار الإنسان وابتلائه، وهي حياة فانية، والدنيا دار بلاء يشوبها النقص. وكل مافيها من جمال وحسن لا يطول به الزمن حتى يفسد ويبلى. وهذا الكتاب ينبه إلى حقيقة الحياة الدنيا ويعرف بها، ويذكر بدار القرار، أي الدار الآخرة.

حول الكاتب

ولد عدنان أوقطار عام ١٩٥٦، وهو يستعمل الاسم المستعار هارون يحيى. ومنذ الثمانيات من القرن الماضي كتب عدداً كبيراً من المؤلفات في مواضيع مختلفة، إيمانية وعلمية وسياسية، إلا جانب ذلك يوجد للكاتب مؤلفات في غاية الأهمية تكشف زيف أتباع نظرية التطور، وتفند ادعاءاتهم، وتفضح الصلات الخفية، بين الداروينية والأيديولوجيات الدّموية.

وهدف المؤلف الرئيسي من وراء أعماله هو إيصال نور القرآن الكريم إلى شتى بقاع العالم، ودفع الناس بذلك إلى التفكير والتفكّر في قضايا إيمانية أساسية مثل وجود الله تعالى ووحدانيته، واليوم الآخر، وكذلك كشف الأسس المتهاونة لنظم الجاحدين وسلوكياتهم المنحرفة. وإلى حدّ الآن ترجم للكاتب نحو ٢٥٠ مؤلفاً إلى ٥٧ لغة مختلفة، وهي تحضى باهتمام بالغ من قبل شريحة واسعة من القرّاء. وبإذن الله تعالى سوف تكون كليات هارون يحيى خلال القرن الواحد والعشرين، وسيلة للبلوغ بالإنسان في شتى أنحاء العالم إلى مراتب السكينة والسلام والصدق والعدل والجمال والسعادة التي جاء التعريف بها في القرآن الكريم.


بسم الله الرحمن الرحيم
الله
رسول
محمد



حول المؤلف

يتكون الاسم المستعار للكاتب من "هارون" و "يحيى" في ذكرى موقرة للنبيين اللذين جادلا ضد الكفر والإلحاد، بينما يظهر الخاتم النبوي على الغلاف رمزًا لارتباط المعاني التي تحتويها هذه الكتب بمضمون هذا الخاتم. ويشير هذا الخاتم النبوي إلى أنّ القرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية، وأنّ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هو خاتم النبيين. وقد اتخذ الكاتب لنفسه القرآن الكريم والسنة النّبوية دليلاً ومرشدًا، وفي جميع المؤلفات أخذ العهد على نفسه بنسف جميع الأسس التي تقوم عليها النظم الإلحادية وإبطال كل المزاعم التي تقوم عليها الحركات المناهضة للدّين. ويعتبر هذا الخاتم الذي مَهر به كتبه بمثابة إعلانٍ عن أهدافه هذه.

تدور جميع كتب المؤلف حول هدف رئيسي هو تبليغ نور القرآن ورسالته لجميع الناس، وحثهم على الإيمان بوجود الله ووحدانيته واليوم الآخر، وعرض تهافت النظم الإلحادية وفضحها على الملإ.

تحضى كتب هارون يحيى بقبول واهتمام كبيرين في شتى أنحاء العالم؛ من الهند إلى أمريكا، ومن إنكلترا إلى أندونيسيا، ومن بولونيا إلى البوسنة، ومن إسبانيا إلى البرازيل، ومن ماليزيا إلى إيطاليا، ومن فرنسا إلى بلغاريا وروسيا.

ترجمت كُتب المؤلّف إلى العديد من اللّغات الأجنبية، ومن بين تلك اللغات: الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والأوردية والعربية والألبانية والروسية والبوسنية والإويغورية والاندونيسية والمالاوية والبنغالية والصربية والبلغارية والصينية والسواحلية (لغة مستعملة في تنزانيا) ولغة الهوسه (لغة منتشرة في إفريقيا)، ولغة الدّيولهي (لغة مستخدمة في موريس) والدانماركية والمجرية وغيرها من اللغات. و هناك إقبال كبير على قراءة هذه الكتب بهذه اللغات.

لقد أثبتت هذه المؤلفات جدارتها، ووجدت تقدير كبيرًا في كافة أنحاء العالم. وقد كانت سببًا في هداية كثير من الناس إلى طريق الإيمان وساهمت من جانب آخر في تقوية إيمان كثير من المؤمنين. وكل من يقرأ هذه الكتب ويتأمل فيها يلاحظ بوضوح الحكمة البالغة التي تكمن فيها والسهولة الموجودة بين ثنايا سطورها والصدق الذي يميز أسلوبها والعمق في تناول القضايا العلمية. وما يميّز هذه المؤلفات أيضا سُرعة تأثيرها وضمان نتائجها وعدم القدرة على نقض ما فيها ودحضه. وكل من يقرأ هذه الكتب ويتأمل فيها بعمق لن يكون بإمكانه بعد ذلك



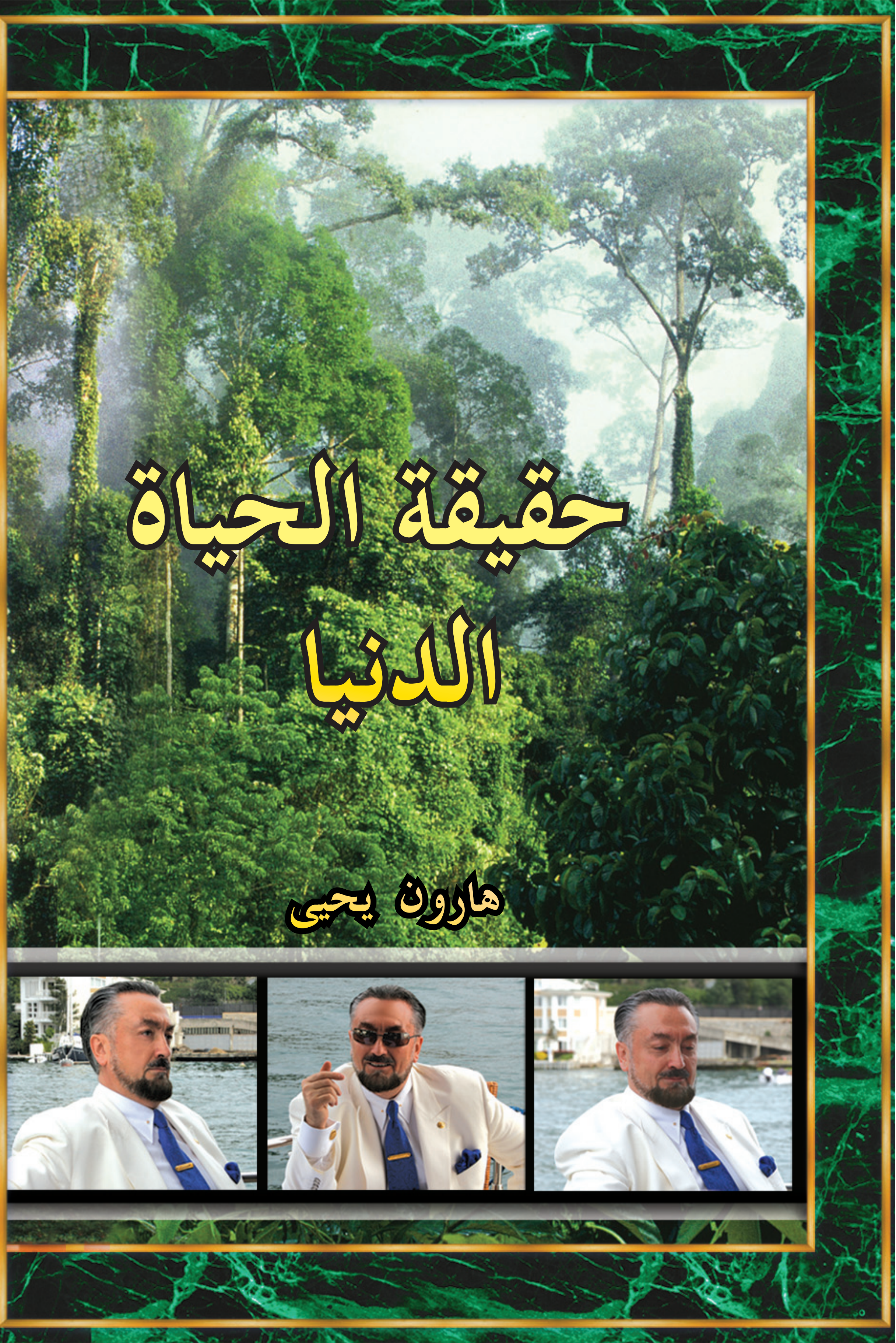
الدّفاع عن الفلسفات المادية والآراء الإلحادية والأفكار المُنحرفة الأخرى.

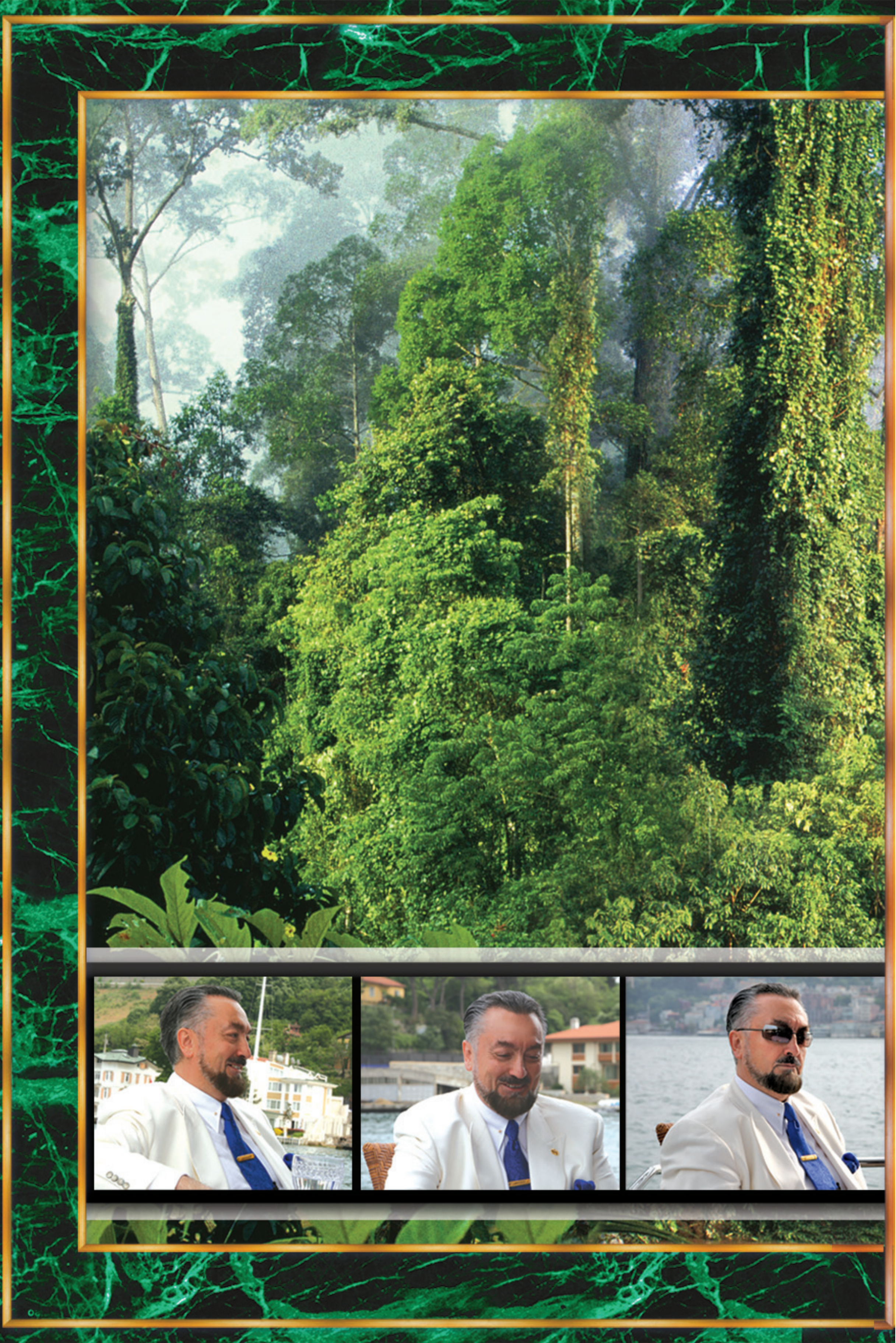
وإذا حدث وأن نافح منافح عن تلك النظريات بعد مطالعة هذه المؤلفات فلن يكون ذلك سوى عن عنادٍ عاطفي لأنّ السّند العلميّ قد تمّ دحضه وإبطاله. ولا شك أن هذه الخصائص نابعة من قوة حكمة القرآن وحُججه الدّامغة. والكاتب لا يسعى من وراء عمله هذا إلى نيل المديح والثناء إنما هدفه وغايته هداية الناس والسير بهم في طريق الإيمان، كما أنّ ليس همّه تحصيل أيّ ربح أو مكسب مادّي.

وعلى ضوء هذه الحقائق، فإن الذين يساهمون في نشر هذه الكتب ويحثون الناس على قراءتها لتكون وسيلة لهدايتهم هم في الحقيقة يقدمون خدمة للدين لا تقدّر بثمن.

وعلى هذا الأساس، فإنّ العمل على نشر الكتب التي ثبت بالتجربة أنها تشوش الأذهان وتُدخل البلبلة على الأفكار وتزيد من الشّكوك والتردّد ولا تملك تأثيرًا قويّا وحاسمًا في طرد الشبهات من القلوب، يُعتبر مَضيعةً للجهد والوقت. ومن الواضح أن هذه المؤلفات لم تكن لتترك كل هذا التأثير لو كانت تركز على بيان القوة الأدبية للكاتب أكثر من تركيزها على الهدف السامي المتمثل في هداية الناس. ومن لديه أدنى شك في ذلك فيمكنه أن يتحقّق من أن الغاية القصوى هي دحض الإلحاد ونشر أخلاق القرآن من خلال تأثير هذا الجهد وإخلاصه ونجاحه.

يتعين إدراك حقيقة مهمة، وهي أن الظلم والفوضى السائدين اليوم في أنحاء الأرض وما يتعرض له المسلمون من أذى سَببه تحكّم الفكر الإلحادي في شؤون العالم. والطريق الذي يضمن الخلاص من هذا كلّه هو إلحاق الهزيمة بالفكر الإلحادي وبيان حقائق الإيمان و إجلاء الأخلاق القرآنية بحيث يُصبح النّاس قادرين على التمسك بها. وبالنظر إلى حالة العالم وما يُراد له من مزيد جرّه إلى الفساد والشّرور والدمار فإنه من الضروري المُسارعة قدر المستطاع إلى القيام بما هو ضروري، وإلا فقد يُقضى الأمر ولاتَ حين مناص. وخلال القرن الواحد والعشرين، وبإذن الله تعالى سوف تكونُ كليّات هارون يحيى –من خلال نهوضها بهذه المهمّة– الوسيلة للوصول بالنّاس إلى مراتب السكينة والسلام والصدق والعدل والجمال والسعادة التي أوضحها لنا القرآن الكريم.


حقيقة الحياة
الدنيا
هارون يحيى



إلى القراء الكرام

إن المواضيع الإيمانية الموجودة في جميع كتب المؤلف مشروحة وموضحة في ضوء الآيات القرآنية. وهذه الكتب تدعو الناس جميعًا إلى فهم هذه الآيات والعيش وفقا لتعاليمها. لقد تم شرح جميع المواضيع المتعلقة بآيات الله بحيث لا تبقى هناك أي شبهة أو تردد في ذهن القارئ. إن الأسلوب السلس والسهل والرصين المنبعث من القلب هو الذي يسّر فهم هذه الكتب من قِبل الجميع صغارا وكبارا، ومن كل فئات المجتمع، بسهولة ودون أي صعوبة، وهو الذي جعل هذه الكتب كتبًا لا تستطيع أن تتركها قبل إتمام قراءتها. وحتى الذين اتخذوا موقفا معارضا للدين يتأثرون بالحقائق المذكورة في هذه الكتب، ولا يستطيعون دحض صحة محتوياتها.

وكما يستطيع القراء قراءة هذا الكتاب والكتب الأخرى للمؤلف على انفراد، فهم يستطيعون قراءتها بشكل جماعي، أو مناقشتها فيما بينهم والتسامر حولها. إن قراءة هذه الكتب بشكل جماعي ونقل كل فرد رأيه وخبرته إلى الآخرين أمر مفيد جدا.

علاوة على هذا، فإن المساهمة في تعريف هذه الكتب – التي لم تؤلَّف إلا لوجه الله تعالى ولمرضاته – ونشرها بين الناس تُعَد خدمة إيمانية كبيرة، لأن الأدلة والبراهين التي يوردها المؤلف في هذه الكتب قوية جدا ومقنعة، لذا كان على كل من يريد خدمة هذا الدين تشويق الآخرين لقراءتها والاستفادة منها.

إننا نأمل أن يتسع وقت القارئ للاطلاع على استعراض الكتب الأخرى، الذي نقدمه في نهاية هذا الكتاب، ليكون على علم بوجود منابع ثرَّة ومصادر غنية من الكتب في المواضيع الإيمانية والسياسية، التي تعد قراءتها مفيدة وممتعة للغاية.

لا ترى في هذه الكتب ما تراه في بعض الكتب الأخرى من رؤى شخصية للمؤلف، ولا ترى شروحا وإيضاحات مستندة إلى مصادر مشبوهة، ولا أي نقص أو قصور في أسلوب الأدب والتوقير الواجب اتخاذه تجاه المفاهيم والمواضيع المقدَّسة، ولا ما يجُر القارئ إلى الحيرة والتردد أو إلى اليأس والقنوط.



المقدمة



تأمل صورة هذه السيدة التي يقدر عمرها بسبعين عاما. ترى ماذا يدور في خلدها حول الأيام التي مضت من عمرها؟

هذه المرأة وغيرها من الناس من الذين عاشوا قرابة سبعين أو ثمانين عاما يصابون بالدهشة والاستغراب ويتساءلون في أنفسهم: كيف مرت كل هذه الأعوام الطويلة بهذه السرعة دون أن يشعروا بها؟ بل سيقولون لك :"لم أفهم شيئا يذكر من هذه الحياة التي مرت في لمح البصر"!.

وعندما كانت هذه السيدة في العشرين من عمرها وفي ريعان شبابها لم تكن تتصور أبدا أن يد الشيخوخة سوف تطالها في يوم من الأيام ولم يدر ذلك في خيالها.

ولو طلبنا من هذه السيدة أن تلخص لنا حياتها التي عاشتها فسوف تقول لك: "أجل!... لقد مرت كل هذه الأعوام في لمح البصر وإذا أردت مني أن أدونها لك فلا أستطيع سوى كتابة خمسة أو ستة أسطر، أو إذا أردت فيمكن أن أتكلم عنها في بضع ساعات. . . هذا كل ما في الأمر"!.

إن الشخص الذي عاش في خضم كل هذه الأعوام ستتبادر إلى ذهنه بعض الأسئلة المهمة:

- ما الغاية من هذه الحياة التي مرت كلمح البصر؟

– لأي غاية عشت هذه الأعوام السبعين؟

– حسنا!. . . ماذا سيحدث بعد الآن؟

لاشك بأننا سنسمع رأيين مختلفين لو طرحنا هذا السؤال على مجموعتين من الناس. المجموعة الأولى هي المجموعة غير المؤمنة بالله والمجموعة الثانية هم الأشخاص الذين يؤمنون إيمانا صادقاً لا يعتريه الشك بوجود الله. إن إجابة أي شخص من المجموعة الأولى –على الأغلب – ستكون كالأتي:

" لقد مرت معظم سنين حياتي لغايات تافهة وفارغة، فلم أفهم بوضوح لأي غاية عشت هذه السنين السبعين. بداية كنت أعيش من أجل أمي وأبي ومن ثم من أجل زوجتي ومن ثم لأجل أولادي. . . أما الآن فإن الموت بدأ يقترب مني وسأرحل قريبا عن هذه الدنيا. . . وماذا بعد ذلك؟. . . ماذا سيحدث بعد ذلك؟ لا أدري. . . ولكن بالتأكيد سينتهي كل شيء. "

إن أسباب هذا الفراغ الذي يقع فيه أمثال هؤلاء هي عدم إدراكهم غاية خلق جميع الموجودات والأحياء, وهذه الغاية هي وراء خلق جميع هذه الكائنات. إن الإنسان العاقل الذي إذا ألقى نظرة من حوله سيدرك أن هذا النظام المدهش والفريد من نوعه الذي يحيط به قد أوجده وصوره خالق ينفرد بعلم لانهائي وبقدرة غير محدودة. إن عدم ظهور هذه الموجودات والكائنات بشكل اعتباطي أو عشوائي أو نتيجة مصادفات، بل ضمن مخطط زمني منظم غاية النظام يجسد الغاية التي خلقت من أجلها. وإن هذه الغاية قد دلنا عليها رب العالمين من خلال كتابه العزيز وهو القرآن الكريم المرسل هدى للناس أجمعين.

إن الشخص المؤمن بالله عز وجل والذي يضع نصب عينيه هذه الحقائق سيجيب على هذه الأسئلة السابقة بصورة صحيحة وسيقول:

"لقد خلقني الله رب العالمين وأرسلني إلى هذه الدنيا، وكلفني أن أقضي هذه المدة في العبودية له على أحسن وجه، وقد اختبرني لهذا الغرض وامتحنني. وكنت أعلم مسبقا بأن هذه الحياة قصيرة وزائلة وستمر في لمح البصر، لذا بذلت جهدي لكي أكون عبداً مطيعاً لا ينخدع بمباهج هذه الحياة الفانية وبملذاتها.

ثم تسألني: ماذا بعد ذلك؟... لقد حاولت طوال حياتي أن أكون عبدا صالحا أقوم بجميع ما أمرني الله به على أكمل وجه، لأن طموحي وأملي كان هو الفوز بالسعادة الأبدية بالدخول إلى الجنة، والفوز بها. وأنا انتظر بفارغ الصبر اليوم الذي أمثل فيه أمام رب العالمين".

ولاستعراض الفرق بشكل أفضل بين هاتين المجموعتين التي ورد ذكرهما يستحسن أن نركز على هاتين النقطتين:

إن إيمان أكثرهم بوجود الله لا يمثل الإيمان الحقيقي، فكثير منهم يؤمنون بوجوده ولكنهم لا يدركون الأهمية الكبرى لهذه الحقيقة العظمى، فالفكرة الباطلة والسائدة بين أغلبية الناس هي أن الله خلقهم وتركهم يتصرفون كما يحلو لهم، وترك حبلهم على غاربهم. وقد نبه القرآن المنزل لإرشاد الإنسانية إلى أنه عندما يطرح سؤال من خلق السماوات والأرض فالجواب يكون على النحو التالي : الله. ولكنهم مع هذا لا يستفيدون من هذا ولا يعتبرون.

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأرض لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (لقمان 25)

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فأنّى يُؤْفَكُون وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (زخرف 87)

لهذا فإننا نرى في حياتنا اليومية أن انقياد هؤلاء البشر إلى هذا التفكير الخاطئ قد أدى إلى انعدام تواصلهم الروحي مع الله تعالى، وهم يحسبون أنهم قد تحلوا بصفات حميدة في الحياة الدنيا ستكون كفيلة بأن تأخذ بأيديهم إلى الجنة بعد أن يقضوا فترة قصيرة من الزمان في عذاب جهنم. وبجانب هذا فإن هناك قسماً كبيراً يعتقدون بأن الله خلق لهم هذه النعم وأنه يجب أن يتنعموا بها إلى أقصى حد ممكن دون أي اعتبارات أخرى. وبمثل هذا المنطق الناقص والتفكير الساذج يستمرون في ممارسة حياتهم اليومية بشكل عادي دون الالتفاف إلى حكمة وغاية هذه النعم الربانية. ولكن الحقيقة عكس هذا بالتأكيد، لأن هؤلاء الذين نسوا الله يعيشون في الحقيقة في غفلة كبيرة وعميقة وهذا ما أشار إليه الله في كتابه العزيز:

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الآخرة هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم 7)

فمثل هؤلاء البشر الذين يعيشون في غفلة تامة لا يدركون حقيقة هذه الحياة، ولا ماهيتها حق الإدراك، ولا يخطر على بالهم بأن هذه الحياة قصيرة جداً لدرجة إنها تمر كلمح البصر. ويمكن أن ندرك هذه الحقيقة إن أجلنا طرفنا فيما حوالينا. ومن المفارقات الغريبة أننا كثيرا ما نسمع من الذين يتندرون بإطلاق بعض الأمثال الشعبية المعروفة والتي تشير إلى تفاهة هذه الحياة وزوالها منها:

(دنيا فانية). . . أو (آه من هذه الدنيا الزائلة). . . . أو (هي دنيا لا تدوم لأحد) . . . إلخ !!

ولكن عندما نمعن النظر في هذه العبارات نرى أنها ليست في الحقيقة سوى عبارات وشعارات جوفاء لا تعكس وجهة نظرهم الحقيقية. لأن مثل هذه العبارات ما هي إلا عبارات يتداولها الناس فيما بينهم دون فهم صحيح لمدلولاتها ولا لمعانيها الحقيقية. والغريب أنه بعد طرح عبارات مثل: "دنيا فإنية" أو "كم مرة يعيش الإنسان؟". . . . نرى تكملة لهذه العبارات إجابات تنم عن منطق ضحل مثل: "لذا علينا أن نعيش هذه الحياة بشكل مكثف ولا نهدر هذه الفرصة".

ولكن كون هذه الحياة قصيرة وفانية والموت هو نهايتها الحتمية، والإنسان يأتي إليها لمرة واحدة فقط يتوجب على الإنسان أن يعد هذا الأمر من أهم الحقائق بالنسبة إليه. قد لا ينتبه معظم الناس إلى هذه الحقيقة إلا بعد أن يصلوا إلى عمر متقدم. ولكن ما أن ينتبهوا إليها عليهم أن يراجعوا أنفسهم ويعيدوا النظر في طريقة حياتهم فينظموها من جديد حسب مرضاة الله وما يريده منهم. إن الحياة قصيرة ولكن الروح يظل بمشيئة الله –خالدا إلى الأبد. وماذا تعني حياة قصيرة أمدها بين ستين إلى سبعين عاما بجانب الحياة الأبدية التي ليست لها حدود؟!!.

أليست من الحماقة أن يضحي الإنسان بكل شيء من أجل متعة قصيرة وفانية؟.

ولكننا نرى أن المنكرين يسعون طوال حياتهم من أجل غايات فارغة وتافهة ويستنفدونها في سبيل هذه الأهداف الفارغة ناسين الله تعالى. وعلى الرغم من كل هذا فإنهم لا ينجحون– في الغالب– في تحقيق هذه الغايات الفارغة رغم كل هذا الجري واللهاث لأن نفوسهم لا تشبع بل هي جائعة على الدوام. لأنهم وببساطة يطلبون المزيد ثم المزيد ولا يكتفون ولا تشبع نفوسهم أبداً. فإذا وصلوا إلى غاية ما تراهم يحاولون الوصول إلى غاية أكبر منها. ولأنهم إن حصلوا على وضع أو مرتبة ما يحاولون الوصول إلى مرتبة أعلى، ثم مرتبة أعلى. . . وهكذا يقضون حياتهم في الجري لإشباع رغباتهم التي لاتعرف الشبع حتى يدركهم الموت. إنّ رغباتهم في الحصول على الشهرة والمال والمتعة تظل ناقصة بالمعايير الدنيوية، لأنه ستظهر أمامهم بالتأكيد أشياء أحسن مما هو موجود لديهم.

فعلى سبيل المثال نرى أحدهم يحلم دوما باقتناء إحدى السيارات من الطراز الرياضي الحديث، فنراه بعد محاولات كثيرة وصعبة يحصل على هذه السيارة الغالية ويحقق حلمه هذا الذي طالما سعى لتحقيقه. ولكن ماذا نرى؟ سوف تظهر أنواع أخرى من هذه السيارات التي تحتوي على ميزات أحسن وأفضل وأحدث. أو لنفكر في شخص قد قضى زمنا طويلا في جمع النقود اللازمة لشراء بيت طالما حلم أن يقتنيه ويعيش فيه.

ولكننا نراه بعد تحقيقه لحلمه واقتنائه ذلك البيت بعد كل هذا التعب والعناء- يصادف بيتا آخر أجمل بكثير من بيته، فنراه وقد تملكه الإحباط والحزن، وبدأ بيته يفقد في نظره جاذبيته السابقة. بالإضافة إلى الألم الذي ينتاب الذين يرون ما يعتري ممتلكاتهم من خراب بسبب القدم وما تجريه السنوات عليها من آثار سلبية.

إن التقدم العلمي المدهش يقدم للإنسان دوما أجهزة أحدث وأجمل وأحسن، فتفقد ما لدى هؤلاء من هذه الممتلكات رونقها وجاذبيتها وتبدو قديمة في أعينهم. ويستمرون طوال حياتهم في الدوران في هذه الدائرة المفرغة فلا تسكن نفوسهم أبدا ويظلون في لهاث دائم للحصول على الأجمل وعلى الأحسن. . وبعد الحصول عليه يفقد هذا الشيء قيمته فيبدأ البحث عن الجديد مرة أخرى، وعن الأجمل. . . هذه هي الدائرة المفرغة التي عاش فيها الإنسان طوال التاريخ. لذا فإن الإنسان العاقل يجب أن يقف وأن يراجع نفسه في هذا الأمر ويعلم أن هذا الجري الأعمى لن يؤدي إلى نتيجة وان يقول لنفسه: " لا بد وأن هناك خطأ كبيراً في هذا النوع من التفكير".

لكن نرى مع الأسف أن أغلبية الناس لا يملكون مثل هذا المنطق ويظلون يجرون وراء أحلام وخيالات لا يمكن أن تتحقق، بينما لا يستطيع أحد منا أن يضمن حياته حتى لبضع دقائق قادمة، فالتعرض إلى حادث سيارة، والتحول إلى شخص معاق، أو التعرض حتى للموت من الأمور السهلة والاعتيادية. والشخص الذي يتذكر الموت للحظة واحدة يدرك تمام الإدراك أنه عندما يثوى في قبره فلن يجديه نفعاً لا المال ولا الأولاد ولا المنصب أو الجاه ولا أي شخص من الأشخاص الذين كانوا موجودين حوله. وسواء أكان غنياً أم فقيراً، جميلاً أم قبيحاً، فكل إنسان سيلف ببضعة أمتار من الكفن ويدفن في تحت التراب.

لهذا فإن هذا الكتاب يكشف الوجه الخادع لهذه الدنيا الفانية التي لا تعطي الضمان لأي إنسان، والتي تمر كلمح البصر، والكتاب يبين أيضا أن هذه الحياة هي بمثابة السراب الذي لا حقيقة له. لهذا فإن الله أوصى المؤمنين أن يحذروا الناس جميعا وينذروهم ويبينوا لهم هذه الحقائق.

كذلك فقد أمر الله جميع البشر ألا ينخدعوا بهذه الحياة الدنيا وأن يطيعوا أوامره، وهو في هذه الآية يحذر الناس:

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾

(فاطر 5)

الحياة الدنيا

إن الكون من حولنا موجود ضمن نظام دقيق، وتناغم فريد. وهو يضم 300 مليار مجرة وكل مجرة منها تحتوي في المعدل على 300 مليار نجم. ويتجلى النظام المدهش الموجود في الكون في أن هذه المجرات والنجوم والكواكب والأقمار تدور حول نفسها من جهة، وتدور ضمن نظامه الفلكي في مدارات معينة من جهة أخرى. ولا يمكن بأي حال من الأحوال تفسير نشوء كل هذا النظام الرائع والترتيب المذهل، والحساب الدقيق عن طريق المصادفة.

وبالإضافة إلى هذا فعند أخذنا بنظر الاعتبار سرعة تمدد الكون يصبح امن المستحيل للعقل البشري أن يفهم طبيعة التصميم والنظام الموجود في هذا الكون. فأوزان النجوم والكواكب والمجرات وعناقيد المجرات التي تصل أوزانها إلى البلايين وملايين البلايين من الأطنان تتحرك في الفضاء بسرعات مدهشة. فالأرض مثلاً تدور حول محورها بسرعة تصل إلى 1670 كم /ساعة وتدور حول الشمس بسرعة 108000 كم/ساعة، بينما تدور المجموعة الشمسية حول مركز المجرة بسرعة تصل إلى 720000 كم/ساعة. كذلك تتحرك مجرة درب التبانة- أي مجرتنا- في الفضاء بسرعة تصل إلى 950000كم/ساعة.

إن استمرار هذه الحركة والتي لا تعرف السكون وبهذه السرعة تجعل كلا من الأرض والشمس تبتعدان كل سنة عن موقعهما في السنة التي قبلها بنحو500 مليون

كم! لذلك فنحن نعيش على أحد هذه الأجرام السماوية التي تتحرك بسرعة فلكية مخيفة. وبالإضافة إلى هذا فإن كوكبنا يعد كوكباً صغيراً وعادياً فيما إذا قورن مع بقية الكواكب الموجودة في هذا الكون الواسع مترامي الأطراف.

إن هذه الدرجة التي لا تصدق من الدقة في التوازن الموجود في نظام الكون تشير إلى حقيقة لا مفر منها وهي، أن حياتنا على كوكبنا الأرضي تحدق بها الأخطار من كل مكان لأن الأجرام السماوية إذا تزحزحت أو تحركت أو انحرفت ببضع ميليمترات فقط خارج أفلاكها فإنه من الممكن أن تتولد نتائج وخيمة تجعل الحياة فوق كوكبنا مستحيلة. لقد كان من الممكن وقوع حوادث اصطدامات مروعة ضمن هذا القدر الكبير من السرعات المختلفة وهذا القدر الكبير من التوازن الموجود داخل هذا النظام، ولكن الحياة لا تزال مستمرة على كوكبنا، ولا زلنا مستمرين في العيش مما يشير إلى أن احتمال وقوع الكوارث فيه أمر نادر، فالنظام فيه مستمر ويسير دون أي خلل أو اضطراب. ونحن البشر نعيش على هذا الكوكب ونستمر في هذا العيش بأمان من دون أي قلق دون أن نشعر حتى بسرعة دوران الأرض.

أكثر الناس لا يفكرون كثيرا في كيفية استمرار هذه الحياة على الأرض، ونظرا لأنهم لا يفكرون، فهم لا يدركون أن حياتهم مرتبطة في الحقيقة بتوفر شروط غير اعتيادية تفوق الخيال. ولا ينتبهون إلى هذه الحقائق، لذا نرى أن أغلبية الناس الذين يعيشون على هذا الكوكب لا يدركون لأي غاية خلق هذا الكون، فهم يستمرون في حياتهم دون أن يعبئوا كثيرا بسبب وجودهم على هذا الكوكب ولا يعيرون أي اهتمام إلى هذه الدرجة العالية من التوازن والنظام العجيب الموجود في كل زاوية من زوايا هذا الكون العظيم. بينما العقل و التأمل هو الذي يجعل الإنسان إنساناً ويميزه عن باقي المخلوقات، وهو أثمن العطايا التي منحها الله لبني البشر. والإنسان الذي لا يفكر ولا يستخدم ملكة العقل عنده لا يمكن أن يصل إلى الحقائق حول العديد من الأمور مثل: لماذا ولأي سبب يعيش الإنسان؟ لماذا خلقت الدنيا؟. ومن قبل من وضع كل هذا النظام الرائع في الكون. إن الشخص الذي إذا فكر واستوعب ما استعرضناه سيصل إلى الحقيقة التي ستسطع أمامه كالنور ومفادها:

أن الكون الذي نعيش فيه والذي يحوي كل هذا التوازن الحساس قد أوجده خالق يملك علما لا حد له، وأن كرتنا الأرضية رغم صغرها مقارنة مع بقية الكواكب قد

خلقت لغايات كبرى، ولا يوجد أي عبث في شأن من شؤون الإنسان. ولو تأملنا الكون من حولنا بدقة لوجدنا أن في كل ركن من أركانه دليلا قوياً على وجود خالق يمتلك قوةً وعلماً لا نهائيين قد خلق الإنسان لغايات معينة ولم يتركه على هواه يفعل ما يشاء، وقد ذكر الله في كتابه المنزل على الرسول صلى الله عليه وسلّم الغاية من وجود الإنسان على الأرض، فقال:

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُور﴾

(سورة الملك 2)

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾

(سورة الإنسان 2)

وقد أخبرنا القرآن الكريم بأن الله لم يخلق أي شيء على الأرض عبثا من دون غاية.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَأتخذنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (سورة الأنبياء 16-17)

ماهية الدنيا

لقد خلق الله الحياة الدنيا ليختبر فيها الإنسان ويمتحنه ولكي يرى من يتحلى بالأخلاق الحميدة ويبدي له إخلاصاً حقيقياً وعبودية كاملة. بمعنى آخر، فإن هذه الدنيا هي دار امتحان للتمييز بين الإنسان الذي يجتنب معصية الله وبين من يجحد به. ففي دار الامتحان هذه التي تحوي القبح والجمال، الكمال والنقصان يمتحن العبد ضمن نظام لا يعتريه أي نقص. فالإنسان يمكن أن يظهر إيمانه بأن يسلك طرقا متنوعة في هذه السبيل، وفي النهاية فالذين يؤمنون بالله إيمانا لا يعتريه الشك أو التردد سيتميزون عن الملحدين والمنكرين وسيصلون إلى بر النجاة. وقد بين القرآن الكريم هذه الحقيقة في قوله:

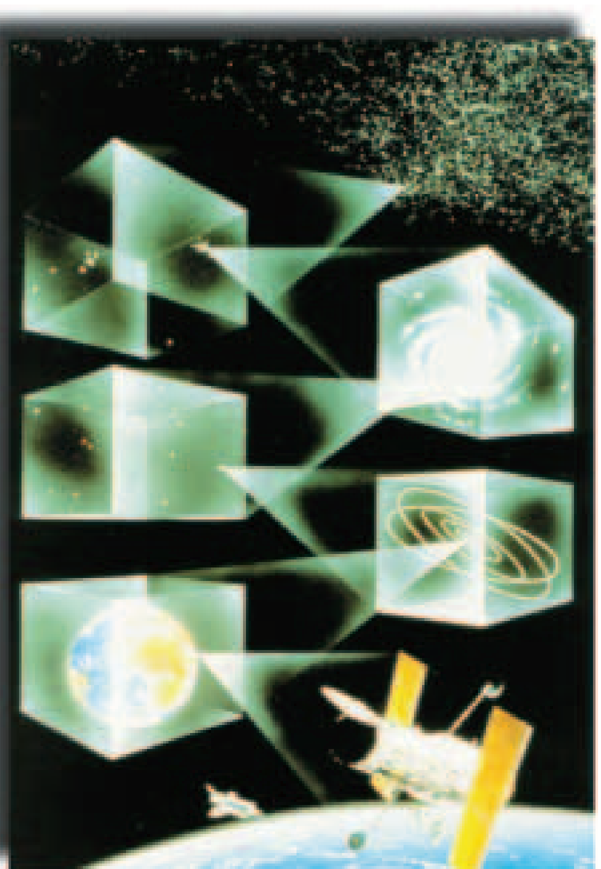
﴿أَحسبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُون وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِين﴾

(سورة العنكبوت 2-3)

ولكي نفهم ماهية هذا الامتحان، يجب أن نتعرف بصورة جيدة على خالق هذا الكون ومدبره، فهو الله خالق السماوات والأرض وما بينهما من العدم، والذي يحتاج

نرى في الصورة الجانبية كيف أن الأرض تقع ضمن المجموعة الشمسية وأن هذه المجموعة الشمسية تقع ضمن مجرة درب التبانة، وأن مجرتنا تشغل حيزاً صغيرا من هذا الكون العظيم.





إليه كل كائن وكل موجود بينما هو تعالى المنزه عن النقص لا يحتاج إلى أحد، وهو خالق الإنسان من العدم قد أنعم عليه نعماً لا تعد ولا تحصى.

فليس بمقدور الإنسان أن ينظم بنفسه الفعاليات الحيوية العديدة داخل جسمه كعملية السمع والبصر والمشي وعملية التنفس. . . إلخ. ومع أن الإنسان لم يستطيع أن يدرك حق الإدراك كيفية عمل هذه الأعضاء والأجهزة فإن الله قد شكلها وصورها ووضعها في جسمه، ومقابل كل هذه النعم فإن الله لا يطلب من عبده سوى الإخلاص له في العبودية. ولكن وحسب ما تذكر العديد من الآيات نرى أن الكثير من البشر يتميزون بخاصية الجحود والظلم، فبدلاً من أن يشكروا ربهم ويحمدوه ويخضعوا له تراهم ينسون هذا ويتصرفون بكل ظلم وجحود ويتعدون الحدود الموضوعة أمامهم، متوهمين بأنهم يمتلكون قوة كبيرة, وبأنهم لن يفارقوا هذه الدنيا إلا بعد زمن طويل. لهذا



إن الإنسان الذي يعتبر نفسه صاحب قوة وجبروت، لا يمثل سوى نقطة صغيرة في هذه الأرض عند النظر إليها من الفضاء.

يرى معظم الناس أن لهم حياةً مختلفة عن الآخرين، ويحسبون أن لهم في هذه الدنيا وضعًا مختلفًا. بينما كل إنسان فقيراً كان أم غنيًّا، كبيراً كان أم صغيرا قويا كان أم ضعيفا يحتل مكانا محدوداً للغاية في هذا الكون مترامي الأطراف والذي يحوي المليارات من النجوم والكواكب والمجرات.

السبب فإن غايتهم الوحيدة تكون متوجهة فقط لهذه الحياة الدنيا. فهم يتناسون الموت ولا يقومون بإعداد أنفسهم بأي شكل من الأشكال لما بعده، فشغلهم وشاغلهم هو أن يوفروا لإنفسهم حياة أفضل وأن يستمتعوا بجميع اللحظات التي يعيشونها إلى أقصى حد ممكن، وأن يشبعوا جميع أهوائهم ورغباتهم.

وقد ذكر الله في آياته الكريمة مدى ارتباط الإنسان بهذه الدنيا بقوله:

﴿**إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا**﴾ (سورة الإنسان 27)

ويغيب عن بال معظم هؤلاء المنكرين والذين يلهثون وراء هذه الدنيا سر في غاية الأهمية ألا وهو الانقضاء السريع لهذه الدنيا. وهذا موضوع ينساه الوالهون بالدنيا ولا يفكرون فيه ويحاولون تناسيه ما استطاعوه إليه سبيلا.

ولكن مهما حاولوا فلن يستطيعوا الفرار من هذه الحقيقة.

بضع ثوان أم بضع ساعات؟

دعنا نفترض ًبأنكم في يوم عطلة وأنكم- وبعد رحلة دامت ساعتين- وصلتم إلى القرية السياحية التي طالما حلمتم بالذهاب إليها، حيث المكان يعج بالزوار من حولكم. وفي صالة الانتظار التقيتم ببعض الأصدقاء وبعد تبادل التحيات معهم توجهتم إلى غرفتكم، ولكي لا تضيعوا المزيد من الوقت أسرعتم في تغيير ملابسكم وانطلقتم إلى ساحل البحر. و إذا بمياه زرقاء صافية تمتد أمامكم، وساحل رملي يشع مثل الذهب، والجو الحار يدعوكم لكي تستعجلوا في النزول إلى البحر. وبدأتم في السباحة وفجأة سمعتم صوتا يقول لكم "انهض ! لقد بلغت الساعة الثامنة صباحا". ولكنكم لم تفهموا شيئا، ولم تجدوا تفسيرا لهذا الصوت. وفي تلك اللحظة ستحاولون أن تجدوا حلقة وصل بين ما تسمعونه وبين المكان الذي أنتم فيه. في النهاية بدأتم تفتحون أعينكم شيئا فشيئا وتستردون وعيكم، و إذا بجدران غرفتكم تتراءى أمام ناظركم. . . آه!. . . لقد كان ذلك حلما إذن!! وفعلا وبعدما أفقتم أدركتم أن كل ما رأيتموه كان عبارة عن حلم جميل. ولكن كيف؟!. . . . يا الهي!. . . لقد كان كل شيء حقيقيا إلى أبعد الحدود!. . . لقد أمضينا قرابة الساعتين في الطريق إلى القرية السياحية ولقد التقينا العديد من المعارف والأصدقاء في تلك القرية السياحية، وكذلك كان هناك ذلك الساحل الجميل والبحر الجميل، وماذا أقول عن ذلك الجو؟ ذلك الجو الذي كان رائعا بل وما زلت أشعر بحرارته في جسمي على الرغم من الطقس الشتوي السائد حولي وأنا أحاول القيام من الفراش. . . . أنه شيء محير حقاً.

إذن فعلى الرغم من تخيلكم بأنكم قضيتم فترة طويلة، إلا أن هذا الزمن الطويل المتخيل لم يكن سوى ثوان معدودات مرت بكم في الحلم. ومهما حاولتم إثبات عكس هذا، ففي النهاية يجب القبول بالحقيقة الواقعة.

ومثل هذا الذهول والدهشة هو ما سيصيب المنكرين الذين يأتون إلى الآخرة بعد الانقضاء السريع لحياتهم الدنيوية بعد ما خدعتهم هذه الحياة القصيرة وظنوا بأنهم ماكثون فيها ألف عام. بل إن البعض منهم كان يخيل إليه أنه سيعيش فيها آلاف السنين. ولكن بعد بعثهم وحشرهم بعد الموت سيدركون بأن حياتهم الدنيا كانت قصيرة جدا.

وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله:

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأرض عَدَدَ سِنِينَ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أو بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّين

قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إلا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُم ْتعلَمُون أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (سورة المؤمنون 112– 114)

وسيحسب الذين عمروا في الدنيا عشرة أعوام أو مائة عام بأنهم لم يلبثوا فيها سوى يوم واحد فقط. تماما مثل الشخص الذي ينتبه من نومه بعد حلم طويل فيكتشف أن ما رآه من حلم حول عطلة طويلة كان عبارة في الحقيقة عن عدة ثوان فقط. . بل ستبدو هذه الحياة التي عاش سنواتها طولاً وعرضاً وبكل حرص وتشبث بها وتمسك بأهدابها. . . ستبدو له وكأنها كانت عبارة عن ساعة واحدة فقط، وهو مستعد لأن يقسم ويحلف على هذا:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾
(سورة الروم 55)

فكما هو معلوم لدى الجميع وبصورة أكيدة أن الحياة الدنيا محدودة يمكن أن تمتد إلى بضع ساعات أو إلى يوم واحد أو إلى أسبوع أو إلى ثلاثين عاما أو إلى سبعين عاماً. وككل شيء محدود فإنها ستنتهي في يوم من الأيام. لذا فإن الشخص الذي يعيش 80 عاما أو حتى 100 عام، فإن كل يوم يمر من عمره هذا يعني اقترابه شيئاً فشيئاً من النهاية المحتومة والتي لا مفر منها على الإطلاق. ويعرف كل واحد منا أمثلة على هذا من حياته. فكم من خطة طويلة الأمد رتبتها في حياتك ثم إذا بك ترى أن المدة الطويلة قد انقضت تماما، وعندها نلتفت إلى الوراء ونقول: " رباه. . . كيف انقضت كل هذه المدة بهذه السرعة ؟ ".

لنأخذ مثالاً آخر ولنتصور في ماذا يفكر الشاب وهو يخطو خطواته الأولى في مرحلة الثانوية. فعندما كان في الصف الأول ثانوي فإنه يتصور بأن بلوغ المرحلة الأخيرة من الثانوية حلمُ بعيد المنال ولن يأتي، وأن أمامه مشوارا طويلا. ولكننا نراه ينهي الثانوية ويدخل الجامعة ويتخرج حتى يكاد لا يتذكر ما كان يفكر به أيام السنة الأولى من الثانوية لأنه في هذا الوقت لديه خطط أخرى يفكر في إنجازها، فربما يخطط للزواج بعد عدة أشهر وهو يجر تلك الأيام ويرى أنها لا تنتهي ويستبطئ وصول ذلك اليوم الموعود. ولكن ذلك اليوم سيأتي أيضاً وسينقضي أيضاً وبدون أن يشعر تأخذه دوامة الحياة فلا يرى نفسه إلا وقد أصبح أبا وجدا له أبناء وأحفاد، و إذا به قد أصبح رجلا مسناً وشيخاً. . . . إذن فقد أوشك العمر على الانتهاء، ولم يبق على موعد اللقاء مع ذلك اليوم الكبير سوى بضعة أعوام، وربما بضعة أسابيع بل ربما بضع دقائق. . . من يدري؟.

لقد بين لنا الله تعالى حقيقة مهمة وهي أن هذه الحياة مجرد محطة انتقالية ومؤقتة وقصيرة نمر من خلالها إلى الدار الحقيقية، إلى دار الإقامة الدائمة وهي دار الآخرة التي هي "دار المقام". وشرح لنا عن طريق الوحي جميع التفاصيل المتعلقة بالحياة الخالدة في الجنة وفي جهنم. وعلى الرغم من كل هذا نجد الإنسان يوجه جلّ اهتمامه لهذه الدنيا القصيرة محاولا إشباع نزواته وأهوائه وشهواته. ولكن لو حاول الإنسان أن يستوعب الأمر بجميع تفاصيله وأن يحكم العقل والمنطق لوجد أنه لا وجه للمقارنة بين حياة أبدية ونعم لا تزول وعدنا بها رب العالمين وبين هذه الحياة القصيرة الفانية، وأن عليه أن يعمل من أجل الفوز بالجنة وما تحويها من نعم لا مثيل لها، حيث فيها لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وهذا يتم عندما يكون توجهه خالصا إلى الله.

أما الذين لا يفكرون في هذه النهاية ولا يرون بأنها واقعة بهم، فإنهم ولاشك سيستحقون العذاب الذي أعدّه الله لهم، حيث ذكر الله في قرآنه الكريم النهاية المحتومة لهؤلاء البشر الذين يهربون من أداء العبودية لرب العالمين في قوله:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إلا سَاعَةً مِنْ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَد خَسِرَ الَّذينَ كَذَّبُوا بلقَاء اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدين﴾ (يونس 45)

﴿فَاصْبرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ منْ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إلا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إلا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (الأحقاف 35)

الحرص الذي لا يؤدي إلى نتيجة

لقد استعرضنا فيما سبق قصر هذه الحياة الدنيا، وكيف إنها تمر بنا كلمح البصر. هنا يجب الإشارة إلى نقطة مهمة تغفل عنها عيون الكثير من الذين وضعوا جلّ اهتمامهم هذه الدنيا، وهي أنه لا يمكن لأي شخص مهما امتلك من إمكانيات وقوة وثروة أن يصل إلى الطمأنينة الحقيقية وإلى الراحة النفسية من دون الإيمان بالله.

إن الإنسان ما إن يبدأ بالوعي وبإدراك الأشياء من حواليه حتى تبدأ وتظهر مطالبه ورغباته التي لا تعرف لها أي نهاية، وهو يحاول تلبية جميع هذه الرغبات وإشباعها. ولكن الإنسان مقابل هذه الرغبات التي لا تنتهي لا يملك الإمكانيات التي تحققها جميعا، لأن إمكانياته محدودة. وحتى لو فرضنا أنه يستطيع ذلك فلا يغير هذا من الأمر شيئا، لأنه حتى وإن أصبح أغنى أغنياء العالم فهذا الغنى زائل، لأنه إن كان متوسط

العمر يتراوح بين سبعين إلى ثمانين سنة وما إن تنتهي هذه المدة حتى يفقد كل شيء بالموت.

لذا فإن الإنسان الذي لا يعرف حدوداً لرغباته يظل يعيش– كجزاء وعقاب من الله– في حالة من "الجوع وعدم الاكتفاء النفسي"، وتتملكه في كل فترة من فترات حياته رغبة عارمة في تملك أشياء معينة. وهو في سبيل تحقيق رغباته تلك نراه يجري ويعمل بكل جهد حتى وإن أدّى به ذلك إلى أن يسلك في هذه السبيل طرقا ملتوية, ويكون مستعدا في هذا الخصوص لكي يعادي أقرب الناس إليه:عائلته وأقرباءه وأصدقاءه إن ظن أنهم سيكونون حجر عثرة أمام تحقيق رغباته, والغريب في الأمر أنه ما إن يحصل على بغيته حتى يبطل سحر ذلك الشيء لديه ويفقد قيمته وينطفئ بريقه مهما كان ذلك الشيء ثمينا. وكأنه لم يبذل في سبيله كل تلك الأشهر والسنوات. ثم إذا بنا نراه يبدأ مجدداً في السعي لإمتلاك شيء آخر وقعت عيناه عليه ويبدأ كما فعل سابقا العمل بكل جهد من أجل ذلك الهدف الجديد. . . وهكذا يستمر في سعيه دون انقطاع.

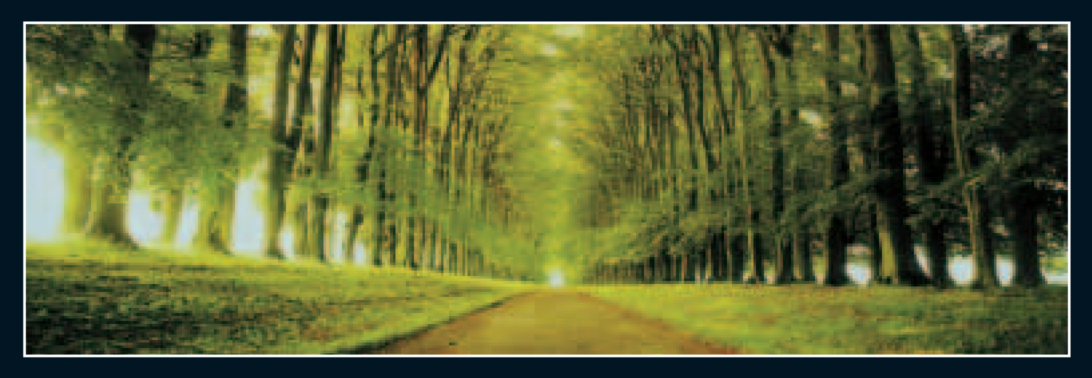
إن الشخص المنكر يستمر حتى وفاته في السعي من أجل امتلاك الجاه والمال وكل ما تقع عيناه عليه دون أن يفتر. ولا يسعد أبدا بما تملكه وحصل عليه, فلا يكون قنوعاً بما لديه لأنه لا يوجد في نيته كسب رضى الله بل العكس فهو يسعى من أجل إرضاء روح الأنانية التي تتملّكه، وهذا بالطبع يؤدي إلى أن يكون مختالاً ومغروراً بنفسه، ولهذا فإن رب العالمين لا يمنح الطمأنينة الحقيقية وراحة البال لأمثال هؤلاء من الذين أصبحوا عبيدا لشهواتهم ولنزواتهم ولأنانيتهم.

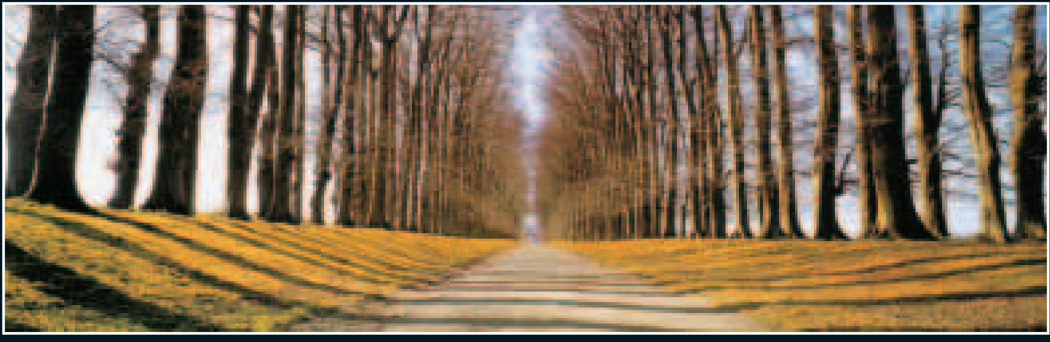
ونجد هنا أن الله ذكر في قرآنه الكريم أن الذين يتوجهون إلى الله ويذكرونه باستمرار هم الذين يعيشون حياةً ملؤها الطمأنينة وراحة البال.

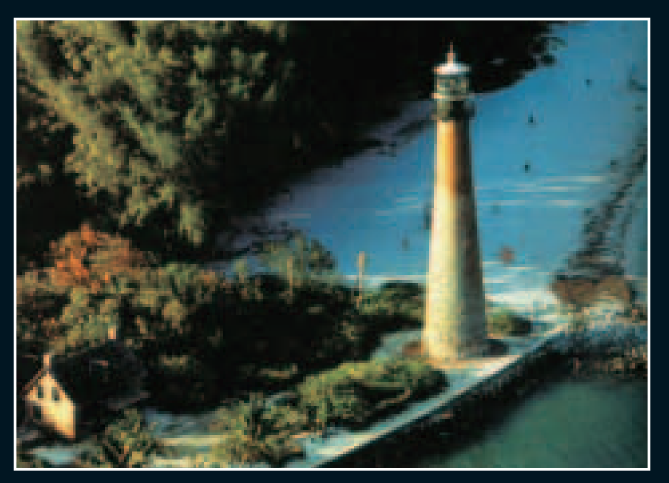
﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ إلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ (الرعد 28)

الانخداع بالحياة الدنيا

إذا أجال الإنسان بصره فيما حوله رصد الكثير من أنواع ومن صور الجمال التي تبهج النفس والفؤاد وتسر الأعين وهو يراقب كل هذه الأشياء بإعجاب كبير، فالتصميم الدقيق والدقيقة المصممة بكل جمال في جسم الإنسان. . . ملايين الأنواع من النباتات والزهور الجميلة. . . انتشار قطع الغيوم الكبيرة وتناثرها على مساحات شاسعة في سماء







مثلما بين الله تعالى في قرآنه الكريم فإن كل شيء جميل وحسن هو لا محالة زائل، وأن هذه الحقيقة تبدو واضحة للعيان في كل مكان ينظر إليه الإنسان المتفكر. ويمكن رؤية هذه الحقيقة بشكل واضح من خلال هذه الرسوم. فكل مكان على وجه الأرض مهما كان رائعا وجميلا، فإنه يمكن أن يتحول خلال عشر سنين بل حتى بعد عام واحد إلى حالة لا يمكن التعرف عليها.





كل شيء في الطبيعة يتعرض إلى التلف مع الزمن. وهذه هي حقيقة الحياة الدنيا.

رحب. . . بالإضافة إلى الكثير من المخلوقات والأشياء التي صممت بشكل دقيق تبعث في النفوس البهجة والسرور. بالإضافة إلى ما تشاهده الأعين فإن هناك حواساً أخرى تمنح الإنسان فرصة الاستمتاع بأشياء أخرى. مثلا حاسة التذوق التي تمنحنا فرصة تذوق الأطعمة المختلفة، وحاسة السمع التي تمنحنا فرصة الاستماع إلى مقطوعة موسيقية عذبة تخترق شغاف القلب، وحاسة الشم التي تجعلنا نشم رائحة وردة عطرة. فكم هو جميل ومبهج أن نشاهد منظر فاكهة متدلية من غصن شجرة وأن نشم رائحتها ثم أن نستمتع بطعمها اللذيذ؟. وكذلك ما نراه من اختلاف الألوان وتناغمها في الأزهار وأشكالها وصورها العديدة الجميلة والتي تمنحنا الإحساس بالبهجة والانشراح والمتعة، وكذلك





منظر وجه جميل لإنسان، أو منظر بيت جميل أو سيارة حديثة. . . قائمة يطول الحديث عنها وهي تجعل بني البشر يجرون طوال حياتهم من أجل أن يظفروا بها. ولكن ما أن يلتفت إلى هذه الأشياء بعد مرور فترة من الوقت عليها حتى يقع في حيرة كبيرة لأنه سيرى أن كل هذه الأشياء قد فقدت جاذبيتها وجمالها، وانقلبت إلى حال لا يرغب أحد حتى في إلقاء نظرة عليها.

فالفاكهة اليانعة التي قطفت حديثا من الشجر والتي كانت نضرة وزاهية تفوح بعطر أخاذ نراها بعد فترة وقد فقدت نضارتها وبدأت علامات التلف تظهر فيها، وتبدأ تدريجيا في التعفن وتنبعث منها روائح كريهة. ثم ما بال تلك الأزهار الحمراء التي قطفناها من الحديقة والتي كانت تضفي على البيت جمالا؟ لقد فقدت رونقها ونضارتها بعد أيام معدودات وبدأت تذبل. . لنتأمل وجه إنسان حسن الطلعة فبعد 60 عاما عندما تتطلع إليه ترى أن التجاعيد والخطوط العميقة قد أخذت مكانها في وجهه واشتعل رأسه شيباً حتى لا نكاد نعرفه. وذلك البيت الذي طالما حلمت به تراه بعد سنين وقد أصبح بيتا بالياً، ونفس المصير سيواجه سيارتكم الحديثة حيث ستفقد جاذبيتها بعد بضع سنين، ويكون الصدأ قد انتشر في أجزائها المختلفة. والنتيجة التي نخلص إليها أن كل شيء موجود حول الإنسان يميل إلى الفساد والتحلل والبلى وإلى فقد جاذبيته وجماله وجدته.

قد يعتبر معظمنا هذه الأمور " نتيجة طبيعية أو مرحلة طبيعية" لا غرابة فيها. ولكن توجد هنا دون شك عبرة كبيرة ومعنى عميق لأن كل شيء عندما يواجه مصيره من العطب والقدم والتآكل يرسل لنا إشارة ورسالة مهمة هي: إن هذه الدنيا ما هي إلا سراب ووهم وخدعة كبيرة! وأن جميع الموجودات الحية من نبات وحيوان وإنسان مصيره إلى الفناء والزوال، وأن السبب الكامن وراء عدم إدراك هذه الحقيقة لدى الكثيرين منا يكمن وراء ولادة أجيال جديدة من الكائنات تأخذ مكان الذين أدركهم الموت، لذا فإن الإنسان الذي لا يدرك حقيقة الموت نراه يعطي أهمية كبيرة في هذه الدنيا للأشياء الفانية بينما الله تعالى هو صاحب كل شيء ومالكه، والأحياء يحيون ويموتون بإرادته وبقدرته وحسب مشيئته.

وقد حذرنا الله من خلال العديد من الأمثلة الموجودة في القرآن الكريم من الانخداع بزيف هذه الحياة ودعانا إلى التفكير بعمق في هذه الحقيقة:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأرض مِمَّا

يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الأنعَامُ حَتَّى إذا أخذ تْ الأرض زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أنهم قَادرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أو نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (يونس 24)

فكما تذكر الآية الكريمة فإن كل شيء جميل وحسن, سيأتي يوم يفقد فيه نضارته وحسنه بل حتى يفنى ويختفي من الوجود. ولكن معرفة هذا لا تكفي بل يجب التفكير بعمق في هذه الحقيقة الكبيرة، والله يقول بأنه يضرب الأمثال للذين يفكرون ويتأملون ويتعظون. وبما أن الإنسان كائن عاقل إذن عليه أن يفكر وأن يصل إلى نتيجة معينة من تفكيره. لأن الإنسان الذي لا يفكر ولا يتدبر ولا يعقل ولا يحمل مثل هذه الأوصاف المهمة لا يبقى هناك فرق كبير بينه وبين الحيوانات. ولا يميزه شيء عن سائر المخلوقات الأخرى، لأن هذه المخلوقات الأخرى تتوالد وتكبر وتتكاثر أيضاً وتستمر في الحياة ضمن القوانين التي تسيّرها، وطبيعي فهي لا تفكر كيف ولماذا خلقت، وأنها ستموت يوماً ما، وهي لا تكلف نفسها عناء البحث عن حقيقة هذه الحياة الفانية. وهذا شيء طبيعي بالنسبة إلى مثل هذه المخلوقات لأنها لم تخلق ككائنات مدركة أو صاحبة عقل. لأنها ليست مكلفة في البحث عن غاية الخلق وإدراك سر وجود الخالق، لكن الأمر يختلف مع الإنسان لأنه يكون مسؤولاً عن معرفة خالقه والعمل بما أمره به وهو مسؤول بأن يدرك بأن هذه الحياة ليست دار بقاء، بل هي مجرد دار زائلة يعيش فيها لفترة قصيرة قبل أن ينتقل إلى دار الآخرة. واجب عليه أن يدرك هذه الحقيقة ويبدأ بإعداد نفسه بأن يسلك جميع الطرق التي تجعله ينال مرضاة الله قبل أن يتقل إلى دار الآخرة, ولكن أي تصرف عكس هذا سوف يؤدي به لا محالة إلى مواجهة متاعب كبيرة في الدنيا وإلى عذاب شديد في الآخرةً.

أمثلة من القرآن حول زوال الدنيا

ضرب الله لنا في القرآن أمثلة عديدة على زوال الحياة الدنيا. فقد استعرض العديد من المجتمعات الإنسانية التي عاشت في السابق وما أصابها من كوارث وما صب فوق رؤوسها من صنوف العذاب. كما أو ضحت الآيات القرآنية الوجه الحقيقي للحياة الدنيا وصاحب الجنة وحواره مع صديقه الوارد ذكرهما في سورة الكهف مثال على هذا:

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تُرَنِي أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (الكهف 32-46)

تشير هذه الآية الكريمة إلى مدى الخطأ الذي يقع فيه الإنسان عندما يغتر بماله وبقوته، وكيف أن الله يستطيع في لحظة واحدة سلب كل شيء عنه. وإلى الحقيقة نفسها تشير آية أخرى:

﴿إِنَّا بَلَوناهم كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (القلم 17-33)

فقد يكون الإنسان غنياً ولا يكون سعيدا بغناه. وقد تكون المرأة حسناء ويكون هذا الحسنُ وبالا عليها. قد يكون الإنسان مشهوراً ولكن في يوم ما يعيش وحيداً ثم يموت وحيداً في إحدى الغرف دون أنيس ولا قريب. وقد ضرب الله لنا مثالا لهؤلاء قارون وكان من قوم سيدنا موسى عليه السلام, فهنا يشير الله إلى قارون و إلى الذين على شاكلته ممن خدعوا بزينة هذه الدنيا وهم ظاهراً يؤمنون بالله ولكنهم نسوا الله بانخداعهم بسحر هذه الدنيا.

يقول الله تعالى:

﴿إن قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أو لِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخرة وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأرض إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِين قَالَ إِنَّمَا أو تِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَو لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُون مَنْ هُوَ أشد مِنْهُ قُوَّةً وأَكْثر جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ الْمُجْرِمُون فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِين يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أو تِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيم وَقَالَ الَّذِينَ أوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إلا الصَّابِرُون فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأرضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُون اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنْ الْمُنْتَصِرِين وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ تِلْكَ الدَّارُ الآخرة نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأرض وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَات إلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (القصص 84 – 76)

وكما رأينا فإن الخطأ الذي وقع فيه قارون لا يتعلق بإنكاره وجود الله، ولكن خطئه يكمن في تحركه بصورة مستقلة عن إرادة الله وبإحساسه بامتلاك قدرة منفصلة ذاتية، وأن هذه القوة التي منحه إياها الله تعالى قد فسرها على أنها حق طبيعي لإحساسه بتفوقه على باقي البشر. لكن يجب معرفة أن الجميع هم عباد الله، ولا يحق لهم المطالبة بأي حق منه، وأن ما منحه الله لعباده هو فقط ناتج عن الكرم الإلهي وعلى الذين يعون هذه





﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ
السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ
الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ
الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾
(سورة الكهف ٤٥)

الحقيقة أن لا يتمردوا أمام ما أنعم الله عليهم ولا يعصوا ولا يفرحوا بهذا الشكل المبالغ به لما منحهم رب العالمين من نعم, بل عليهم أن يشكروه وأن يفرحوا بهذا الإحساس، وأن هذا السرور الذي يجب أن يعيشوه هو أعظم وأرفع إحساس في الدنيا.

أما الذين أتخذوا قارون وأمثاله قدوة لهم في حياتهم فسوف يواجهون بالخسران والفشل، و إذا استمروا في عدم الاتعاظ بما أصابهم من محن ومصائب جراء سلوكهم هذا عندها سيكون مأواهم الخلود في نار جهنم، وهذه الحقيقة عبرت عنها هذه الآية الكريمة:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَ الأولاد كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخرة عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (الحديد 20)

عجز الإنسان

لقد خلق الله الإنسان على أحسن صورة, ومنحه صفات عليا, وفضله على كثير من مخلوقاته بما وهب له من إمكانية اتخاذ القرارات وإمكانية تطبيق ذلك عمليا، ووضع الخطط واستنباط الحلول إضافة إلى القدرات الذهنية الأخرى.

لكن يا ترى هل فكرتم لماذا يحتاج مثل هذا المخلوق الذي يمتلك كل هذه الصفات العليا إلى بدن خاص لكي يحميه؟ لماذا توجد هناك مخلوقات لا ترى بالعين المجردة بل باستعمال المجاهر الإلكترونية مثل البكتريا والفيروسات التي يمكن أن تسبب ضرراً قاتلا للإنسان؟ لماذا يضطر الإنسان أن يحافظ على نظافة بدنه طوال حياته؟ولماذا يعاني جسم الإنسان من الشيخوخة والهرم؟.

قد يعتبر البعض كل هذه الأمور أشياء طبيعية، فيما نرى أن هناك غاية خاصة لكل شيء تم إستعراضه حتى الآن وقد أوجد الله جميع التفاصيل التي من خلالها نرى عجز الإنسان وضعفه، ففي سورة النساء الآية 28 يسترعي انتباهنا إلى هذه الحقيقة بقوله: (**وخلق الإنسان ضعيفاً** ...) أي أن كل هذه الأمور موجودة لكي يعلم الإنسان بأنه خلق ضعيفا ويدرك مقدار ضعفه وعجزه أمام رب العالمين، وليعرف بأن هذه الدنيا لا يطول الانتظار فيها.

فالإنسان لا يعرف متى وأين سيولد وأين ومتى سيموت، وهو مهما عاش حياة سعيدة فإن هناك عوامل يمكن أن تؤثر سلبا على سير حياته، وهو لا يملك أي آلية

تمكنه من السيطرة على هذه السلبيات.

أجل!. . . إن جسم الإنسان يحتاج باستمرار إلى العناية به والمحافظة عليه لأنه لا يستطيع التكهن بما يمكن أن يتعرض له في هذه الدنيا حتى ولو كان يعيش في أي بقعة من بقاع الأرض سواء أكان يعيش في إحدى المدن الصناعية أم على بعد آلاف الكيلومترات من أقرب مدينة حضرية، أو في مكان يخلو من الماء والكهرباء في قرية نائية، فمن الممكن ومن المحتمل أن يتعرض هذا الشخص إلى مصيبة لم تكن في حسبانه أو يتعرض إلى مرض مميت أو إلى حادث يفقد به قوته أو سلطانه أو أحد أعضاء جسمه الذي طالما كان يفتخر به.

وهذا الأمر يسري على الجميع وعلى كل شخص مهما اختلف موقع هذا الشخص من الناحية الاجتماعية أو المادية، بمعنى أن كل شخص سواء أكان راعيا يصحب حيواناته إلى المرعى أو نجما مشهوراً على المستوى العالمي فهو معرض للمرور بتجارب وحوادث تغير مجرى حياته بشكل لا يتصوره.

إن معدل وزن الشخص يتراوح بين 70-80 كغم، وهو عبارة عن كتل من لحم وعظم، وهناك طبقة خفيفة من الجلد تغطـــي هذا اللحم. وهذا الجلد الرقيق إذا تعرض إلى ضربة ظـــهرت عليه الكدمات، ويمكن أن يخدش ويجرح بسهولة، وهذا الجلد لا يتحمل التعرض للشمس لفترات طويلة، فإذا تجاوز هذا التعرض الحد الطبيعي احمر في البداية الأمر ثم انتفخ. وباختصار فإن الشخص الذي يتعرض إلى جو حار يجب أن يتخذ احتياطـــاته اللازمة لكي يحمي نفسه.

لقد خلق الله الإنسان على أحسن صورة وجهزه بنظام متكامل، ولكن الحكمة الإلهية قضت أن يكون جسم الإنسان عبارة عن لحم ودهن، وهي مواد قابلة للتلف بسرعة، وذلك من أجل إبراز حقيقة فناء هذه الدنيا و بأن هذه الحياة ما هي سوى رحلة قصيرة. و إذا تخيلنا أن جسم الإنسان خلق من مادة أخرى قوية شبيهة بالدرع، حينذاك لا يمكن لأي جرثومة أو فيروس أن يخترق بدنه فلا تصيبه الأمراض المعروفة. فالمكونات الأساسية لجسم الإنسان هي الشحم واللحم، وهي مواد قابلة للتلف بسرعة كبيرة. فإذا قمنا بتجربة وتركنا هاتين المادتين في العراء نلاحظ فساد وتلف هاتين المادتين بسرعة كبيرة. إن الحكمة من جعل اللبنات الأساسية لجسم الإنسان من هذه المواد القابلة للتلف هي إثبات عجز هذا الإنسان وضعفه. إن إحساس الإنسان بعجزه بشكل مستمر هو تذكير دائم من الله تعالى للإنسان. مثال على ذلك نلاحظ كيف أن تيارا هوائياً بارداً يترك آثاراً سلبيةً واضحةً على جسم الإنسان، وهو ما يبين

عجز جسم الإنسان، حيث بإمكان هذا التيار البارد أن يشل شيئا فشيئا أجهزة مناعة الجسم الفيزيولوجية.

لهذا فإن تثبيت درجة حرارة جسم الإنسان في مثل هذه الظروف وبصورة مستمرة في حدود 37 درجة مئوية ضروري جدا للمحافظـــة على صحته[1]. ولكن في حالة تعرض جسم الإنسان إلى تيار هوائي بارد جدا فهذا سيؤدي إلى الانهيار التدريجي للجسم.

في البداية تتسارع دقات القلب ويبدأ جسم الإنسان في الارتعاش لكي يدفئ نفسه[2]، فإذا هبطت درجة حرارة الجسم إلى 35 درجة مئوية فهذه علامة خطرة وستؤدي إلى نتائج وخيمة، إذ تبدأ ضربات القلب بالتباطؤ، وينخفض ضغط الجسم، وتبدأ الشرايين(ولا سيما في كل من الأذرع والأفخاذ والأصابع) في التقلص. والملاحظ أنه عند هبوط درجة الحرارة إلى 35 درجة يبدأ إحساس الشخص بالتبلد ويعاني أيضاً من عدم الدقة في تعيين الاتجاهات ويغلب عليه النعاس ويتشتت انتباهه، كما يعاني من شرود ذهني. وإذا استمر في تعرضه لموجة البرد هذه فترة أطول تهبط درجة حرارة الجسم إلى 33 درجة مئوية، وهذا يؤدي به إلى فقدانه الذاكرة والوعي. وعندها تهبط حرارة الجسم إلى 24 درجة مئوية يتوقف الجسم عن التنفس. وعند درجة حرارة 20 مئوية يتوقف الدماغ وتقف دقات القلب وهذا يؤدي بالنتيجة إلى وفاة الشخص. هذا المثال، إضافة إلى أمثلة أخرى سوف نتناولها في الصفحات القادمة من هذا الكتاب توضح عجز الإنسان وضعفه من الناحية الجسدية.

إن غايتنا من هذا العرض هو إظهار أن العجز الذي هو صفة من صفات جسم الإنسان يحول دون وصوله إلى الإشباع الحقيقي في هذه الدنيا ويحول دون الجري الأعمى خلف هذه الرغبات الفانية، ويذكره بالحقيقة الواضحة التي لا جدال فيها وهي أن الجنة هي دار البقاء، لذا عليه أن يوجه جل اهتمامه للظفر بها. وفي الصفحات القادمة سنستعرض كيف أن الجنة هي المكان الذي يخلو من جميع أنواع العجز الجسدي وضعفه، ومن كل أنواع النقص والعيوب، حيث سيجد الإنسان هناك كل ما يطلبه ويشتهيه، ويكون بعيدا عن كل ما يعكر صفو حياته من جوع أو عطش أو مرض أو شيخوخة أو تعب . . . . إلخ. إن هذا يظهر حقيقة أن هناك قوة عظيمة تفوق قوة الإنسان، وأن هناك حقيقة واضحة وهي أن الإنسان بحاجة ماسة إلى الله تعالى في جميع الأوقات. ويؤكد القرآن الكريم هذه الحقيقة من خلال آيات عديدة منها الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إلى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾
(فاطر 15)

متطلبات الجسد

هناك الكثير من النواقص في جسد الإنسان، فالإنسان بداية يضطر لأن يحافظ على نظافة محيطــه، ويأخذ الوقت الذي يصرفه في هذا السبيل نصيبا وافراً من حياته. فالكثير من الاستطلاعات المنشورة تبرز الوقت المبذول في عملية الغسل في الحمام كالحلاقة وغسل اليدين والرجلين والشعر والجلد... الخ. نلاحظ هنا طول المدة الزمنية المستغرقة من عمره وهو يقوم بهذه الأعمال التي نندهش عند القيام بحساب طول المدة الزمنية لها، فهي مدة لا تخطر على بال الإنسان.

إذا حولنا نظرنا إلى ما يحيط بنا سنرى أناساً من مختلف الصنوف من البشر، سنجد أن الكثير منهم يهتم بنظافة جسمه وملابسه، ونرى السيدات اللائى يضعن المكياج ويصففن شعورهن بشكل دقيق، ويلبسن ملابس مكوية بشكل جيد. ترى هل يفكر أحد من الرجال أو النساء كم يصرف من الوقت لكي يظهر بهذا المنظر المناسب ؟

كما نعلم فإن المعتاد عند الكثيرين هو القيام بعمليات التنظيف المعتادة عند النهوض صباحا من النوم لحين توجههم إلى النوم مساء، وتشمل غسل جميع أعضاء الجسم. فأول عمل يقوم به الإنسان بعد الاستيقاظ في الصباح هو التوجه إلى الحمام ليقوم بغسل أسنانه نتيجة للترسبات المتراكمة في فمه من الجراثيم التي تتسبب في انبعاث روائح كريهة. كذلك يقوم بعمليات أخرى عند نهوضه صباحا لأن الدهون المتراكمة في وجهه وشعره وما يفرزه جسمه من عرق كريه الرائحة أمور تدعوه للإستحمام وتنظيف جسمه. وإذا لم يقم بالإستحمام فإن الدهون المتراكمة على جسمه وعلى شعره تجعل من الصعب عليه أن يخالط الناس. والملاحظ أن كثرة مواد تنظيف الجسم وتنوعها تجعلنا نفكر إلى مدى الحاجة الماسة لهذه العملية. فبالإضافة إلى المواد التقليدية المعروفة كالماء والصابون فإن هناك مواداً أخرى يجب استخدامها لإزالة طبقات الجلد الميتة المتراكمة على جسم الإنسان. وعلاوة على تنظيف الجسم، فإن كل إنسان يخصص وقتا طويلا أيضاً في الاهتمام بنظافة ملابسه ونظافة بيته وبيئته التي تحيط به. وإلا فإنه يصعب الاقتراب من شخص انقضى على لبس ملابسه زمن طويل، أو ترك بيته دون تنظيف. وباختصار فإن الإنسان يخصص من حياته زمناً مهما

للقيام بأعمال التنظيف والصيانة المختلفة وهو يستعين بمعدات ومواد كيماوية مختلفة للقيام بهذه الأعمال.

عندما خلق الله جسم الإنسان ضعيفاً وعاجزاً وهب له إمكانية ستر هذا العجز وعدم إظهاره ولو بشكل مؤقت، كما وهبه القدرة على التفكير التي يستطيع من خلالها إخفاء هذا العجز وتنظيف جسده. ولكن البعض ممن لا يفكرون بشكل سليم ولا يستعملون الوسائل التي زودهم الله بها يظهرون بمظهر سيئ أمامنا، ولاسيما عندما لا يستعملون مواد التنظيف اللازمة، لذا يبدون بصورة مزرية ومنفرة جدا. ولكن مهما اجتهد الإنسان في عمليات التنظيف والعناية بجسمه فإنها ستكون مؤقتة. فإذا قمت بتنظيف أسنانك فبعد مدة قصيرة فقط سيبدو وكأنك لم تقم بغسلها. و إذا استحم أحدهم في الصيف مثلا، فإنه وبعد ساعة أو ساعتين سيبدو وكأنه لم يستحم، كذلك فكروا في حال امرأة قضت ساعات طويلة أمام المرآة لكي تبدو بصورة جميلة بعد وضعها المكياج بشكل متقن ودقيق على وجهها، إذ لن يمر وقت طويل حتى لا يبقى أي أثر لهذا المكياج حتى وإن ظلت بقايا من هذه المواد فإنها تأخذ في الوجه شكلا غير مقبول.

أما الرجل الذي يحلق وجهه بعناية كبيرة – وهذا يستدعي أن يخصص زمنا لا باس به من وقته – فسيضطر بعدما ينهض في صباح اليوم التالي إلى أن يعيد مجددا العملية نفسها. !!

المهم هنا هو الإدراك بأن هذا الضعف الجسدي يشير إلى غاية معينة، وان هذا العجز أو النقص قد وضع بصورة خاصة فينا، وهي ليست عيوب جبرية.

دعونا نتأمل هذا المثال: إن الشخص الذي ترتفع درجة حرارة جسمه سيعاني بعد فترة من التعرق وهذا شئ طبيعي، وان الرائحة المنبعثة من هذا التعرق ستكون كريهة للغاية. إن كل فرد يعيش على وجه الأرض يواجه باستمرار مثل هذا الوضع.

ولكن الأمر مختلف عند النباتات: فمثلا إن الوردة يمكن أن تنبت في أراض مختلفة، فالزهرة التي تنبت بشكل طبيعي في إحدى الأزقة أو في شارع من الشوارع تكون معرضة لمختلف أنواع التلوث والأوساخ، ولكن هذا لا يمنعها من نشر روائحتها الزكية. وهي مهما تعرضت لأي درجة من درجات التلوث والقذارة فهذا لا يجعلها تفوح بروائح كريهة، بل تظل تحتفظ دوماً برائحتها الزكية، وهي لا تحتاج إلى من يقوم يومياً بتنظيفها وبرعايتها. ولكن الأمر مختلف مع الإنسان. فالله تعالى منح الإنسان مختلف صنوف النقص لكي يحس بعجزه وبضعفه، فهو على الرغم من

استعماله لمختلف وسائل التنظيف ومواد التجميل والروائح المعطرة لا يستطيع أن يجعل رائحته زكية وفواحة بصورة مستمرة ومن جميع أنحاء جسده. وبالإضافة إلى هذا العجز الجسدي فإنه يحتاج إلى الغذاء لكي يستمر في الحياة، ويجب أن تكون تغذيته هذه على مستوى عال من التنظيم. فجسم الإنسان يحتاج إلى أن يتناول في الوقت نفسه مواد غذائية تحوي فيتامينات وبروتينيات وسكر وكربوهيدرات ومختلف الأنواع من الأملاح. فإذا حدث وان كانت الكمية المأخوذة من المواد التي ذكرناها غير كافية، فإن الأعضاء الداخلية لجسم الإنسان ستعاني من أضرار كبيرة، وكذلك أنسجة الجلد ستعاني هي الأخرى من أضرار كبيرة، وكذلك ستضعف منظومة المقاومة في جسمه. ولهذا السبب فبقدر اهتمامه بنظافة جسمه عليه أن يبدي نفس الأهتمام بنظام تغذيته. هناك حاجة ملحة أخرى للإنسان حتى إنها تعتبر أهم من الغذاء، لأنه يمكنه العيش لمدة من الزمن دون تناول للطـــعام، ولكن لا يستطيع العيش أكثر من بضعة أيام دون شرب الماء. لأنه إذا لم يدخل الماء جسمه بأي شكل من الأشكال خلال هذه الفترة فإنه سيموت لا محالة لأن جسم الإنسان بحاجة ماسة للماء على الدوام، فجميع الفعاليات الكيماوية الحياتية التي تتم داخل جسم الإنسان والتي تديم الحياة تتم من خلال الماء الذي يلعب دورا حيويا. إن ما تم استعراضه هنا يمثل النقص والعجز الذي يصاحب كل فرد من بني البشر. ولكن هل جميع البشر يدركون بأن هذا يمثل نقصاً أو عجزاً؟ هل يستوعب الجميع هذا الأمر؟ أم لكون الجميع مشتركين في هذا العجز والنقص يجعلهم يعتبرون الموضوع شيئا طبيعيا ؟ إن ما تم استعراضه هنا من أوجه النقص والعجز شاملةً لجميع البشر، ولكن ما يجب تذكره وعدم نسيانه هو أن الله تعالى لو شاء ما جعل هذا العجز موجوداً عند الإنسان، ولجعله نظيفا يفوح دوما برائحة طيبة مثل الورود.

إذن يجب التذكر بأنه لو شاء الله ما جعل سمة النقص والعجز موجودة لدى الإنسان، ولكن لحكمة معينة خلق الله تعالى الإنسان بكل هذه النواقص. والإنسان الذي يشاهد بجلاء هذا العجز أمام خالقه عليه أن يسير في الطريق الذي رسمه الله تعالى له ودعاه أن يسير فيه وألا يحيد عنه، وألا يربط نفسه بهذه الدنيا الزائلة، وان يستعد بكل جد ويتأهب لدار الخلود.

خمسة عشر عاما من غياب الوعي

على كل إنسان أن يأخذ في كل يوم قسطـــاً من النوم لفترة زمنية معينة مهما كان مشغولاً أو حتى ولو لم يكن راغبا في النوم، فلا مفر أمامه من قضاء ربع يومه في النوم لكي يريح جسده وعقله، وإلا يصبح من غير الممكن أن يستمر على قيد الحياة. ففي اليوم الواحد نراه يقضي 18 ساعة وهو في أتم وعيه، والمتبقي من الزمن وهو 6 ساعات يكون غائبا عن وعيه تماماً. وإذا نظرنا إلى الموضوع من هذه الناحية نرى نتيجة مثيرة، وهي أننا لو اعتبرنا معدل عمر الفرد 60 عاما وحسبنا أنه يقضي ربع يومه في النوم فهذا معناه إن كل شخص يقضي 15 سنة من عمره وهو غائب عن الوعي. ونحن نلاحظ بجلاء كيف أن عيون الشخص الذي لم ينم لمدة يومين تصبح حمراء، ويبدو جلده وكأنه قد فقد حيويته وبهت لونه. وإذا استمر على هذه الحالة فسيفقد وعيه لا محالة.

فالإنسان لا بد له أن يغمض جفنيه ويغيب عن الوعي وينام خلال يومه سواء أراد ذلك أم أبى، فهذه قاعدة لا تتغير ولا مفر منها سواء أكان الشخص غنيا أم فقيراً، جميلاً أم قبيحاً. فإذا استسلم أحدنا إلى النوم فسيبدو كأنه شخص ميت لا يحس بأي شئ، ولا يقوم بأي رد فعل. فعلى الرغم من سلامة الأذنين (اللتان كانتا تسمعان وتفهمان الأصوات الصادرة قبل قليل) تصبحان عاجزتين عن أداء فعالياتهما المعتادة على الرغم من عدم وجود خلل ما في نظام الجسم الفيسيولوجي، حيث تهبط جميع الفعاليات البدنية إلى أدنى حد ممكن. ونلاحظ أن تركيز نظام الجسم ودقته يهبطان إلى أدنى مستوى لهما، وهذا يعد نوعا من أنواع الموت. لأن الجسد يرقد في الفراش بينما روحه تتجول في أماكن أخرى ويشعر بأنه يعيش حوادث مختلفة، فقد يرى نفسه وهو على شاطئ بحر ويحس بحرارة الجو، ولكن الحقيقة هي أنه مازال راقدا في فراشه ويغط في نوم عميق. ويحدث الموت التأثير نفسه فهو يأخذ روحنا من بدننا هذا الذي نعيش به في هذه الدنيا وينقلنا إلى عالم جديد. والقرآن الكريم يتطرق إلى هذا التشابه بين الموت والنوم بقوله :

﴿وَهُوَ الَّذي يَتَوَفَّاكُمْ باللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أجل مُسَمَّى ثُمَّ إليه مَرْجَعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

(سورة الأنعام 60)

هناك آية أخرى تصف التشابه الموجود بين الموت والنوم بقوله تعالى :

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى

عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأخرى إلى أجل مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الزمر 42)

وأكثر الناس لا يفكرون أبدا في مفهوم غيابهم عن الوعي والإدراك وعدم قيام أجسامهم بالفعاليات المعتادة لفترة تأخذ ربع مساحة يومهم وبالتالي ربع سنوات حياتهم الدنيوية، حيث يبدون خلالها وكأنهم موتى، ولا يخطر على بالهم أنهم خلال استغراقهم في نومهم مضطرون لترك كل شيء جانبا مهما كان الأمر عاجلاً، حيث تصبح بعض الأعمال التي قاموا بها وبعض الفعاليات التي أجروها خلال يومهم هذا لا تحمل أي معنى خلال نومهم وغيابهم عن الوعي، مثل ما ربحوا من نقود، أو دخولهم لإمتحان مهم أو شرائهم هدية ثمينة، لأنهم دخلوا إلى عالم انقطع من خلاله ارتباطهم بهذه الدنيا.

لقد استعرضنا سابقا من خلال بعض الأمثلة مدى قصر هذه الحياة الدنيا، ومدى انشغال الإنسان لإنجاز هذه الأعمال الضرورية، فإذا تم طرح الزمن الذي تم قضاؤه في هذه الحياة لإنجاز هذه الأعمال الضرورية، فسيجد أن المتبقي من الزمن الذي سيقضيه الإنسان لكي يلهو ويعمل ما يحلو له ويحقق رغباته لكي يستطيع أن يقول لنفسه ``إنني أعيش في هذه الدنيا كما يحلو لي`` ... سيجد أن هذا الزمن قليل جداً. لأن الزمن الذي يقضيه لإنجاز أعمال ضرورية مثل النظافة والتنظيف والنوم, وكذلك الزمن المهدر في ذهابه إلى عمله وإيابه منه لكي يضمن العيش في ظروف حياتية أحسن. . . كل هذه الفعاليات تأخذ مساحة واسعة من الزمن المتبقي من حياته.

ومما لاشك فيه فإنّ الحسابات والأرقام المتعلقة بمقدار الزمن الذي يقضيه الإنسان وهو يعيش أو ضاعاً وأحوالا مختلفة تدعو إلى الدهشة. فكما ذكرنا سابقا فإننا لو فرضنا بأن معدل عمر الإنسان هو 60 عاما فإنه يقضي ما لا يقل من 15 إلى 20 سنة في النوم، والمتبقي هو 40 سنة إلى 45 سنة يقضي منها 5 إلى10 سنوات في مرحلة الطفولة التي لم يتكامل بعد فيها وعيه وشعوره تماما. وهذا يعني أن الإنسان الذي يعيش قرابة 60 عاما يقضي نصف عمره تقريبا في حالة من عدم الوعي. أما المتبقي من عمره فيمكن التطرق إليه من خلال إعطاء بعض الأرقام. مثال ذلك الزمن الطويل الذي يقضيه في إعداده الطعام والأكل، وتنظيف جسمه وبيئته من حوله، والزمن المهدر في الطريق لكي يتنقل من مكان إلى مكان آخر. وطبعا نستطيع أن نزيد من عدد هذه الأمثلة.

وفي النهاية نرى أنه لم يبق من عمره الطويل سوى ما بين ثلاث إلى خمس

سنوات لكي يشبع رغباته وحاجاته الطبيعية. حسنا!.... ما هو وجه المقارنة الآن بين حياة أبدية وخالدة وبين هذه الحياة القصيرة جدا؟.

في هذه النقطـــة الفاصلة يظهر الفرق الكبير بين أصحاب الإيمان الحقيقي وبين المنكرين والعصاة. إن الإنسان العاصي والمنكر يحسب أن الحياة هي الفترة الزمنية التي يقضيها على وجه الأرض فقط، وهو يتعب من دون جدوى لكي يستمتع بطعم هذه الحياة الفانية التي تمر كلمح البصر، لأنه كما ذكرنا منذ البداية فالحياة الدنيا هذه قصيرة جدا وهي تشتمل على نواقص عديدة، ونتيجة لعدم اعتمادهم وتوكلهم على الله فإنهم يجترعون طوال حياتهم الآلام الناتجة عن المصاعب الدنيوية من القلق والتفكير فيما سيحدث في الغد.

أما أصحاب الإيمان الحقيقي فهم يعملون طوال حياتهم لكسب رضا الله تعالى، وهم يعيشون حياتهم بطمأنينة وسكينة، بمنأى عن جميع المخاوف والأحزان نتيجة لانقيادهم لله تعالى، وهو ما يقودهم في النهاية إلى الفوز بدار النعيم الخالد ألا وهي الجنة.

والحقيقة أن غاية وجود الإنسان على وجه الأرض هي إمتحان لتصرفاته وسلوكه. لأن الله جل شأنه وعد الذين يتحلون بالأخلاق الحميدة والصفات الجميلة بالسعادة في الدنيا وفي الآخرة :

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهَارُ لَهُمْ فيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلكَ يَجْزي اللَّهُ الْمُتَّقينَ الَّذينَ تَتَوَفَّاهم الْمَلائكَةُ طَيِّبينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة نوح 31 – 30)

الأمراض والحوادث

الأمراض هي إحدى العلامات التي تذكر بعجز الإنسان، فنلاحظ أن الجسم المحصن والمحمي بشكل جيد يتأثر سلباً وبشكل جدي بالفيروسات والجراثيم التي لا ترى بالعين المجردة. ففي الوهلة الأولى فإنه من الصعب التصديق بأن بدن الإنسان يمكن أن يقع فريسة في أيدي هذه المخلوقات المجهرية بعدما زوده الله تعالى وعلى أكمل وجه بمختلف أنظمة وأجهزة الحماية المدهشة و بالأخص النظام الدفاعي المدهش والمناعة الموجودة في جسم الإنسان.

لكن رغم كل هذه النظم الدفاعية والتحصينات الموجودة في جسم الإنسان نراه يتعرض لمختلف الأمراض والعلل. فالنقطـــة التي يجب التفكير فيها هنا هي أن

الله تعالى الذي منح الإنسان كل هذا النظام المذهل لو شاء ما جعل الإنسان يصاب بمثل هذه الأمراض ولا يتأثر مطلقا بهذه الجراثيم والفيروسات والبكتريا، بل لو شاء ما خلق هذه الجراثيم. لكن الملاحظ أن الإنسان يمكن أن يتعرض لخطر حقيقي من أصغر وأتفه الأسباب. ومثال على ذلك، أنه لو وجد في الجلد جرح صغير فإن فيروساً واحداً يستطيع اختراق الجسم من خلال هذه الفتحة الصغيرة ويتكاثر وينتشر في جميع أنحاء الجسم. فمهما تقدمت التكنولوجيا فإن أبسط جرثومة زكام يمكنها وبكل سهولة أن تسبب إزعاجاً جدياً للإنسان. والتاريخ يقدم لنا شواهد كثيرة على مثل هذه الحوادث، فمثلا نلاحظ كيف أن إحدى أنواع أوبئة الزكام التي انتشرت في إسبانيا عام 1918م قضت على أكثر من 25 مليون إنسان، وفي ألمانيا انتشر وباء تسبب في وفاة 30 ألف شخص. إن ما ذكرناه من مخاطر أمراض لا تعتبر بعيدة عنا، بل يمكن أن يتعرض لها كل إنسان وفي أي لحظـــة. وبالطبع فمن الخطأ المرور على هذا الموضوع دون تفكير فيه، واعتباره أمراً طبيعياً.

إن الأمراض من ضمن عوامل الضعف الأخرى التي وضعها الله تعالى في الإنسان لكي يدرك المتكبرون منهم مدى ضعفهم وعجزهم، ويجعلهم يستوعبون أيضاً الوجه الحقيقي لهذه الدنيا الفانية.

بالإضافة إلى الأمراض فإن هناك مخاطر أخرى يواجهها الإنسان في حياته ألا وهي الحوادث المختلفة. فعلى سبيل المثال حوادث المرور التي اعتدنا مشاهدتها في التلفزيونات وقراءتها من الصحف. فالإنسان لا يفكر كثيرا في إمكانية تعرضه يوما ما لمثل هذه الحوادث. كما يمكن للإنسان أن يتعرض خلال ساعات يومه إلى حوادث أبسط بكثير من حوادث المرور وما أكثرها. فكثير ما نسمع أن أحدهم كان يمشي في طريق مستو و إذا بقدمه تصطدم بشيء ما فيقع على رأسه فيحصل عنده نزيف دماغي. أو نسمع عن شخص فقد توازنه وهو ينزل من سلم البيت ووقع فانكسرت قدماه ورقد في الفراش أشهر عديدة. أو عن شخص انسد مجرى التنفس عنده عندما كان يتناول الطعام مما أدى إلى حدوث عملية إختناق لديه. فكل هذه الحوادث ما هي إلا نتيجة أسباب بسيطة، ويمكن أن يتعرض لها بكل سهوله آلاف الناس في مختلف بقاع الأرض.

وأمام استعراضنا لمثل هذه الحقائق فإنه يجب على الإنسان أن يفكر في معنى عدم الإرتباط بهذه الدنيا. فيجب عليه أن يدرك بأن كل شئ منح له بشكل مؤقت من أجل اختباره، فهو لا يستطيع أن يقاوم جرثومة واحدةً دخلت جسمه وعرضت حياته

لخطر حقيقي، كذلك لا يأمن انزلاق قدمه عند عدم دقته في حساب خطواته التي يمشيها، لذا فكيف يجوز له أن يتجاهل كل هذا العجز ويتكبر تجاه خالقه؟

لا شك أن الله تعالى الذي خلق الإنسان قادر وحده على أن يحميه من جميع المخاطر. ولا يملك الإنسان حماية نفسه من مختلف الأضرار والمخاطر المحيطـــة به مهما توهم نفسه كبيراً ومهما اغتر بقوته ولا أن ينفع نفسه بعيدا عن قدرة الله تعالى. ولكي يتذكر عجزه فإن الله تعالى قادر على أن يجعل في جسمه مختلف أنواع الأمراض, وإذا شاء الله تعالى جعل في بدنه الكثير من العاهات. وأخيراً – وكما بينا في البداية – فإن الله تعالى خلق الدنيا لكي يمتحن عباده, وكل إنسان مكلف أن يعمل الأعمال الصالحة لكي ينال رضا الله تعالى، وعليه أن يتبع مختلف الطرق لتحقيق هذه الغاية الكبيرة. وستكون الجنة من نصيب الذين يتحلون بهذه الأخلاق الحميدة من الذين يتبعون ما أمرهم به ربهم وينتهون عما نهى عنه.

أما الذين يعاندون ويتكبرون ويطـــغون ويؤثرون هذه الحياة القصيرة الزائلة فسيتجرعون الكثير من الأحزان والآلام.

النتائج المتولدة من الأمراض والعاهات

كما ذكرنا سابقا فإن الأمراض والحوادث ما هي إلا بعض الوسائل التي خلقها الله لكي يختبر بها الإنسان في هذه الدنيا. فالإنسان المؤمن والصادق في إيمانه إذا ألم به أي حادث لجأ إلى الله بالتضرع والبكاء، لأنه يعلم جيدا بأنه ليست هناك أي قوة على وجه الأرض تستطيع إنقاذه سوى الله تعالى.

وبالطبع فإن الله تعالى الذي يختبر إيمان الإنسان وصبره وتوكله في مثل هذه الحوادث سيمنح هؤلاء المؤمنين مقابل هذا الإحسان سعادة لا نهائية، وكما ذكر القرآن الكريم كان سيدنا إبراهيم عليه السلام نموذجاً مثالياً من خلال حسن تصرفاته وصدقه في توجهه ودعائه إلى الله تعالى. لذا فحري بالمؤمنين أن يحتذوا حذو سيدنا إبراهيم عليه السلام الذي كان دعاؤه:

﴿**وَإذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي وَالَّذي يُمِيتُني ثُمَّ يُحْيِين**﴾ (الشعراء 79-81)

ومثال آخر هو سيدنا أيوب عليه السلام الذي لجأ إلى الله تعالى في كربته، حيث نجاه من الأمراض والآلام الشديدة التي أصيب بها وصبر عليها سنوات طويلة، وبذلك أضحى أنموذجاً للصبر يحتذي به من قبل المؤمنين :

﴿**ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ**﴾ (سورة ص 41)

إن أمثال هذه المعاناة لا تزيد المؤمنين إلا نضجاً وتعد خيراً بالنسبة إليهم، بينما كل كارثة أو مرض يعد للملحد نوعاً من أنواع البلاء، لذا نراه يتقلب بين جوانح الألم لأنه لا يدرك بأنه قد خلق لحكمة معينة، وأنه في الآخرة سيحصل على مكافأة مقابل هذه الآلام إن توكل على الله تعالى وصبر عليها. وعلاوة على هذه الآلام المادية فهناك بجانبها الآلام المعنوية، لأن القيم السائدة في مجتمع ونظـــام ينكر الله تعالى هي قيم مادية بحتة. فإذا تعرض شخص معروف ومحبوب لدى الكثير من الناس لحادثة أقعدته عن الحركة وأصبح لا يقوى على مزاولة نشاطـــه المعتاد نرى بأن معظم أصحابه القدماء يتركونه وحده ولا يبدون الاهتمام السابق به، أو يهملون حتى السؤال عنه، فإذا كان جميلاً وفقد جماله، أو إذا كان شخصاً قوياً وفقد قوته فإن الاهتمام به يقل عما كان عليه قبل ذلك. والسبب يعود إلى أن المجتمعات التي تعيش بعيدة عن قيم الدين نرى أن الأفراد فيها يقَيمون بعضهم البعض وفق روابط مادية فقط، لذا فإن حصل لأحدهم ضيق مادي فإن قيمة هذا الإنسان تنتهي. فمثلا نرى زوجة وأقرباءً الشخص الذي يصاب بعاهة جسدية يبدءون بإظـــهار تذمرهم وضيقهم منه، ويبدأ المصاب بعاهة جسدية بشرح سوء حظـــه هذا لأصدقائه وأقربائه، فمنهم من يتحسر على شبابه وبأنه مازال في ربيع عمره وأنه لا يستحق أن يقع في مثل هذه الحال، ويظل نادباً حظـــه العاثر.

في النهاية فإن عدم إظهار الاهتمام اللازم بهذا الشخص المصاب سيدفعه لكي يطلب المزيد من الاهتمام والرعاية من أفراد عائلته وأقربائه. ويتمنى معظم المحيطين به والقريبين منه أن يتركوا مثل هذا الإنسان العاجز المريض لشأنه ويبتعدوا عنه، ولكنهم لا يجرأون على مثل هذا التصرف خوفاً من الناس ولومهم وخوفاً من تنديد المجتمع بهم وما سيقولونه عنهم إن تصرفوا على ذلك النحو.

والغريب أننا نرى أن الأفكار والأفعال والعبارات التي تنم عن الأنانية والمصالح الشخصية تحل محل كلمات وعبارات الوفاء والثناء عندما كان هذا الإنسان في أتم غناه وصحته. وفي الحقيقة فليس من الغريب على الذين يعيشون ضمن هذا النظام الجاهلي والمادي أن يكون مفهوم الصداقة والوفاء قصيراً بهذا الشكل، فليس من الممكن أن تنتظر من الشخص الذي يخلو قلبه من مخافة الله والذي يقيم جميع علاقاته البشرية على المعايير المادية فقط أن يدرك معنى الصداقة الحقيقية، لأنه يعتبر حسب منطقه أن من الحمق أن يتصرف الإنسان بشكل جيد وقويم مادام لا يؤمن بوجود أي آلية تقوم بمعاقبته إن اقترف أعمالا غير صالحة، كما يرى أنه من العبث قيام أي

شخص – حسب المنطق الجاهلي الذي يؤمن به– بأي تضحية لشخص آخر، أو إظهار وفاء غير مبرر مادام يعتقد أنه بعد سنوات سيموت وسيفنى إلى الأبد. ولكون كل فرد في مثل هذا المجتمع الجاهلي يؤمن بنفس المنطق وهو أنه سيذهب إلى ظلمة العدم بالموت، وسينتهي به الأمر إلى عالم الفناء، ففي هذه الحالة نجد أن كل فرد منهم يفكر في مصلحته وفي راحته الشخصية فقط.

ولكن الوضع يختلف مع المؤمنين، فالذين يؤمنون بالله ويعترفون بعجزهم وبضعفهم ويخافون الله تعالى ويحبونه، فإنهم يُقيمون علاقاتهم الشخصية ويبنونها على ضوء ما أمرهم الله تعالى به. فأهم الخصال التي يجب أن يمتلكها المؤمن هي التقوى، التي تعني مخافة الله تعالى وخشيته وهذا ما يجعله يمتلك خلقا أصيلا وصفات حسنة وحميدة.

فإذا امتلك شخص ما في هذه الحياة مثل هذه الصفات الحميدة – وإن كان يعاني من بعض العاهات الجسدية — فإن مآله سوف يكون الجنة خالدا في نعيمها. وهذا ما وعد الله تعالى المؤمنين به. لذا فإن المؤمنين ومن هذا المنطلق يكونون فيما بينهم على درجة عالية من الوفاء والحب والصداقة الحميمة والستر على عيوب الآخرين ونقائصهم، ومعاملتهم بالرحمة والشفقة. وهذا الاختلاف الكبير ما هو إلا عقاب للمجتمع الجاهلي الذي يعيش بلاءً كبيراً في الحياة الدنيا سلّطه الله على هؤلاء المنكرين.



تضخم الغدة الدرقية

مرض الزونا

مرض جمرة الجلد

إن الله تعالى يمكن أن يبتلي كل إنسان بمثل الأمراض المبينة في الصورة، وهذه الابتلاءات هي مناسبة جيدة لأولئك المؤمنين غير المتمسكين بالدنيا تمسكا كبيرا حتى يظهروا صبرهم ورضاهم بقضاء الله، أما الذين قصروا تفكيرهم على هذه الدنيا فإنهم لا يستطيعون استيعاب هذه الحقيقة.

إن الذين عاشوا في هذه الدنيا كما يحلو لهم، وتصرفوا كيفما شاءوا دون محاسبة سيعيشون في الآخرة رعباً كبيراً لأنهم سيحاكمون على ما اقترفوه من أعمال وأفعالٍ قبيحة من ظلمٍ وجحود وأخلاق دنيئة. وتشير الآية الكريمة إلى أن الكفار الذين تخلقوا بالأخلاق والتصرفات السيئة ستكون وبالاً عليهم في الحياة الدنيا بقوله:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأنفسهم إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (آل عمران 178)

الشيخوخة

نرى بوضوح التأثير السلبي للعامل الزمني في كل شئ. فالسيارة حديثة الطراز بعد مرور بضع سنين ستبدأ بالتعرض لمختلف الأعطال والخدوش، وهذا ما سيؤدي إلى قدمها، وهي نتيجة لا مفر منها. كذلك الحال للبيت الذي إذا ترك خمس أو عشر سنوات من دون القيام بالاهتمام اللازم به فإنه سيبدو بمظهر قديم نتيجة لفساد دهن البيت وذهاب، ولكن الأهم من كل هذا هو مشاهدة الإنسان نفسه بصمات الزمن على جسده. فمع تقدم العمر تظهر آثار سلبية على مختلف أنحاء جسمه والتي لا يمكن تلافيها ولا إخفاءها مع أن الإنسان يحاول الحفاظ على جسمه من هذه التأثيرات الخارجية المضرة. ولقد ذكر القرآن الكريم هذه التغيرات التي تطرأ على جسم الإنسان خلال فترة زمنية معينة بقوله :

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ (سورة الروم 54)

وعند التفكير في وضع الخطط المستقبلية فإن فترة الشيخوخة هي الفترة التي لا تؤخذ في الحسبان في كثير من الأحيان. فالإنسان يحاول بقدر المستطاع الابتعاد عن التفكير في هذه الفترة من عمره التي يعاني فيها بسبب الشيخوخة من العجز والضعف الجسدي، فنلاحظ الخوف والقلق الذي يعتري الوجوه بين فترة وأخرى عند التكلم حول مثل هذه المواضيع، ولكن سرعان ما ينسون هذه المواضيع وكأن شيئا لم يكن، ويرجعون إلى مزاولة حياتهم بشكل طبيعي. ولعل السبب الرئيسي الذي يدفعهم إلى عدم التفكير في شبح الشيخوخة هو أن الشيخوخة تذكرهم بعدم الخلود في هذه الدنيا وبالموت والزوال، ولهذا السبب ومن هذا المنطلق فهم يتجنبون الخوض في مثل هذه المواضيع التي تبدو لهم مزعجة والتي ستواجههم عاجلا أم أجلاً. وهم يحسبون بأن العمر أمامهم ما زال طويلاً ولا يزال هناك وقت طويل جداً على الشيخوخة والموت.

لقد بين القرآن الكريم وبشكل واضح الوهم الكبير الذي يقع فيه مثل هؤلاء الناس بقوله:

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاء وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمْ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأرض نَنقُصُهَا مِنْ أطرافِهَا أَفَهُمْ الْغَالِبُونَ﴾ (الأنبياء 44)

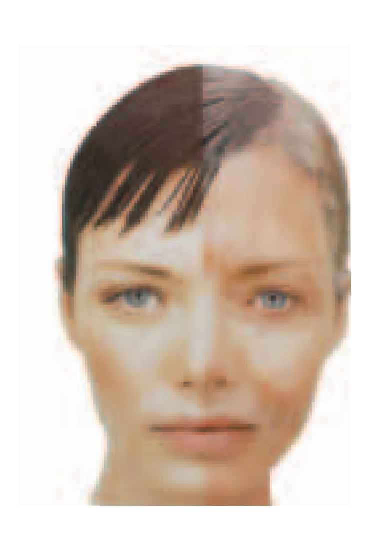
إن الوهم الذي يقع فيه أمثال هؤلاء وهم كبير لأن كل إنسان مهما كان عمره إذا رجع إلى الوراء فإنه سيلاحظ وجود ذكريات واضحة وذكريات غير واضحة المعالم. ففي فترة الطفولة والشباب حيث مرت به ذكريات وحوادث مؤلمة وسعيدة، كان البعض منها يبعث على الفرح والغبطة، كذلك مرت عليه أوقات كان عليه اتخاذ قرارات حاسمة، وكانت هناك سنوات وجهود أهدرها عند محاولاته الوصول إلى غاياته وأهدافه. كل هذه الذكريات وإن صعب عليه تذكرها بوضوح ستبدو وكأنها لحظات سريعة جداً مرت به. لذا فإن طلب من أحدهم أن يشرح حياته التي عاشها فسنرى أنه يحتاج إلى بضع ساعات فقط كي يلخصها لنا. إن الوقوف على هذه الحقيقة واستيعابها لا يحتاج سوى إلى بضع ثوان، فمثلاً الشخص الذي عمره 40 عاماً والذي يأمل بالعيش حتى 65 عاماً عليه أن يدرك جيداً أنه كما مضت الأربعون عاماً بهذه السرعة كذلك فالمتبقي وهو 25 عاماً سيمضي بنفس السرعة التي مرت بها الأعوام الأربعون السابقة.

ويمكن قول الشيء نفسه للشخص الذي سيعيش حوالي 90 عاماً. فليس هناك من فرق لأنه لو كان المتبقي من عمره سنوات طويلة أو قصيرة فإنه في النهاية ستنقضي وتنتهي لا محالة. إن شيخوخة الإنسان ما هي إلا تنبيه بأن هذه الدنيا ما هي إلا محطة انتظار، وأنه مهما عمل فعليه أن يحزم حقائبه ويرحل من غير رجعة إلى دار البقاء الأبدي. لذا يجب على الإنسان أن يكون أكثر واقعية وأن يترك الأحكام المسبقة جانبا، وعليه أن يدرك أولاً أن الزمن يمر بسرعة كبيرة وأن انقضاء كل يوم من حياة الإنسان لا يجعله أكثر شباباً وقوة، بل على العكس هو خطوة أخرى نحو الشيخوخة.

وبإختصار فإن الشيخوخة ما هي إلا دلالة واضحة على عجز الإنسان. ومع تقدم عمر الإنسان تتولد أمارات وعلامات العجز البدني حيث تكون واضحة للعيان.

والقرآن الكريم يتناول العجز والضعف الذي يلف الإنسان وهو يتقدم بخطوات إلى فترة الشيخوخة بقوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ



بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (سورة النحل 70)

وبطبيعة الحال فيمكن القول بأن الشيخوخة تمثل فترة الطفولة الثانية، لأن الإنسان في مثل هذه الفترة يحتاج إلى الرعاية والحماية التي يحتاجها الطفل. حيث تظهر في الإنسان في هذه المرحلة صفات بدنية وذهنية تجعله وكأنه عاد إلى فتره الطفولة. فلم يعد يملك تلك القوة والمقدرة على إنجاز الأعمال التي كان يقوى عليها وبكل سهولة في فترة شبابه. وعندما كان شاباً كان يمتلك ذاكرة قوية ومع تقدم العمر سيظهر بشكل طبيعي تراجع وضعف في ذاكرته.

ويمكن إيراد جملة من الأمثلة على ذلك، ولكن كنتيجة نهائية يمكن القول بأن الانهيار الذهني والجسماني الذي يظهر على الإنسان في فترة زمنية معينة تمثل نوعاً من أنواع الرجوع إلى فترة الطفولة.

وبإختصار يمكن القول بأن الإنسان كما بدأ حياته من فترة الطفولة, فإن حياته تنتهي بعدما يعود كي يمر بهذه الفترة مرة ثانية. ومما لاشك فيه أن هذه الفترة لم تظهر بشكل عشوائي.

إن الله تعالى لو شاء لجعل الإنسان يتمتع بشبابه حتى يدركه الموت، وما جعله يعاني من أي مرض أو عجز جسماني، ولكن الحكمة الإلهية قضت أن يتذكر الإنسان بأن هذه الدنيا فانية وزائلة، وذلك من خلال خلق سلسلة من الأمراض والمشاكل الصحية له.

وفي الوقت نفسه فإن الغاية من إظهار هذه النواقص في الحياة الدنيا هو من أجل زيادة تعلقه وارتباطـــه بالآخرة دار البقاء الحقيقية. وقد بين الله تعالى في الآية الكريمة وبشكل واضح الحكمة من بلوغ الإنسان فترة الشيخوخة وجعل الدنيا زائلة فانية بقوله تعالى :

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أشدكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرض

هَامِدَةً فإذا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (سورة الحج 5)

العوارض البدنية المتأتية من الشيخوخة

مهما كان الإنسان غنيا ومشهورا وقوياً فأنه لا يستطيع إن ينقذ جسده من العوارض السلبية التي ستواجهه مع تقدم العمر. ويمكن استعراض جزء من هذه العوارض على النحو التالي:

إن جلد الإنسان يلعب دورا مهما جدا في جماله، فإذا رفعت هذه الطبقة التي يقدر سمكها ببضع ملليمترات سنلاحظ مشهداً مفزعا، وبعيداً كل البعد عن أي مقياس من مقاييس الحسن والجمال، وهذا الأمر يشمل كل الكائنات الحية. بل يصل إلى درجة أنه يصعب حتى النظر إلى هذا المنظر، لأن الجلد علاوة على قيامه بوظيفة الحفاظ والحماية لجسم الإنسان فهو يعطي منظراً مستوياً وخالياً من النتوءات والتعرجات لذا فهو يقوم بوظيفة جمالية مهمة جداً.

وهنا يمكن القول بأن حسن الإنسان الذي طالما يتفاخر به بين أقرانه ما هو إلا كيلوغرامين من الجلد الذي يغطي كل جزء من أجزاء جسده، ويمكن القول بأنه ولحكمة ما فإن أكثر المناطق التي تعاني من التشوه مع تقدم العمر هي جلد الإنسان.

ومع تقدم العمر يبدأ الجلد تدريجيا بفقدان مرونته ويقل سُمكه نتيجة لإنهيار طبقة البروتينيات التي تشكل النواة الرئيسة لتركيبة الجلد، حيث تزداد هشاشته مع تقدم العمر، وهذا يؤدي بالنتيجة إلى ترهل الجلد. لذا فتقدم العمر يؤدي عند الكثير إلى زيادة المخاوف من ظهور التجاعيد والخطوط على الوجه الذي يحدث لنفس الأسباب التي ذكرناها. كذلك ونتيجة لقلة الإفرازات الدهنية – التي تغطي الطبقة الخارجية من الجلد وتمنحها نعومة وطراوة طبيعية – يبدأ الجلد بالتيبس والتقشر، ومع زيادة التيبس يزداد تساقط الطبقة الخارجية من الجلد والذي يؤدي في النهاية إلى سهولة تأثر الجلد بالعوامل الخارجية المحيطة به حيث يسهل اختراقه.

وبالاستناد إلى هذا فإن من الأعراض التي تظهر على الشخص في فترة الشيخوخة هي حكة الجلد، جروح في الأظافر، الأرق. . . الخ. وبنفس الشكل يحدث تخريب كبير في الطبقات الداخلية للجلد كما أن آلية تجديد ونقل المواد داخل أنسجة الجلد عند كبار السن تشهد تراجعاً ملحوظاً، ولهذا السبب نلاحظ نشوء الأورام الخبيثة



في أعلى الصورة نشاهد صورتين لأكبر معمرة في العالم وهي الفرنسية جين كالمنت حيث أن الفرق الزمني بين هاتين الصورتين هو في حدود مائة عام.
وفي والوسط,هناك صورتان تعودان إلى ناتاي رفيولات لمرحلة شبابها وشيخوختها.

إن هذا التغير الحاصل الذي نراه من خلال هذه الصور هو مصير جميع البشر. فهذا دليل واضح على أن جميع أعضاء جسم الإنسان تتعرض مع الزمن إلى الشيخوخة والتدهور.
والإنسان يولد ويكبر ويشيخ ومن ثم يموت.
وهذه الشيخوخة هي مصير جسم الإنسان,
لكن روح الإنسان لا تشيخ أبداً.

وبشكل مستمر عند كبار السن.

إن متانة العظام تحمل أهمية قصوى من كل النواحي لجسم الإنسان، فكما أنه من السهولة للإنسان الشاب أن يمشي وهو منتصب القامة فإن ذلك يبدو صعباً من الناحية البدنية للشخص المسن. فمع تقدم العمر تبدأ أعراض حدوث إنحناء طبيعي في العمود الفقري، وهذا يحمل في طياته رسالة مفادها أنه حان الوقت لترك جميع أشكال الكبرياء والتعالي. فمن الطبيعي لشخص لا يملك القدرة على الوقوف على قدميه أن يفقد جميع صفات التكبر والتعالي على باقي البشر. فهو لا يستطيع مهما حاول أن يخفي عمن حوله عجزه وضعفه. وفي هذه الأثناء ومع تقدم العمر فإن أعضاء الحواس المختلفة ستبدأ بفقدان فعالياتها تدريجياً لعدم تجدد خلايا الأجهزة العصبية, حيث ينشأ ضعف في أعضاء هذه الحواس. فمع تقدم العمر تفقد العين القدرة على تعيير شدة الضوء مما يقلل قابلية الرؤية وصفاء ووضوح رؤية الألوان، ووضوح شكل الأجسام وأوضاعها. وقوة الإبصار تعد شيئاً في غاية الأهمية ، ولكنها تنخفض مع تقدم العمر. وهذا يعد من الأشياء الصعبة التي يجب أن يتعود عليها كبار السن.

إن مرور الإنسان بفترة الشيخوخة يؤدي إلى فقدان الكثير من المهارات البدنية والذهنية عنده وهذا أمر يسترعي الوقوف عنده وتأمله جلياً. فكما ذكرنا سابقا انه لو شاء الله ما جعل الإنسان يخلق مع هذا العجز والضعف. وقد كان من الممكن إن تتقوى قابلية أعضائه بشكل أكبر وأحسن وكان من الممكن أن تضيف السنين التي قضاها الإنسان في الحياة الدنيا إلى صحته صحة ً أكثر وعلى قوته قوةً أكبر. وكان من الممكن أن تسير الحياة على الدوام مع تقدم السن على نمط التجديد وليس على نمط الهدم والتخريب, إلا إن الحكمة الإلهية اقتضت أن يعيٌر جسم الإنسان ضمن نظام يضعف ويشيخ. فكما إن كل شئ على وجه الأرض مصيره الفناء والاضمحلال فإن المصير نفسه سيلاقي



الصورة أعلاه لامرأة متقدمة في السن تحمل بين يديها صورة تعود إلى مرحلة شبابها.

الإنسان على وجه الأرض.

وهكذا يتضح مرة أخرى عدم فائدة هذه الدنيا وعدم استمرارها وسرعة زوالها, وستبدو حياة الدنيا شيئاً تافهاً لا يحمل أي قيمة مقارنة مع حياة الآخرة. ومن الجدير بالذكر أن الله تعالى أكد على هذه الحقيقة وأخبرنا مراراً أن هذه الحياة الدنيا تتسم بالصفات التي تجعلها مؤقتة وغير دائمة، وأمر الإنسان أن يفكر ويتدبر هذا الموضوع، ويستخرج منه الدروس والعبر اللازمة.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأرض مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَ الأَنعَامُ حَتَّى إِذا أخذ تْ الأرض زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أنهم قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أو نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيات لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

(سورة يونس 24)

مما تم استعراضه حتى الأن يمكن ملاحظة أن الإنسان بعد ولادته ينمو ويصل إلى عمر معين, وبعد فترة سيصل إلى مرحلة يكون في أوج قوته, عندها يخالجه إحساس بأن هذا الجسم ملك له ويرى نفسه محط أنظار الجميع، ولكن بعد فترة زمنية يفاجأ بأن جميع ما أوتي من قوة وجمال ينتهي ويضمحل لتحل الشيخوخة محلها, وهو حيال هذا الأمر لا يملك أن يفعل أي شئ. لأن الله قد خلق هذه الدنيا على أساس أنها دار فناء, لذلك خلق الإنسان ومعه كل صفات وعلامات الضعف والعجز لكي يجعله يستعد لشد الرحال إلى دار الآخرة.

أمثلة عن الشيخوخة ذات عبر

ذكرنا حقيقة أن الشيخوخة هي مصير الجميع دون استثناء، ولا مفر منها, ولكن الشيخوخة التي تصيب المشهورين الذين يملكون المال والجمال والجاه لها دلالات خاصة, حيث تترك على بقية الناس أثراً كبيراً. ففي المجتمع الجاهلي هناك الكثير ممن يتخذ مثل هؤلاء الناس كقدوة لهم إما لشهرتهم أو مالهم أو لحسنهم, وشيخوخة ومثل هؤلاء الناس وعجزهم يرمز بشكل مهم جداً إلى مدى تفاهة وقصر هذه الدنيا. ويمكن مشاهدة المئات من هذه الأمثلة من حولنا. فيمكن مشاهدة أحد هؤلاء الأشخاص إما في التلفزيون أو في إحدى صفحات الجرائد وهو يعاني من عجز جسدي وذهني فاقدا لحيويته وقوته بعدما كان في يوم ما يتمتع بكامل ذكائه، وكان



بريغيت باردوت

مارلون برندوي

كاتارين هب بورن

فراد أستار


ألان ديلون
إليزابات تايلور
طوني كارتيس
لانا تورنير


شارلي شابلان
جان راسّل
كرك داغلاس
أودري هب بورن


ريتا هاي وورث
فرانك سيناترا
بتا دايفيس

صاحب بدن صحيح وجميل بحيث أو صله إلى عالم الشهرة والأضواء. طبعا إن مثل هذا الشيء هو مصير جميع البشر، ولكن الأمر هنا يختلف لكون مثل هؤلاء الناس لهم مكانة خاصة جدا في عقول الناس وان مشاهدتهم بهذه الصورة من العجز والشيخوخة سوف تترك أثراً لا يمحى في ذاكرة الناس.

وفي الصفحات الآتية سنقدم أمثلة على مثل هؤلاء الناس وسنرى بأنهم مهما كانوا مشهورين، ومهما اتصفوا بالحسن والشباب في يوم من الأيام فإن مصيرهم هو الشيخوخة التي لا مفر منها.

موت الإنسان

هل انتم تدركون بأنكم في كل يوم تقتربون شيئاً فشيئاً من الموت ؟

هل تعلمون بأن الموت قريب جدا منكم كباقي البشر ؟

﴿**كُلُّ نَفْس ذَائقَةُ الْمَوْت ثُمَّ إلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾ (سورة العنكبوت 57)

هذه الآية التي تذكر بأن الذين عاشوا على وجه الأرض والذين يعيشون الآن والذين سيعيشون في الغد دون استثناء قد ماتوا أو سيموتون. ولكن رغم هذه الحقيقة الواضحة، فالغريب أن أكثر الناس يرون أنفسهم بمنأى عن هذه الحقيقة الثابتة.

دعونا نتأمل هذا المثال لشخصين: الأول يولد ويفتح عينيه ويستقبل الدنيا، والثاني يغمض عينيه للمرة الأخيرة ليودع هذه الدنيا. فلا الوليد الذي ولد استطاع أن يتدخل في ولادته، ولا الشخص الذي مات استطاع التدخل في موته. لأن الله وحده الذي يملك هذه المقدرة والقوة، يخلق من يشاء ويقبض روح من يشاء. فكل البشر خلقوا ليعيشوا لزمن معين، وبعدها سيموتون. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بقوله:

﴿**قُلْ إنَّ الْمَوْتَ الَّذي تَفرُّونَ منْهُ فإنه ملاَقيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إلى عَالم الْغَيْب وَالشَّهَادَة فَيُنَبِّئُكُم بمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ (سورة الجمعة 8)

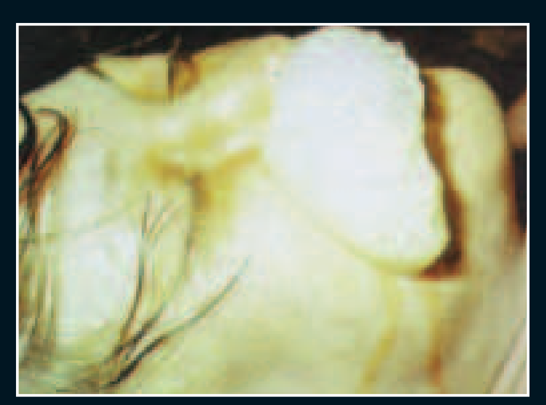
فأكثر من الناس لا يرغبون في التفكير في الموت كثيراً، في نفس الوقت نرى انشغال الإنسان بأعماله اليومية يلهيه ويدفعه للتفكير بأشياء أخرى. فأمور مثل: في أي مدرسة سيدرس، وفي أي عمل سيشتغل، ماذا سيلبس، ماذا سيأكل. . . الخ. كل هذه الأشياء تعتبر من أهم القضايا عند معظم الناس، لأنهم يحسبون أن الحياة عبارة عن مثل هذه الأشياء فقط، وعند ذكر الموت أمامهم يحاولون التهرب والاختباء خلف كلمات لا تحمل أي معنى ولا تستطيع منع الموت أو تأخيره فيقولون مثلا: (ما هذا

؟.. لماذا لا تبدأ كلامك بالخير؟) وهم يقدرون أنهم لن يموتوا إلا بعد وقت طويل من الشيخوخة، أي يحسبون أن هناك مدة لا تقل عن خمسين أو ستين سنة أو حتى أكثر، لذا نراهم لا يشغلون أنفسهم بمثل هذه المواضيع الكئيبة التي تنفر منها نفوسهم، بينما لا يملك أي أحد أي ضمان بأنه سيعيش بعد ثانية واحدة فقط.

في كل يوم يمكن لكل شخص أن يقرأ كل شخص في الصحف ويرى من خلال شاشات التلفزيون العديد من حوادث الموت وبشكل كثيف, ويشاهد وفاة الأقرباء, ولكنه لا يفكر أنه في يوم ما سيشهد الناس موته ونهاية حياته. وعندما يواجه الإنسان الموت فإن جميع الحقائق والأمور المرتبطة بالحياة ستنهار، ولا يبقى منها شيء. فكروا الآن في حالكم. . . . فتح وغلق أعينكم، القدرة على الحركة في أجسامكم، تكلمكم، ضحككم وبإختصار كل فعالياتكم الحيوية، ولكن حاولوا أن تجسدوا أمام أعينكم منظركم وبأي حال ستكونون عقب وفاتكم.

ستكونون في وضع لا تقدرون فيه على الحركة حيث ستتمددون وانتم لا تدركون ماذا يجري من حولكم، أما جسدكم الذي هو عبارة عن كتلة من اللحم والعظم فسيحمل من قبل أشخاص آخرين. فبينما يقوم أحدهم بغسل جسدكم لكي يكفن بالكفن الأبيض فإن المقبرة التي سيوضع فيها تابوتكم يتم حفرها وإعدادها لكم، حيث يوضع جسدكم في تابوت خشبي, وبعد الانتهاء من المراسيم في الجامع سيذهبون بكم إلى المقبرة، وسيكتب على لوح حجري أسمكم وتاريخ ولادتكم ووفاتكم، بعدها تخرجون من التابوت وتوضعون مع الكفن داخل تلك الحفرة، وبعدها ينهال التراب على الحفرة وتنتهي المراسيم بعدما يغطيكم التراب بشكل كامل. في البداية تكون الزيارات متعددة لقبركم, ثم تصبح زيارة واحدة في السنة، ومن بعدها ستنقطع هذه الزيارات. وعلاوة على هذا لن يكون لديكم خبرٌ أو أي علم عن هذه الزيارات.

سيغدو فراشكم وغرفتكم التي استعملتموها لسنين عديدة فارغة، وكذلك سيتم توزيع ممتلكاتكم الشخصية والخاصة لجهات مختلفة. سيذهب أقرباؤكم إلى دائرة الأحوال المدنية للتبليغ عن وفاتكم، وبالتالي مسح أسمكم من هذه الدنيا. سيكون هناك من سيبكي من خلفكم وستكونون في ذاكرتهم، ولكن مع تقدم الأيام والسنين فإن عامل النسيان يزداد تأثيره, لذلك فبعد مرور عشر سنين فلن يظل هناك من يتذكركم على الرغم من هذه السنين الطويلة التي عشتموها معاً. ومع هذا يجب إدراك حقيقة أن الذين تركتموهم من ورائكم من أقرباء وأصدقاء سيبدأون في ترك هذه الدنيا



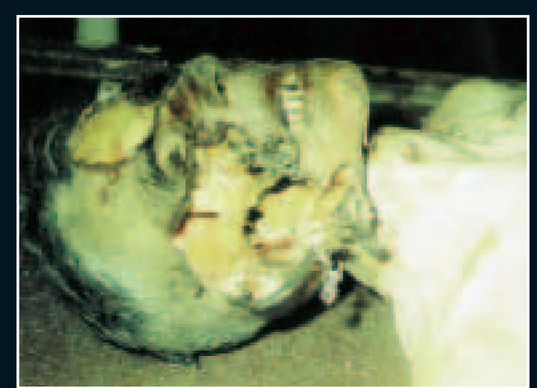
رغاء منبعث من فم إنسان ميت.



بعد الموت مباشرة.



بعد الموت يتحول لون ما حول العينين إلى لون داكن.



صورة توضح تآكل وجه إنسان ميت
من قبل الحشرات الأرضية في القبر.



جسد إنسان مات حرقا

تدريجيا, لهذا فإن بقاء ذكراكم أو عدم بقائه لا يشكل أي معنى أو أي أهمية .

وبينما يتم كل هذا في الدنيا، فإن جسدكم سيمر وبشكل سريع بمرحلة التفسخ والانحلال. فعند دفنكم في التراب تبدأ البكتيريا والحشرات الأرضية مباشرة بمهامها. وتؤدي الغازات المتراكمة في البطن إلى انتفاخ الجسم، وينتشر هذا الانتفاخ إلى سائر أجزاء الجسم حتى يصل الجسم إلى حالة يصعب معها التعرف عليه. ونتيجة للضغط المتولد من هذه الغازات سيندفع الدم من فمك وأنفك بشكل رغوة دموية, ومع تقدم عملية تفسخ الجسد فإن كلاً من الأظافر والشعر وراحة اليد وباطن القدم ينفصلون شيئا فشيئا عن أماكنهم. وبالإضافة إلى التغيرات التي تطرأ على المظهر الخارجي للجسد فإن الأعضاء الداخلية تمر أيضاً بعملية التفسخ و الانحلال.

نأتي الآن إلى النقطة التي تعتبر أفظع حادثة: إن البطن سينفجر من إحدى المناطق الأكثر ضعفاً نتيجة لامتلائه بالغازات، حيث ستنبعث رائحة كريهة يصعب تحملها. وخلال هذه الفترة أيضاً تبدأ عملية انفصال أجزاء الجسم الأخرى ابتداءً من منطقة الرأس، حيث تبدأ العضلات بالانفصال من أماكنها، ويبدأ الجلد والمناطق الهشة من الجسد بالتساقط, ونتيجة لهذا يبدأ الهيكل العظمي بالظهور تدريجياً, ويأخذ الدماغ بعد تفسخه تماما منظر التراب أو الصلصال، وتبدأ مناطق اتصال العظام بالتفكك والانفصال, ويتبعها انفصال أجزاء الهيكل العظمي, وهكذا تستمر هذه العملياث حيث يتحول الجسد بكامله إلى كومة من العظام والتراب. وهكذا لا يمكن الرجوع ولو لثانية واحدة للحياة قبل الموت ومشاهدة العائلة، أو أي لقاء مع الأصدقاء والأحبة من أجل التسامر. ولن يبقى أمامه فرصة اعتلاء المناصب العليا، لأن جسده سيتفسخ ويتحول إلى هيكل عظمي. والخلاصة أن الجسد الذي نحسب أنه هو جوهرنا ينتظره مصير مرعب وهو الفناء، ولكن الروح يبقى، وهذا الروح سيكون قد ترك ورحل عن هذا الجسد. أما هذا الجسد الذي تركته وراءك فسيتحلل ويتفسخ بشكل مخيف.

حسنا!. . . ما سبب كل هذا ؟

لو أراد الله ما جعل جسد الإنسان بعد موته يصل إلى هذه الحالة المزرية, ولكن هناك معنى كبيرا ومغزى عميقا لهذا الأمر. قبل كل شي على الإنسان أن يعلم أنه ليس عبارة عن جسد فقط, وأن هذا الجسد قد أعطى له كهيكل خارجي, فعليه أن يفهم هذا عندما ينظر إلى هذا المصير المرعب, ويعلم أن له وجوداً يتجاوز هذا البدن. وأن ينظر الإنسان ويتدبر مصير موت جسده الذي طالما انحنى أمام شهواته ونزواته، وكأنه سيعيش ببدنه هذا إلى الأبد. وأن هذا الجسد لا بد له في يوم ما أن يدفن تحت

التراب، ويتفسخ ويتحلل، وتأكله الديدان، ويتحول إلى هيكل عظمي, ولربما لا يكون هذا اليوم ببعيد، بل قد يكون على بعد خطوة واحدة قادمة فقط.

على الرغم من كل هذه الحقائق فإن هناك ميلا في روح الإنسان للرفض وعدم التفكير في القضايا التي تنفر منها نفسه ولاتميل إليها. وتتوضح هذه الحقيقة بصورة جلية عندما يتعلق الأمر في موضوع الموت. وكما ذكرنا سابقا فإن الموت يتذكر عند مرور الذكرى السنوية الأولى لأحدهم إن كان من الأقرباء أو الأصدقاء، ولكن الأغلبية من الناس ترى الموت شيئاً بعيداً عنهم على الدوام. فهل للإنسان الذي يستبعد الموت وضع يختلف عن الذي يموت وهو يمشي في الطريق؟ أو من الذي يموت وهو نائم في فراشه ؟ أم يحسب نفسه أكثر شباباً وأنه سيعيش لسنين طويلة ؟ نفس هذه الأفكار نفسها ستكون قد وردت إلى ذهن أحدهم وهو يمشي في الطريق لكي يصل إلى مدرسته, أو شخص تأخر في الوصول إلى اجتماع مهم في شركة فاضطر إلى قيادة السيارة بسرعة عالية مما تسبب في وقوع حادث مروري له, أو شخص أصيب بمرض لم يكن ينتظره وفي وقت غير متوقع. وسيصاب قراء الجرائد بذهول وهم يطالعون خبر وفاة شخص كان بالأمس فقط برفقتهم. ومن الغريب أنه قد لا يخطر على بال أحدهم احتمال تعرضه للموت بعد فترة قصيرة من قراءته هذا الخبر على الرغم من وجود الكثير من الأعمال التي يجب إنجازها وإكمالها من قبله والتي بسببها قد يعتقد أن الموت مازال مبكرا ولم يحن وقته بعد. قد يكون نمط تفكيرهم هذا هو السبب. ولكن هذا يعني الهروب من الحقيقة. ويذكر الله تعالى عدم جدوى هذا الهروب :

﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنْ الْمَوْتِ أو الْقَتْلِ وَ إذا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (سورة الأحزاب 16)

ويجب ألا يغيب عن بالنا بأن الإنسان جاء إلى الدنيا عارياً وسيغادرها عارياً، ولكن بعد ولادته فإنه من أجل قضاء حاجاته يقوم باستعمال هذه النعم المسخّرة له بشكل مسرف وجاهل، وينقلب موضوع الظفر بهذه الحاجات إلى أهم غاية في حياته. بينما من المعروف أنه لا يأخذ معه عند موته ما كان يملكه من ثروات ونقود، بل مجرد قطعة قماش بيضاء طولها بضعة أمتار حتى يدفن فيها.

(ولد الإنسان عاريا وسيغادرها عاريا)، فالشيء الوحيد الذي سيرافقه في الآخرة هو عمله وإيمانه أو عدم إيمانه.

زينة الحياة الدنيا

يسعى الإنسان طوال حياته لتحقيق أهداف وغايات منها ماهو مادي ومنها ماهو معنوي. مثل الغنى والمال والمركز الاجتماعي وزوجة وأولاد. وهي تعتبر من الزينات التي لا يستطيع الإنسان التخلي عنها في هذه الحياة, فجميع الطاقات والجهود توجه من أجل الحصول على هذه الأشياء.

وعلى الرغم من معرفة الإنسان أن كل هذه الأشياء تأتي وتذهب، وأن كل شئ على وجه الأرض يفقد قيمته ويبلى مع الزمن، بل ويفنى. . . على الرغم من كل هذا فإن الإنسان يظل مرتبطاً بشدة بهذه الأشياء، ولا يستطيع التخلي عنها بسهولة. فعلى الرغم من معرفتهم إن أغراضهم وممتلكاتهم ستبلى وأن مزارعهم لن تبقى دائما بنفس الخصوبة, وأن زوجته التي طالما كأن يوليها كل الاهتمام سيأتي يوم تفقد فيه جمالها وحسنها، والأهم من كل هذا وعلى الرغم من كل هذا فهو يعرف أنه سيأتي يوم يترك فيه كل ما كان يملكه وسيرحل إلى غير رجعة،. . . مع كل هذا فإنه يظل مرتبطاً بزينة الحياة بهذا الشكل القوي.

سيدرك هؤلاء بعد موتهم أنهم قضوا حياتهم في سبيل الحصول على شئ واحد فقط, وأنهم خدعوا بهذه الدنيا التي سحرتهم وبهرتهم بزينتها وجاذبيتها الزائلة, وأنهم قد أعطوا للأشياء الفانية قيمةً أكبر مما تستحق. وسيدركون أن ما كان يجب عليهم أن يعملوه في الدنيا هو إظهار العبودية لله تعالى وليس الانشغال عنه واللهث وراء ماكانوا يظنونه ملكا وحاجة من حاجاتهم, بينما الله تعالى هو المالك الحقيقي لهذه الأشياء, والقرآن الكريم يشير إلى هذه الرغبة الملحة في تملك زينة الحياة الدنيا بقوله :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ

وَالْفِضَّة وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَة وَ الأنعَام وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران 14)

فجميع القيم الدنيوية من ثروة وزوجة وأولاد وتجارة تحاول أن تلهي الإنسان عن الله عز وجل وعن الآخرة, وتغريه كي يعيش فقط من أجل الدنيا. لكن الذين يدركون عظمة الله ويقدرونها حق قدرها يعلمون أن كل شيء في الدنيا متاع زائل، وما هو إلا وسيلة امتحان للإنسان وأختبار له, ويعلمون بأن واجبهم هو القيام بوظيفة العبودية والحمد والشكر لربهم الذي وهب لهم جميع هذه النعم والخيرات, بينما الذين لا يؤمنون بالله حق الإيمان يتعلقون بأهداب الدنيا تعلقاً شديداً يؤدي بهم إلى ضعف إدراكهم وتمييزهم للأمور، وهذا يؤدي بهم إلى اعتبار أن هذه الدنيا –بكل ما فيها من نواقص – وكل القيم المتعلقة بها أشياء مهمة, رغم أن الله تعالى وعد الإنسان بإعطائه أشياء أفضل وأثمن وأجمل وأحسن في دار الآخرة, عليه –على الأقل– أن يضع في حسبانه احتمال أن يبعث بعد الموت, وهذا الأمر ينبغي أن يدفعه كي يتصرف بطريقة عقلانية أكثر. أمّا المؤمنون فهم على قناعة كاملة بأن ذلك البعث ليس مجرد احتمال، بل هو حقيقة ثابتة لا شك فيها. ولكونهم يعُون هذه الحقيقة ويدركونها حق الإدراك فهم يجتهدون طوال حياتهم للابتعاد عن الأعمال التي توصلهم إلى جهنم, وفي الوقت نفسه يسعون بكل جهدهم في سبيل الظفر بالجنة. فهم يعلمون بأن الذين يقضون حياتهم في سبيل مصالحهم ومتعهم الدنيوية ويضعون جل جهدهم في هذا السبيل سوف يصابون يوم القيامة بخيبة أمل شديدة تبعث على ندم كبير وحسرة أليمة.

فما جمعه من مال وما كنزه من ذهب ونقود في البنوك, وما اشتراه من بيوت وأراض وسيارات لن تكون له طوق نجاة يوم القيامة, ولن تحميه ولن تحمي عائلته ولا عشيرته التي كانت دوما مصدر ثقته, بل إن جميع هؤلاء سوف يديرون وجوههم عنه. لكن ورغم كل هذه الحقائق يظل الكثير من البشر يرون أنه لا بديل عن هذا النّوع من الحياة، ويستمرون في ارتباطهم الأعمى بالدنيا متجاهلين الآخرة. ولقد بين القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله تعالى:

﴿أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُر حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ﴾ (سورة التكاثر 1 – 2)

ما تم استعراضه حتى الآن من وسائل الزينة والإغراء ما هي إلا إحدى خفايا الامتحان, فلقد خلق الله الإنسان ومنحه جميع الخيرات التي يحتاج إليها، وهي خيرات مغرية وجذابة. ولكن هذه الحياة الدنيا مؤقتة وقصيرة في الآن نفسه، وهي تمكن الإنسان من عقد مقارنة بين الحياتين (بين حياة الدنيا وبين حياة الجنة)، وهنا يكمن السر. فالحقيقة أن حياة الدنيا جميلة جداً، وعظيمة ومتنوعة تليق بعظمة الله. فالعيش فيها والتمتع بها من النعم التي ترجى من الله, لكنها لن تكون بحال

من الأحوال أهم من الآخرة وأهمّ من كسب رضى الله تعالى, ولهذا يجب على البشر ألا ينسوا الغاية من هذه النعم وهم يتمتعون بها, والله تعالى يحذر الإنسان في القرآن الكريم بقوله:

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (سورة القصاص 60)

أجَل!... نرى البشر متعلقين بالقيم الدنيوية وغافلين عن الآخرة، ولكن ثمة حقيقة أخرى مهمة يتناسونها وهي أن ارتباطهم بالمباهج الدّنوية وسعيهم المستمر من أجل الحصول على هذه المتع لا يمنحهم في هذه الدنيا السعادة الحقيقية. ويرجع السبب في هذا إلى النفس البشرية التي لا تقنع بما لديها أبدا، بل تحاول باستمرار وبمختلف الوسائل الحصول على الأفضل والأحسن, فالإنسان يحاول باستمرار أن يحصل على الأفضل، ولكنه لا يمكن أن يحصل على جميع مايريد نظراً لطبيعة هذه الدنيا. لأنه مهما امتلك من أشياء, فإن هناك بالتأكيد أشياء أفضل وأحسن وأجمل مما يملكه، لذا فالإنسان في هذه الدنيا لا يستطيع الحصول على الطمأنينة وراحة البال التامة.

هل الغنى الحقيقي في هذه الدنيا؟

يعتقد الكثير من الناس بأنه يمكنهم أن يؤمنوا لأنفسهم حياةً مثالية رائعة خالية من النواقص، تلبي احتياجاتهم إذا صرفوا جهداً أكبر، وحاولوا تحقيق أهدافهم بشكل جدي، وهم يتصورون أن الثروات والإمكانيات المادية تلعب دوراً رئيسياً في تحقيق هذا, وبذلك يمكنهم أن ينشئوا عائلة سعيدة، ويعيشوا حياة مريحة, ويكسبوا مركزاً اجتماعياً جيداً ومكانة عالية بين الناس. وفي الحقيقة فإن إهدار الإنسان لعمره، وصرفه أكثر وقته في سبيل تحقيق هذه الأهداف هو خطأً كبير. فالناس يتناسون تماماً الحياة الأبدية الحقيقية ألا وهي الآخرة، لأنهم قضوا أعمارهم في هذه الحياة الدنيا وهم يفكرون فقط في راحتهم وسعادتهم.

فعلى الرغم من أن أهم وظائفهم هي العبودية التامة لله تعالى, نراهم وقد أنشغلوا بهذه الدنيا, ونراهم يغفلون عن شكر الله تعالى –الذي خلقهم ومنحهم هذا الغنى والمال – على هذه النعم ويجعلون جل هدفهم كسب رضى الآخرين واستحسانهم. بينما بيّن الله في قرآنه الكريم بأن القيم الدنيوية زائلة وخادعة وليست لها أهمية كبيرة:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَ الأولاد كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخرة عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (سورة الحديد 20)

فالخطأ الذي يقع فيه الكثير من البشر هو اعتقادهم بأن الآخرة شيء بعيد, أو عدم إيمانهم أصلاً بوجودها مما يجعلهم يعتبرون أنّ الدنيا "أرفع مكانة" وأسمى من الآخرة, وهؤلاء الأشخاص يتوهّمون عدم فناء الثراء الذي حصلوا عليه, وهم بذلك يعرضون صورة واضحة للجهل والتكبر عند تحويل وجوههم عن النعم التي وعدها الله تعالى لهم في الآخرة مكتفين بما لديهم من متاع زائل. ولقد عرّف الله تعالى في قرآنه الكريم أحوال مثل هؤلاء الناس ومصيرهم بقوله :

﴿إنَّ الَّذينَ لَا يَرْجُونَ لقَاءَنَا وَرَضُوا بالْحَيَاة الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بهَا وَالَّذين هُمْ عَنْ آيَاتنَا غَافلُونَ أولئك مَأْوَاهم النَّارُ بِمَاَ كَانُواَ يَكْسبُونَ﴾ (سورة يونس 7-8)

لقد ظهرت أمثال هذه الحالة النفسية طوال التاريخ، فمنذ القدم كان الملوك و الأمراء والحكام والفراعنة يحسبون بأن الغنى سيجعلهم يعيشون مخلدين، حتى أن البعض منهم كان يدفن جزءً من ماله في قبره، وذلك لعدم إعطائهم أي احتمال لوجود قيمة أعلى من قيمة النقود والأموال التي يملكونها, وقد توهّم بعض الناس بأن هؤلاء الأشخاص هم في الطريق الصحيح وظنوا بأنهم هم الفائزون.

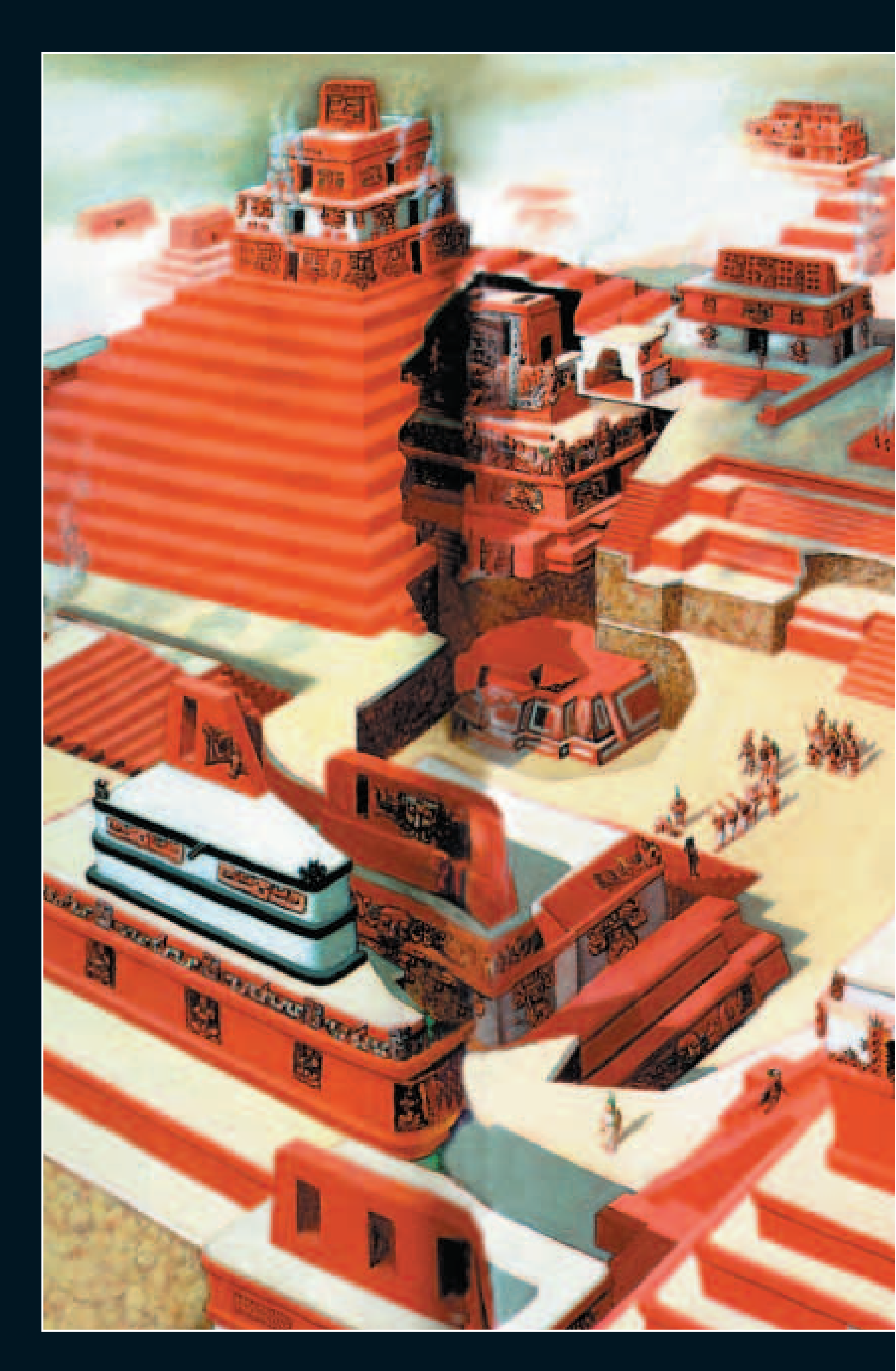
والحقيقة أن أمثال هؤلاء الناس الذين يبدو أنهم قضوا حياتهم وهم يتمتعون بها قد واجهتهم نهاية غير النهاية التي كانوا يتوقعونها, والقرآن الكريم يخبرنا عن أمثال هؤلاء فيقول:

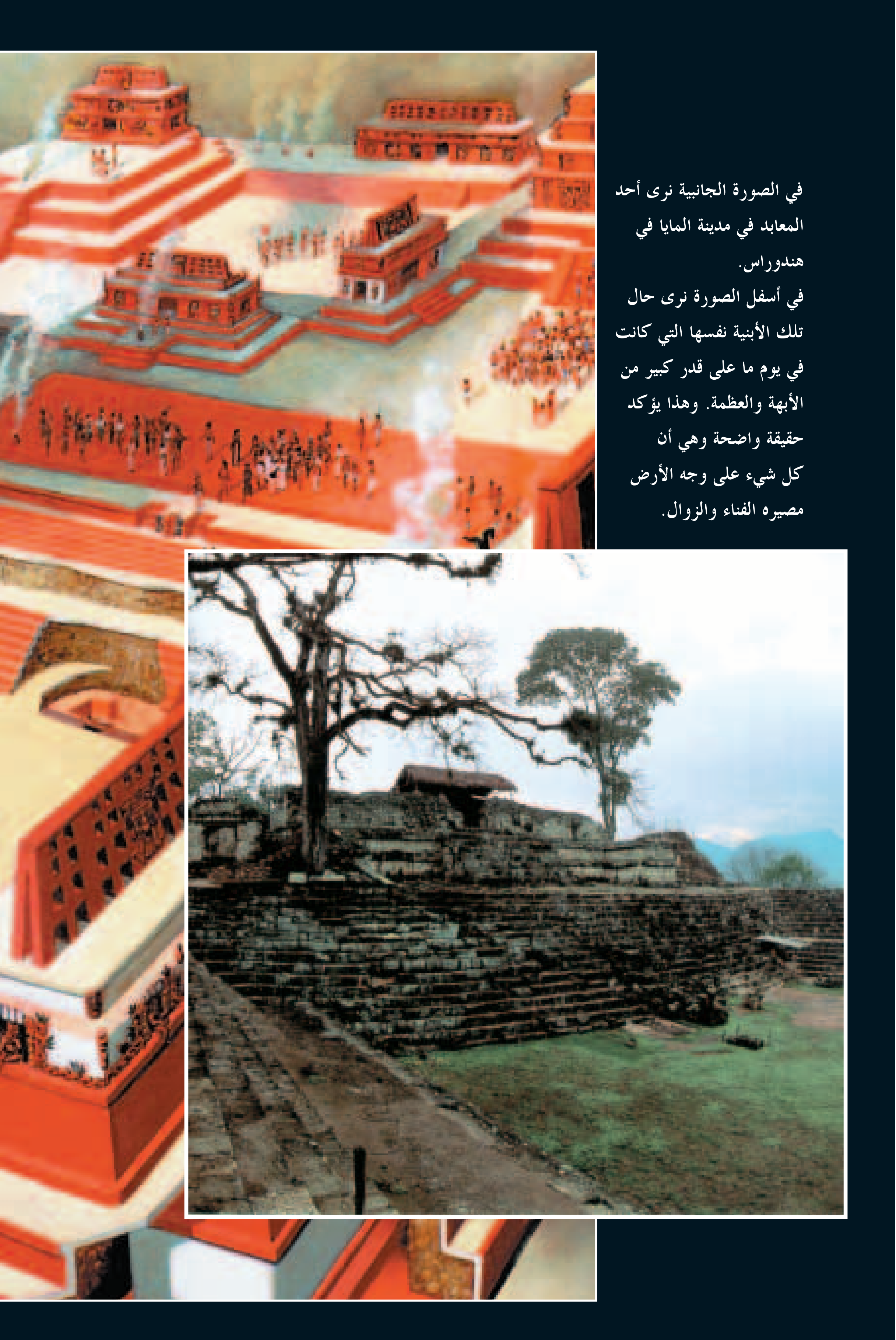
﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ﴾ (سورة المؤمنون 55-56)

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أولادهم إِنَّمَا يُرِيدُ اللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أنفسهم وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (سورة توبة 55)

لكن هناك شيئا مهما يجب ألا يغيب في أي وقت عن أذهان هؤلاء الأشخاص، وهي أن الغنى كله ملك لله تعالى وحده، وأن صاحب الملك الحقيقي هو الله تعالى وهو يوزع حصصاً من ملكه على من يشاء من عباده. وفي مقابل هذه النعم يريد من عباده أن يشكروه، وأن يؤدوا له فروض العبودية على الوجه الصحيح, لذا فإن الشخص الذي منحه الله الغنى لا يستطيع أحد أن يسلبه منه, كما لا يستطيع أي أحد أن يعاونه ويساعده على استعادة ثروته إلا هو، وكل هذا عبارة عن جزء من طبيعة الابتلاء الذي جعله الله للعباد في هذه الدنيا. والمؤمن الواعي والعاقل يدرك هذا الأمر، بينما الشخص الغافل هو الذي ينسى أنه سيأتي يوم يقدم فيه حسابه للذي خلقه :

﴿اللّٰهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخرة إِلَّا مَتَاعٌ﴾ (سورة الرعد 26)





في الصورة الجانبية نرى أحد المعابد في مدينة المايا في هندوراس.
في أسفل الصورة نرى حال تلك الأبنية نفسها التي كانت في يوم ما على قدر كبير من الأبهة والعظمة. وهذا يؤكد حقيقة واضحة وهي أن كل شيء على وجه الأرض مصيره الفناء والزوال.





﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾
(سورة هود – ١٠٠)

الصورة الجانبية تمثل الأبنية والقصور الفخمة التي كانت تعود إلى حضارة روما, لكن اليوم نلاحظ وجود أبنية أخرى تحتل مكان هذه القصور.
الصورة الصغيرة تمثل مسرحا رومانيا قديما, فلم يتبق في وقتنا الحاضر أي أثر للبشر من الذين عاشوا تلك الفترة المهيبة.

هل الغنى والمكانة الاجتماعية في هذه الدنيا أمر مهم حقا؟

يحسب الكثير من الناس أنهم إن أكملوا نواقص مطالب العيش فإنهم سوف يجنون من هذه الدنيا حياة مثالية خالية من العيوب. وعلى هذا الأساس فإنهم بعد أن يملكوا أسباب الغنى التي طالما حلموا بها سوف تكسبهم تقديرا ومكانة في المجتمع، بالإضافة إلى السعادة التي تغمرهم بفضل ذلك النعيم. والحال أن الشخص الذي ينسى الله واليوم الآخر لن يعيش الحياة التي طالما حلم بها وتمنى أن يعيشها، لأنه سيحاول الحصول على المزيد وعلى الأحسن مما يملك بعدما حصل في البداية على مطالبه الأولى. سوف يحصل على المال ولكن لن يكتفي بشيء منه، وسيعمل من أجل الظفر بالمزيد منه. سيملك بيتاً ولكنه سيرى بالتأكيد بيتاً أجمل من الذي يملكه، لذا سيبذل المزيد من الجهد لكي يحصل عليه. ومع تغير ذوقه سنويا فإنه سوف يسعى لتغيير أثاث بيته وديكوره, وكذلك شراء الملابس الجميلة، لهذا فالآية الكريمة توضح بجلاء الحالة النفسية لمثل هؤلاء المنكرين :

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ (سورة المدثر 11 – 15)

فعلى الشخص العاقل أن يفكر تفكيرا سليما: فالذي يملك عدداً كبيراً من البيوت ويملك أحدث السيارات، والذي يملك أكبر قدر من الملابس, وباختصار؛ فحتى لو كان أغنى إنسان، فإنه سيكون محددا بلبس ملابسه، وباستعمال سيارته. فالشخص وإن كان لديه قصر فاره، فهو لا يستطيع أن يسكن في غرفه العديدة في آن واحد، ويأكل في قاعاته كلها في لحظة واحدة. أو الذي يملك أجمل الملابس ترى كم قطعة من هذه القطع يمكن أن يلبسها فوق بعضها البعض في آن واحد ؟. وإذا نظرنا إلى حياة هؤلاء الناس نرى أنّ الذي يملك قصراً كبيراً وواسعاً ومتكونا من عشرات الغرف لا يمكنه استعمال جميع الغرف فلا يتسنى له سوى السكن في غرفة واحدة أو في غرفتين أو ثلاث فقط. وحتى لو كانت خزانة الملابس مليئة بمختلف أنواع الملابس, فإنه لا يسعه سوى ارتداء بدلة واحدة. وحتى لو كانوا يملكون آلاف الأنواع من الأطــعمة التي خلقها الله فإنه لا يسعهم سوى أكل وجبة أو ثلاثة وجبات، ولو حاولوا أكل المزيد من الطعام فسيتحول هذا إلى عذاب. ويمكن الإكثار من سرد مثل هذه الأمثلة.

ولكن مما لاشك فيه أن هناك أمرا مهما يتمثل في أن تقدم الإنسان في العمر، وتوجهه بسرعة إلى النهاية الحتمية التي لا مفر منها يصبح مانعاً أمام استمرار تلذذ الشخص بكل هذه الطيبات. ولكن الشخص الغافل يظل طوال حياته غير مدرك لهذه الحقيقة، ويحسب أن ماله سيخلده (سورة الهمزة 3).

إن أمثال هؤلاء الأشخاص يكونون مرتبطين بشكل أعمى بمثل هذا الاعتقاد المنحرف حتى أنهم يوم الحساب وأمام رب العالمين عندما يرون أن العذاب واقع بهم لا محالة سيعرضون ما يملكونه فداء لأنفسهم، بل يكونون مستعدين لأن يفتدوا بأولادهم وبأزواجهم، بل حتى بعشيرتهم لتخليص أنفسهم, ولكن بالطبع فإن يوم الحساب قد أزف، ولن ينفعهم أي شئ، ولن يقبل منهم أي شئ بعد الأن :

﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئذ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ وَمَنْ فِي الأرض جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ كَلَّا إنها لَظَـــى نَزَّاعَةً لِلشَّوَى ﴾ (سورة المعراج 11- 15)

لذلك فإن الذين يدركون بأن كل الغنى عائد لله سبحانه وتعالى، ويدركون بأن ما جمعوه من مال ومركز اجتماعي سيظل في هذه الدنيا الزائلة، لذا لا يجرون خلفها في أي وقت بهذا الشكل المحموم، كما لن يشعروا بالغرور عندما يملكون أسباب الغنى، ولا ينسون ربهم، ويقومون بشكر وحمد الله على هذه النعم، ويكتفون بما لديهم من مال. وقد وعد الله تعالى مثل هؤلاء الناس الذين لا يرتبطون بالأطماع الدنيوية بحياة كريمة ومريحة.

إن الذين يقدرون الله حق قدره، ويؤمنون به يدركون جيدا زوال هذه الدنيا، وأن

المال والموقع لا يؤمن لصاحبه إلا منفعة وفائدة مؤقتة، لذا يدركون أنه لا وجه للمقارنة أبدا بين هذه الحياة الدنيا الزائلة وبين الحياة الأبدية في دار الآخرة.

لذلك فإن الشخص المؤمن الذي يملك مقومات الغنى لا يستعمل هذه المقومات من أجل ظلم الناس وسلب حقوقهم، ولا تجعله أسباب الغنى مرتبطـــا بشكل أكبر بهذه الدنيا، بل على العكس تجعله يقترب أكثر من الله تعالى فيحمده ويشكره على هذه النعم. وهو لا يأكل حق أحد، ويحاول جهده استثمار هذه الأموال في أعمال الخير، ويعرف بأن الرتبة العالية، والمكانة اللائقة به هي عند الله عز وجل. لذا فبدلاً من الجري خلف غنى دنيوي سوف يهتم بالتخلق بالأخلاق الرفيعة، والعيش بهذه الأخلاق من أجل كسب الغنى الحقيقي في يوم الآخرة. ولعل أجمل مثال لنا في هذا الخصوص هو تصرف سيدنا سليمان عليه السلام، فعلى الرغم من حصوله بفضل الله تعالى على غنى كبير، وملك عظيم، فإن سيدنا سليمان عليه السلام يبين لنا بوضوح غايته من طلب هذا الغنى:

﴿ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾
(سورة ص 32)

فالذين لا يملكون مثل هذا الإدراك يعتبرون أنه لا قيمة لما ربحوه، بل يعتبرون أن جميع ما لديهم من مال وثروة شيء قليل لا يشبع نهمهم. ولعله يغيب عن بالهم بأنهم لن يستطيعوا استخدام هذه الثروة التي حصلوا عليها أكثر من 60 – إلى 70 سنة. وينسون حقيقة بأنه سيأتي يوم يتركون وراءهم في الدنيا أولادهم وبيوتهم وسياراتهم، وجميع ثرواتهم وسوف يموتون ويدفنون تحت التراب.

ومع ذلك يمضون عمرهم وهم يلهثون للوصول إلى الشهرة وإلى الغنى الذي يطمحون في الحصول عليه، وعليه فإن الشخص الذي ينسى خالقه رب العالمين معتقدا بأن أمواله ستكون مصدر أمنه وخلاصه وسعادته فإنه في النهاية سيلاقي الخسران في الدنيا والآخرة :

﴿ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (سورة آل عمران 10)

ويوضح القرآن الكريم الشخص الذي تنحصر غايته في جمع المال وعده:

﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ إنها عَلَيْهِمْ مُوصَدَةٌ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾
(سورة الهمزة 2– 9)

إن إدراك المعنى الحقيقي للغنى – الذي يدركه المؤمنون –يجعلهم لا يعيرون اهتماما كبيرا لزينة الدنيا, ولا يعطونها أكبر من حجمها, ويدركون أن كل شئ هو من عند الله تعالى, وهم الذين يختارون حياة الآخرة, ويفضلونها على هذه الدنيا الزائلة. إن

المؤمنين الذين فضلوا شراء الآخرة عن حياة الدنيا هم ولاشك قد اختاروا الغنى الأبدي والتجارة الرابحة. وهذه الحقيقة قد ذكرها القرآن الكريم:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أنفسهم وَأَمْوَالَهُمْ بأن لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَ الإنجيلِ والقرآن وَمَنْ أو فَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (سورة التوبة 111)

والذين يهملون هذه الحقيقة ويرتبطون بشكل وثيق بهذه الدنيا سوف يرون بجلاء من سيكون هو الرابح الحقيقي.

الزواج

لعل من أهم المواضيع التي تربط الإنسان بالحياة الدنيا هي الزواج, ولعل من أهم الأهداف التي ينشدها كل شاب و فتاة هو إنشاء زواج ناجح، ولهذا السبب فإن الإنسان يبدأ وهو في مطلع شبابه بوضع هدف البحث عن نصفه الثاني. ولكن نرى الآن في مجتمع الجاهلية أن العلاقات التي تربط الرجل والمرأة تكون مبنية على أسس خاطئة ومنحرفة. وأن هذه العلاقات تكون مبنية على أساس الرومانسية والعواطف والمنافع المتبادلة. بالأخص فإن ما تأمله النساء في أغلب الأحيان هو الحصول على زوج غني، حيث نلاحظ أن هناك من الفتيات من تسعى في هذا السبيل وتتزوج من رجل حتى وإن كانت لا تحبه، وكذلك نجد في الوقت نفسه شابا يختار شريكة حياته لكونها تمتلك قواما جميلا. ولكن أفراد مجتمع الجاهلية هذا قد غابت عن أعينهم حقيقة مهمة ألا وهي أن جميع ما يتعلق بالخواص المادية لأي شئ يمكن أن ينتهي ويتلاشى، وأن الله تعالى قادر في أي لحظـــة على سلب ممتلكات أي شخص وغناه، وأن جميع الصفات الجسمانية الجميلة سيأتي يوم تنتهي فيه وتتلاشى، وأن الصفات مثل الصحة والقوة والجمال سينتهي بعد الزواج عاجلا أم آجلا خلال فترة الشيخوخة إلى غير رجعة، ولا يمكن اكتسابها مجدداً.

وفي بعض الأحيان ليس شرطـــاً انتظار مرور الأعوام لكي يشيخ المرء، بل يمكن أن يتعرض هذا الشخص إلى حادث كأن يتعوق أو يصاب بالشلل أو يصاب بمرض قاتل.

ترى ماذا سيحصل لهذا النظام المبني على أسس ومنافع مادية؟ على سبيل المثال، ماذا سيعمل رجل تزوج من امرأة من أجل حسنها وجمال وجهها، ثم فقدت زوجته هذه حسنها وجمالها نتيجة لتعرضها لحادث، أو فقدته لتقدم عمرها إذ تبدأ مظـــاهر الكبر في تغيير ملامح وجهها.

سيدرك لا محالة أن زواجه الذي كان من أهم غاياته في الحياة قد أسس على دعائم خاطئة. ما نريد قوله هنا هو أن الزواج لكي يكون ناجحا يجب أن يكون مبنياً على أسس ودعائم صحيحة متى ما كانت غايته الوحيدة هو كسب رضى الله تعالى، ومتى ما كان باستقامة الأحكام والقواعد التي وضعها الله تعالى، وأي عمل بعكس هذا لن يمنح ذلك الفرد السعادة والاستقرار لا في الدنيا ولا في الآخرة. وفي يوم الآخرة سيدرك هذا الشخص الذي أسس حياته وخططـــها وفق نظام دنيوي ومادي بحت، وضحى بكل حياته في هذه السبيل. . . سيدرك مدى تفاهتها وقصرها، ولكن الوقت سيكون قد فات عند إدراك هذه الحقيقة.

ونراه يتهرب يوم القيامة من زوجته التي كانت أقرب الناس إليه في الدنيا حتى أنه لا يرغب حتى في رؤيتها، بل ويصل الأمر به أنه يكون مستعدا لتقديم زوجته فدية لكي ينجو من عذاب القيامة، والله تعالى يوضح حال مثل هؤلاء الناس فيقول :

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ (سورة المعراج 13-11)

نرى من خلال هذه الآية الكريمة كيف أن الشخص المنكر العاصي يمكن أن يضحي بأخيه وزوجته وباقي أفراد عائلته الذين لا يمثلون له أية أهمية أو قيمة يوم القيامة. كما إن هؤلاء الناس الذين هم على استعداد للتضحية ببعضهم البعض لم يكونوا ليستروا أخطـــاء بعضهم البعض في الحياة الدنيا سيقومون بلعن بعضهم البعض عند دخولهم إلى جهنم، وسيكون مصير الذين أسسوا في هذه الدنيا الزائلة علاقات خارجة عن رضى الله تعالى وعن الحدود التي رسمها لهم الإحباط والخسران المبين يوم القيامة. وهنا يستعرض القرآن الكريم لنا مثالا آخر في هذا الخصوص مثال أبي لهب وزوجته الذين ألقيا في نار جهنم :

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ (سورة المسد 1 – 5)

أما إذا كانت هناك نية خالصة لكسب رضى الله تعالى، فإن هذه الرابطـــة المتبادلة والحب المتبادل سيكونان مبنيين على أسس مختلفة تماما. لذا فإن أمورا أخرى مثل الغنى والشهرة والجمال لن تكون العامل الأساسي الذي يحدد هذه الرابطـــة المشتركة. فالمؤمن الحقيقي الذي يؤمن بزوال هذه الحياة سيكون ميزانه وقسطـــاسه هو التقوى. وبدرجة ارتباطـــه بالله تعالى وحبه وخوفه منه عاليا بمعنى متى ما كانت درجة تقواه عالية سيكون شعور الحب تجاه ذلك الإنسان عاليا أيضاً.

لذا فإن على المؤمن أن يكون أساس اختياره لشريكة حياته هو التقوى أي محاولة كسب رضى الله تعالى وحبه، عندها سيكون هذا الزواج على قدر كبير من الطمأنينة

والأمن. وقد ذكر الله تعالى في قرآنه الكريم مايتعلق بهذه المسألة :

﴿وَمِنْ آياته أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلكَ لَآيَات لِقَوْم يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة الروم 21)

بالإضافة إلى هذا فإن المؤمنين الذين يرتبطون في الدنيا بروابط التقوى سيكونون هم الفائزون يوم القيامة، وسيكون هؤلاء المؤمنون الذين قضوا جل حياتهم وهم يدعون إلى الجنة بتصرفاتهم الجميلة والخيرة من أقرب الأصدقاء لبعضهم البعض في الآخرة. والله تعالى يخبرنا من خلال آياته الكريمة ما يخص المؤمنين والمؤمنات في يوم القيامة فيقول:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أو لِيَاءُ بَعْض يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أولئك سَيَرْحَمُهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة التوبه 71)

الأولاد

يوجد في فطرة كل إنسان الرغبة في إدامة ذريته ونسله وأن يخلف أحدا من صلبه في هذه الحياة الدنيا بجانب رغبة التملك والحصول على الثروات وهي رغبة لا تعرف الشبع أبدا. وكما بين القرآن الكريم فإن هذه الرغبة إن لم توضع قواعدها على أساس كسب رضى الله تعالى فستؤدي به إلي الابتعاد عن ذكر الله والانشغال عنه. والأهم من هذا أنه يمكن أن تأخذ طريقا منحرفاً. بل يمكن أن تكون عنصراً يجعله ينحرف عن طريقه الصحيح حيث قد يجعله يشرك مع الله شريكاً آخراً. إن الله تعالى يمتحن الإنسان في الأولاد ليرى فيما إذا كانت تصرفاته تدخل ضمن دائرة كسب رضى الله تعالى أم لا. ونحن نرى هذا الأمر بوضوح من خلال الآية الآتية:

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة التغابن 15)

والملفت للنظر استعمال كلمة "فتنة" في هذه الآية للأولاد والأموال، فالكثير من الناس تراودهم فكرة إنجاب الأطفال – الذين يعدون من زينة الحياة الدنيا – هدفا مهما لهم في هذه الحياة، ولهذا السبب ذكر الله تعالى في قرآنه الكريم أن الأطفال هم موضع امتحان كبير لبني البشر في هذه الدنيا، وأنه يجب أن تكون نية إنجاب الأطفال خالصة لوجه الله تعالى، وعكس هذا الأمر سيخفي في طياته شركاً خفياً. وقد أعطى الله تعالى في قرآنه الكريم مثالاً على هذا النوع من العائلات والأسر التي نست الله وجعلت من هذا الأمر (أي أن يكونوا أصحاب أطفال) غايتها الوحيدة في هذه الحياة وعد هذا

الأمر نوعا من الشرك بالله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (سورة الاعراف 189 – 191)

والتصرف الصحيح هو أن يكون طلب الأولاد من أجل كسب رضى الله تعالى. إذا ألقينا نظرة على القصص المذكورة في القرآن الكريم وجدنا أن طلب الأنبياء للذرية كان دوماً ضمن حدود الرضى الإلهي. وهناك الكثير من الأمثلة والقصص تتناول هذا الموضوع :

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (سورة آل عمران 35)

وكذلك كان دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة البقرة 128)

فإذا كانت رغبة إنجاب الأطفال وفق الأسس المذكورة في الآية الكريمة، فإن هذا سيؤدي ولا شك إلى نتيجة طيبة، لأنه من أنشأ مؤمنا معتمدا على أخلاق القرآن الكريم وكان في نيته كسب رضى الله تعالى فإنه بهذا العمل يدخل ولاشك في نطـــاق العبادة، وخلاف هذه النية يقود الإنسان إلى عواقب وخيمة في الدنيا والآخرة.

وإذا غفل أحدهم أن هذا الطفل لطف ونعمة من الله تعالى أنعمها عليه, وأنه أمانة أو دعها الله عنده, وحاول أن يتفاخر ويتباهى به على غيره وعلى من حوله، وأنه عائد له وملك له، عندها سيكون قد انحرف عن الطرق القويم. إن ثمن هذا التصرف سيكون فادحاً يوم الآخرة، وفي ذلك اليوم سوف ينسى أولاده الذين كانوا من أهم المناصرين له في الحياة الدنيا، بل سيكون على استعداد تام للتضحية بهم كي ينجو من العذاب الأليم. ولكن لن يكون هناك أي مفر من عذاب ذلك اليوم. وفي الحقيقة فإن الأطفال سيكونون سبباً للمشاكل، ليس في الآخرة فقط بل حتى في الحياة الدنيا. . . . سيكونون مصدرا للكثير من المشاكل لأفراد مجتمع الجاهلية. فبعد ولادة الطفل تقضي العائلة زمنا طويلا وتبذل جهداً كبيراً من أجل تربية الطفل، وهذه الصعوبات تبدو ظاهرة للعيان في الأشهر الأولى للحمل لأن على الأم تنظيم حياتها كلها على أساس طفلها الذي تحمله في بطنها، فعليها أن تبدي عناية بما تأكله وتشربه، وتكون حريصة كل الحرص في

حركاتها وسكناتها، وألا تقوم بأي حركة مفاجئة قد تؤذي بها جنينها. وفي الأشهر الأخيرة للحمل تبدأ حركات الأم في التثاقل بشكل مطرد حيث تكون تلك الحركات غير متوازنة. كذلك فبعد الولادة فإن الطفل يشكل وحده شغلا شاغلا للأبوين حيث تبدو الأم وكأنها مقيدة بجانب ولدها، لأن عليها أن ترعاه باستمرار. وهي إلى جانب انتظارها كي يكبر وليدها بأسرع وقت، تمر السنين متتابعة لدرجة أنها لا تشعر بمرورها.
دعنا ننظر إلى الموضوع من ناحيتين:

الأولى: أنه إذا كان الصبر على كل هذه المشاق هو من أجل كسب رضى الله تعالى فإنه يدخل ضمن حدود العبادات الكبرى.

الثانية: هنا يكون الوضع مختلفاً مع الشخص الذي يتحلى بالثقافة الجاهلية. فحسب تلك الثقافة فإن كل هذه المشاق التي يتكبدها الشخص تمثل له عناء لا داعي لها، ولا تحمل في طياتها أي هدف. ويعيش أفراد الثقافة الجاهلية أكبر خيبة أمل عندما يكبر أولادهم. فمن الطبيعي أن يتبنى هذا الطفل الأفكار الخاطئة والتصرفات البعيدة عن معايير الأخلاق –والتي هي نتاج المجتمع الجاهلي – عندما لا ينشأ على الأخلاق وعلى أسس التربية الفاضلة التي أمر بها الله تعالى، وتكون نتيجة هذه التربية الخاطئة والأخلاق الفاسدة نشوء جيل من الأولاد يعصون آباءهم وأمهاتهم، وهذا يؤدي بطبيعة الحال إلى نشوء أفراد لا يحملون معاني الوفاء والإخلاص لأن الآباء والأمهات يرون في أولادهم نوعاً من الضمان لهم في المستقبل، فهم يظنون بأنهم سيكونون عونا كبيراً لهم في فترة شيخوختهم، ولكن الشخص الذي ينشأ وفق أخلاق يشوبها التمرد والجحود يكون بعيدا كل البعد عن مثل هذا التوقع وهذا الظن ولا يخطر ذلك على باله، ويكون بعيدا عن مثل هذا الخلق الفاضل. فهو يعمل في الحقيقة على الحفاظ على مصالحه وعلى رغباته الشخصية، وهو مستعد لتنفيذ رغبات والديه إن كانت هذه الرغبات متوازية ومتماشية مع خططـــه ومصالحه الشخصية فقط، وليس لهما مكان عنده خارج هذا النطـــاق. لذا ليس من المصادفة أن تكون نهاية الوالدين عند مثل هؤلاء الأولاد في إحدى غرف دور العجزة.

أما الطفل الذي ينشأ على أخلاق القرآن الكريم تكون تصرفاته غير هذه التصرفات تماما. لأن القرآن الكريم يذكر بجهد الأبوين في تنشئة أطفالهم ويلزم الأبناء باحترامهما وعدم القيام بأي تصرف يؤلمهما أو يحزنهما. فالله تعالى يقول:

﴿ **وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَو كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا** ﴾ (سورة الإسراء 23 – 24)

ونفهم من هذه الآية أن تنشئة الإنسان وتربيته على ضوء هذه الحقائق تعتبر من

المهام الأصيلة. ولكن إن تمت تنشئة الطفل على أسس دنيوية وما توفره من فوائد ومنافع مؤقتة وزائلة فستكون كالأعمال الدنيوية الزائلة الأخرى التي لا تحمل هدفاً نبيلا ولا غاية فاضلة. وعلاوة على هذا فإن الشخص الذي يربي أولاده من أجل كسب رضى الله تعالى لن يخسر شيئا حتى وإن لم يلتزم أولاده بالأسس الأخلاقية الإسلامية وبأخلاق المؤمنين الصالحين، لأنه إنما يقوم بأداء ما عليه ويترك الباقي لرب العالمين. وبما أن الله تعالى ولي أمر الناس جميعا، فإن الشخص الذي يقوم بتربية أولاده حسب ما يرضاه الله تعالى فإنه سيحصل في النهاية على أجر ويكتب له في حسانته.

أما الذي يكون جل تفكيره محصورا في الدنيا ويربي طفله على هذا الأساس فإنه إضافة إلى أنه لن يجد في ولده ما كان يطمح إليه في الدنيا، فإنه في الآخرة لن تكون له أي فائدة لولده، ولا أي فائدة لولده له. ويشير القرآن الكريم إلى هذه المسألة بقوله تعالى :

﴿فإذا جَاءَتْ الصَّاخَّة يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيه وَأُمِّه وَأَبِيه وَصَاحِبَتِه وَبَنِيه لِكُلِّ امْرِئ مِنْهُمْ يَوْمَئذ شَأْنٌ يُغْنِيه﴾ (سورة عبس 33 – 37)

فكَماً ذَكرنا سابقَاً فإن الإنسَاَن خلق فقط من أجل أن يؤدي فروض العبودية الحقة لله رب العالمين، و جميع مظاهر الزينة التي وفرت له في الحياة الدنيا ليست سوى وسيلة اختبار له فيما إذا كان سيقوم بفروض العبودية إزاء الله تعالى أو فيما إذا كان سيعيش حياة مناسبة من أجل كسب رضى الله تعالى أم لا.

لهذا لاشك أن الإنسان بعد موته سوف يحاسب على العبادات التي أداها في الحياة الدنيا أو على ما اقترفه من عصيان وجحود وتمرد، وعلى حسب هذه الأفعال فإنه سوف يكافأ مكافأة سخية بأن يفوز بالسعادة الأبدية ويدخل الجنة أو أن يخسر خسراناً مبينا ويدخل عذاب جهنم.

ولهذا السبب، فإن كل أنواع هذه الزينة والتي تخلب لُباب البشر لا تحمل أي قيمة تذكر عند الله تعالى. إن الذي يقرب الإنسان من الله تعالى ويجعله ينجو من عذاب جهنم يوم الحساب ليس ما يمتلكه من أولاد وأموال، بل ما يملكه من تقوى وإيمان ثابت لا يتزحزح، وهذا هو ما توضحه الآيات الكريمة:

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أو لَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ (سورة سبأ 37)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أولادهم مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (سورة آل عمران 116)

لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أولادهم مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أولئك أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (سورة المجادلة 17)

الكوارث

إن الدنيا التي نعيش فيها يتهددها الكثير من الأخطــار الداخلية والخارجية وإن كنا لا نعي ذلك كثيرا مثل النيازك والثقوب السوداء والنجوم المذنبة، وهذا يمثل جزأً صغيراً من تلك الأخطار. و إذا نزلنا إلى أعماق الأرض نصادف وجود طبقة سائلة تصل درجة حرارتها إلى آلاف الدرجات المئوية، وليس من الغريب أن نقول بأن هناك كرة نارية تغلي تحت أقدامنا، وبالإضافة إلى هذا فإن هناك غلافا جويا يحيط من كل جهة بكرتنا الأرضية ويقوم بوظيفة الحماية. وبالإضافة إلى وظيفة الحماية التي يقوم بها الغلاف الجوي، فإن هناك حوادث جوية يكون مصدرها الغلاف الجوي والتي تحمل تأثيراً قويا جداً مثل العواصف والأعاصير.

كل عناصر التهديد هذه تكون فعالة بين الحين والآخر، وتكون هناك خسائر مادية وبشرية نتيجة لهذه الحوادث والتي يطلق عليها اسم الكوارث الطبيعية. وتأتي الزلازل وانفجارات البراكين والفيضانات والأمواج البحرية العملاقة والعواصف والأعاصير والحرائق الكبيرة في مقدمة هذه الحوادث حيث أن كل من هذه الآفات الطبيعية لها تاثيرات مختلفة. والعامل المشترك لكل هذه الآفات الطبيعية هو أنه في زمن قصير يمكنها أن تدمر مدناً ومافيها من أناس ومخلوقات حية، وتكون هذه الخسائر فادحة وجسيمة. والإنسان لا يملك أي إمكانية وقوة تجعله يحول دون وقوع هذه الحوادث. وما دام الإنسان لا يواجه هذه الكوارث فإنه لا يريد التفكير فيها مع

علمه بإمكانية حدوثها في كل لحظـــة.

إن الحياة على وجه الأرض تسير وفق ميزان دقيق جداً, لهذا فإن هذه الأشكال من الحوادث الكبيرة لا تكون فعالة على مساحات شاسعة، وبأخذ جميع أنواع الأحياء على وجه الأرض ومن ضمنها الإنسان فإن هناك حماية خاصة لهم، لكن الله تعالى يريد تبصرة الإنسان من حين إلى آخر إلى إمكانية وكون المكان الذي يعيش عليه غير آمن. كما أن الله تعالى يدفع الإنسان لكي يدرك من خلال هذه الكوارث التي استعرضناها فقدان القدرة على التحكم في الكوكب الذي يعيش عليه، ويجعلهم يشهدون عجزهم وضعفهم بأنفسهم وأن يأخذ وا العبر والعظـــات من خلال هذه الكوارث. حسناً، فيما عدا هذا ترى أي نوع من أنواع العبر والعظـــات يكون الإنسان قد استفادها من كل هذا ؟

مثلما استعرضنا في بداية الكتاب من أن هذه الدنيا هي المكان الذي خلقه الله تعالى لكي يمتحن به الإنسان ولكي يميز بين الصالح والطـــالح، والله تعالى قد بين هذه الحقيقة بقوله:

﴿وَهُوَ الَّذي خَلَقَ السَّمَاوَات والأرض في ستَّة أيام وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (سورة هود 7)

إن هذا الامتحان الخاص بالدنيا قد هيئ بشكل كامل خال من أي نقص إلى درجة أن كل أمر وكل حادث يحدث في هذه الدنيا يعود إلى سبب معين. وكل تفصيل من تفاصيل هذه الحوادث يقع ضمن قاعدة السبب — النتيجة. فمثلا إن إمكانية وقوف الإنسان وسيره على وجه الأرض يعود إلى قانون الجاذبية الأرضية والتي تمنحه هذه الإمكانية، وسقوط الأمطار يحدث نتيجة الغيوم والرياح، والموت والحوادث و الأمراض لابد وأن تحدث لسبب ما.

ومما لاشك فيه أنه يمكن ملء صفحات عديدة تزخر بأمثلة توضح علاقات السبب — النتيجة، ولكن المهم هنا هو كون هذا النظام غاية في الكمال والاتساق. وإحدى خصائص هذا النظام كونه في كل حادثة يساير منطق البشر. فالله تعالى يحذر وينذر البشر بين الحين والآخر بإرساله الكوارث الطبيعية. ولنأخذ مثلاً لإحدى هذه الكوارث، ففي الزلازل تموت أعداد كبيرة من البشرمن شيوخ وشباب، رجال ونساء وحتى أطفال صغار. فكثير من الناس الذين تغلب عليهم الغفلة ينظرون إلى هذه



لقد خلق الله الأرض بشكل تكون معرضة في كل لحظـة لكوارث عديدة، لكي يدفع الإنسان إلى التفكير في أن الأرض ليست بدار مقام بل دار امتحان وفناء.

الكوارث ويعتبرونها شيئاً طبيعياً، ولا يفكرون في أن كل هذا قد خلق من أجل غاية معينة. والآن لنتأمل جيدا ماذا كان سيحدث لو أن هذه المصيبة قد حلت فقط بالذين اقترفوا الآثام والذين هم خارجون عن الطريق الذي رسمه الله تعالى للبشر ؟

لاشك أن مفهوم الامتحان يكون قد انتهى تماما، ولكن الله تعالى لم يكن ليسمح بهذا. وكما ذكرنا سابقا فجميع الحوادث التي تحدث على وجه الأرض قد هيئت إلى حد كبير بشكل طبيعي ضمن ميزان دقيق لا يقبل الخطـأ. والإنسان المؤمن الذي يدرك وجود الله والذي يكون صاحب فهم عميق يدرك أن هذه الحوادث والتي تحمل هذا الشكل الطبيعي قد حصلت لحكمة معينة، وكما ورد في الآية الكريمة:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾

(سورة الأنبياء 35)

فإن الله تعالى قد أشار إلى أنه يمتحن بني البشر بين الحين والآخر بحوادث سيئة وطيبة. فقد يقع حدث ما يذهب ضحيته كثير من الناس، فيحزن أناس لكثرة هؤلاء الضحايا، لكن ينبغي ألا يغيب عن أذهاننا أن الله تعالى صاحب العدالة الأبدية سوف لن يحرم يوم القيامة أحدا من أخذ حقه.

إن كل ما يواجه الإنسان في هذه الدنيا من حوادث هو بمثابة التجربة والامتحان، وسوف يلاقي الجميع يوم القيامة جزاءهم وما كسبت أيديهم سواء أكانوا من الصابرين أو كانوا من الغافلين. لذا نرى أن الذين يدركون عظمة الله حق الإدراك، والمرتبطين من أعماق قلوبهم بالله تعالى هم المدركون لسر هذه الدنيا. فإذا أصابتهم مصيبة يهرعون إلى الله تعالى تضرعا وخيفة ويطلبون عفوه ومغفرته، لأنهم يعرفون أن الله تعالى قد وعدهم في قرآنه الكريم بقوله تعالى :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بشَيْء منْ الْخَوْف وَالْجُوع وَنَقْص منْ الْأَمْوَال وَ الأنفُس وَالثَّمَرَات وَبَشِّرْ الصَّابرينَ الَّذينَ إذا أَصَابَتْهُمْ مُصيبَةٌ قَالُوا إنَّا للَّه وَإنَّا إليه رَاجعُونَ أولئك عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ منْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ ﴾
(سورة البقرة 155- 157)

فكما ورد في الآية الكريمة، فإن جميع البشر المؤمنين وغير المؤمنين سيتم اختبارهم من خلال بعض الحوادث فبعضهم من خلال الآفات الطبيعية، وبعضهم من خلال حوادث تقع في حياتهم اليومية والبعض الآخر من خلال بعض الأمراض والمحن، وهي حقائق ليست ببعيدة في هذه الدنيا عن الإنسان. وهذه المصائب التي تلحق ببعض الأفراد يمكن أن يشمل تأثيرها نواحي مادية ونواحي معنوية من حياة الإنسان.

على سبيل المثال، قد يلحق الإفلاس بشخص كان في يوم ما يعيش حياة مرفهةً، وقد تفقد إمراة حسناء جمالها إلى غير رجعة أو أن يتعرض الإنسان إلى مرض ليس له دواء أو علاج، ومثال ذلك أيضا تعرض بعض المدن بين الحين والآخر إلى عاصفة مفاجئة تسبب دمارا واسعا غير متوقع. وهذا يكشف أن حياة الإنسان مرهونة ببعض اللحظـــات القصيرة. المهم من كل هذا أن يستوعب الإنسان الدروس اللازمة ويستنتج منها العبر والعظـــات. والله تعالى يريد أن يرسل رسالة إلى بني البشر من خلال هذه الكوارث التي تحدث كل هذه الأضرار المادية والمعنوية لكي يعوا ما هم فيه وأن يرجعوا عن ضلالهم وانحرافهم إلى الطريق المستقيم الذي رسمه الله تعالى لجميع البشر في هذه الدنيا.

وكما هو الحال بالنسبة لبقية الأشياء التي لم يخلقها الله عبثا في هذه الدنيا، فإن الله تعالى ابتلى البشر بهذه الكوارث كي تكون لهم وسائل إنذار وتنبيه. وبين الله تعالى في قرآنه الكريم بأنه ليس هناك أي شيء يمكن أن يحدث في هذا الكون من دون إذن من الله بقوله تعالى:

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة التغابن 11)

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾
(سورة آل عمران 145)

وإلى جانب جميع هذه الكوارث والصعاب فإن هناك حكمةً وغايةً وراء كل هذا:

إن الإنسان الذي يرى نفسه في هذه الدنيا صاحب قوة وجبروت، سيدرك مدى عجزه وضعفه أمام الكوارث التي يمكن أن تحدث في أي لحظة بمشيئة الله, فيكون بلا حول ولا قوة لكي يساعد نفسه أو حتى يقدم المساعدة للآخرين, ولأن كل شيء بيد الله تعالى فليس هناك قوة غير الله سبحانه وتعالى يمكن أن تقدم الفائدة أو الضرر. وهذه الحقيقة تبينها الآية التالية:

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة الأنعام 17)

في هذا القسم سوف نقوم باستعراض جميع أنواع الكوارث، والآفات الطبيعية، وتأثيراتها والتي وقعت إلى الآن على سطح الأرض، لكي يدرك الذين يرتبطون بهذه الدنيا ارتباطا كليا أنها ليست المكان الذي يستحق كل هذا الاهتمام، والتذكير بأهمية كون حياة الآخرة هي المكان المثالي الذي يستحق العيش فيه.

فالذي نستعرضه أمام أنظار القراء الكرام هي حقائق تظهر كيفية وقوع الإنسان في حالة من العجز المطلق أثناء وقوع هذه الكوارث وبعد انتهائها. إن هذا العجز الذي يعيش فيه الإنسان آية تعبير على أن قوة الإنسان ليست لها أية أهمية أمام قوة وعظمة رب العالمين، وأن الله وحده هو الذي يجب اللجوء إليه لطلب الحماية والمساعدة.

الزلازل

وهي تمثل أكبر الحوادث الطبيعية تدميراً، فعند وقوعها تخلف أضراراً فادحة، وهي أكثر ما تهدد بني البشر بالمقارنة مع بقية الكوارث الطبيعية الأخرى. وحسب الإحصاءات الرسمية المتوفرة فإنه يحدث زلزال واحد في كل دقيقتين على الكرة الأرضية، وإذا قمنا بحساب عدد هذه الزلازل الواقعة خلال السنة الواحدة على الكرة

الأرضية نجد أن الأرقام تصل إلى ملايين الهزات الأرضية، فمن بين 300000 هزة أرضية تكون 20 هزة منها مدمرة، حيث إن قوتها التدميرية يمكن أن تدمر مدينة بكاملها. وهذه الزلازل لا تقع باستمرار في أماكن آهلة بالسكان، لذا فإن نتائج مثل هذه الهزات الأرضية لا تكون دوماً مصحوبة بخسائر بشرية. ومن مجموع الزلازل السنوية فإن هناك ما يقارب الخمس هزات التي تقع في مختلف أنحاء الكرة الأرضية تحمل معها الموت والدمار.

ومن خلال إلقاء الضوء على المعطيات السابقة نفهم أن الناس لا يواجهون الزلازل بشكل مستمر، حيث تقع في كل دقيقتين هزة أرضية في بقاع متفرقة من الكرة الأرضية ولكن أغلبية البشر لا يحسون حتى بوقوعها لأن شدة هذه الزلازل محسوب بدقة كبيرة. هذا لاشك يمثل دليلاً واضحا على الحماية التي يوفرها الله تعالى لجميع البشر. ففي أيامنا هذه إذا وقع زلزال ما فإن المدينة وأطراف المدينة التي تعرضت لزلزال يمكنها أن تحس بوقوع هذا الزلزال. ويمكن لله تعالى إن شاء، وبكل سهولة أن يرسل زلزالاً تكون قوته التدميرية تلف جميع أنحاء الكرة الأرضية وأن تقضي على جميع معالم الكرة الأرضية. وطبقا للأبحاث العلمية فإن التركيبة الجيويولوجية للكرة الأرضية تجعلها من الطبيعي أن تتعرض لهذا الزلزال، فتكون خطوط الزلزال والفراغات المتكونة بين الطبقات الأرضية. . . . إلخ تجعل حقيقة وقوع الزلزال شيئا طبيعيا لا مفر منه. وبالاطـــلاع على أحد المصادر العلمية الذي يتناول احتمالية وقوع الزلزال نراه يورد مايلي:

إن القوة الكامنة في أعماق الكرة الأرضية تستطيع كسر الطبقة الصلبة من القشرة الأرضية، وعندما لا تستطيع صخور القشرة الأرضية مقاومة هذه القوة فإنها تتكسر مولدة بذلك طـــاقة تدميرية كبيرة، ونتيجة لهذه الهزة العنيفة فإنه يمكن أن تكون النتيجة دمار شامل لجميع مباني تلك المدينة مخلفة أنقاضاً ضخمة تدفن تحتها إلى غير رجعة جميع سكان تلك المدينة. (الكوراث الطبيعية، Readers Digest,1996)

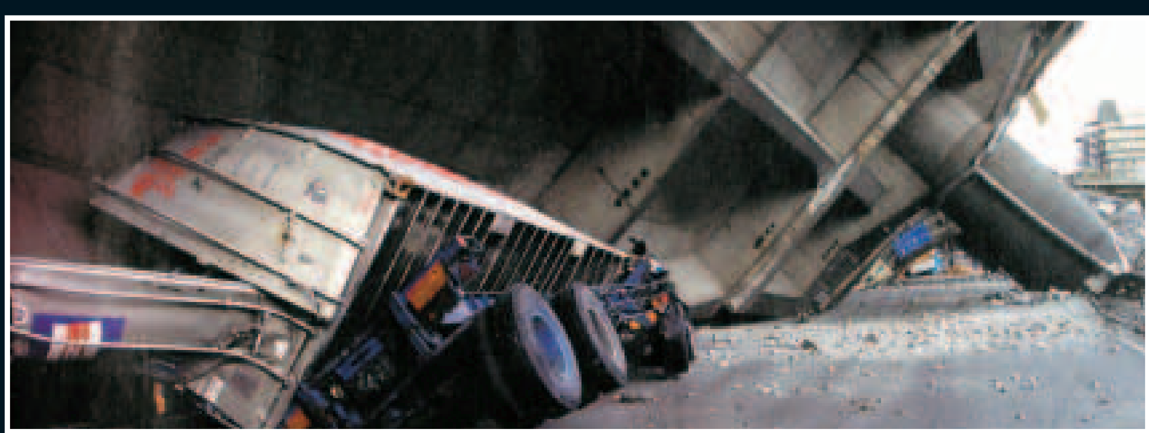
مما لاشك فيه أنه لو أراد الله تعالى إحداث هزة أرضية في مكان ما فليس من الشرط أن تكون ظروف الطبقات الأرضية مناسبة أو غير مناسبة لحدوث مثل هذه الهزة. فلو شاء الله تعالى لأحدث هذه الهزة وفي أي وقت يشاء، وإن كانت مغايرة لكافة القوانين الطبيعية. لكن الله تعالى يجعل الظروف الطبيعية على وجه الأرض في غاية عدم الأمان والاستقرار كي يذكر الإنسان بأن حياته في هذه الدنيا مرتبطة بخيط رفيع جداً، وعلى هذا الأساس فإن القرآن الكريم يحذر البشر فيما يتعلق بموضوع

تحتل مدينة كوبي اليابانية المرتبة الثانية بعد العاصمة طوكيو من حيث كثافة السكان, لكونها منطقة صناعية. لقد وصل تأثير الزلزال مدينة أوساكا التي تقع جنوبي البلاد إضافة إلى مدينة كوبي ذات العشرة ملايين نسمة. ولقد استمر هذا الزلزال قرابة عشرين ثانية في **17** تشرين الثاني من عام **1995** في تمام الساعة السادسة إلا الربع صباحا, حيث شعرت بهذه الهزة العنيفة العديد من المدن اليابانية الأخرى والتي تعرضت في الوقت نفسه إلى خسائر فادحة.

لقد كانت هذه الثواني العشرين كافية لتدمير ومحو عمل وجهود سنين عديدة.







الكوارث بقوله تعالى :

﴿ **أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسفَ اللَّهُ بِهِمْ الأرض أو يَأْتِيَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأخذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِين أو يَأخذَهُمْ عَلَى تَخَوُّف فإن رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ** ﴾ (سورة النحل 45 – 47)

فلو شاء الله لجعل هذه الهزات التي تستمر بضع ثوان متواصلة لساعات أو حتى لمدة أسابيع، ويمكن أن يجعلهم يعيشون في خوف مستمر. لكن الله تعالى يحمي البشر برحمته، وبهذا الشكل فإن الله تعالى يذكر البشر بعظمته وعدم إمكانية تحدي مشيئته، ويذكر الإنسان أيضاً بأن انشغالهم بهذه الدنيا سوف لن يكون جزاءه أي مكافاة وفوز، ومن الأهمية بمكان أن نذكر بالهزات الأرضية التي وقعت في القرن العشرين.

زلزال كوبي: هزيمة التكنلوجيا

إن امتلاك الإنسان للتكنولوجيا المتقدمة تمنحه في كثير من الأحيان شعوراً بأنه يمتلك أسباب القوة للتحكم في الطبيعة، ولكن الذين يسيطر عليهم هذا الإحساس يصابون في فترة قصيرة بالخيبة، ذلك أن التكنولوجيا نفسها هي إحدى النعم التي منحها الله للإنسان من أجل رفاهيته، وهي تحت حكم الله تعالى. وكما هو ملاحظ من خلال مختلف الحوادث التي تؤكد أن الإنسان حتى وإن امتلك أحدث التكنولوجيا وأرقاها لا يستطيع التحكم في الطبيعة، وكمثال على ذلك فعلى الرغم من دقة تطبيق اليابانيين للتكنولوجيا المتقدمة فإنهم لم ينجوا من الهزيمة أمام الزلزال الكبير الذي أصاب مدينة كوبي اليابانية سنة 1995. فقد انهارت معظم الأبنية التي تم إنشاؤها وفق أحدث التقنيات العلمية وكأنها أبنية مصنوعة من الورق! ولقد أنفقت الحكومة اليابانية وجامعاتها وخلال 30 عاماً الماضية ما يقارب المليار دولار من أجل إنشاء نظـــام يخبر عن قرب وقوع الزلزال قبل حدوثه، ولكنهم لم ينجحوا في ذلك لأنه من غير الممكن إنشاء نظـــام يعمل بدقة بحيث تستطيع أن تصف الهزات الواقعة في الطبقات الأرضية.

والزلزال الذي وقع في مدينة كوبي يشكل أحسن دليل على هذه الحقيقة، ولقد كان الناس يحسون بالأمان نتيجة الدراسات والبحوث التي كانت من المنتظر أن تعطـــي الإنذار قبل وقوع الزلزال ببضع ساعات أو قبل بضعة أيام، ولكن الذي حصل هو عكس هذا، حيث لم يقم أي نظـــام بالإخبار عن وقوع الزلزال الذي قلب



إن الإعصار الذي ضرب مدينة فلوريدا شباط عام 1988 كان كافيا لتدمير العديد من المنازل ورمي ونثر السيارات فوق أسطح المنازل. الصورة الجانبية والسفلية تبين نتائج العواصف الشديدة وما سببتها من تناثر الأشياء والسيارات.



إعصار كبير يمتلك القدرة على تدمير واسع النطـــاق في الأماكن التي يزحف عليها



حالة المراكب الشراعية بعد الإعصار المدمر الذي تعرضت له ولاية فلوريدا في شباط عام 1988.

هذه المدينة الساحلية رأساً على عقب. وهذا الزلزال كان يبعد قرابة 25 كيلومتر من مركز مدينة كوبي على عمق 15 كيلومتر تحت سطـــح البحر. لقد ظـــهر للعيان أن ما ادعاه اليابانيون بأن أبنيتهم قد صممت لكي تصمد أمام أعنف الزلازل لم تتمكن من الصمود كثيرا أمام هذا الزلزال. كما أن الزلزال ضرب مدينة كوبي وآوساكي اليابانيتين اللّتين تمثلان أهم المراكز التجارية والصناعية في اليابان. ولهذا تجاوزت الخسائر المادية بعد هذا الزلزال المليارات من الدولارات[3]. لقد كان وقع هذا الزلزال كبيراً وعميقا في نفوس أولئك الذين تعودوا العيش في حياة مرفهة وهو ما جعلهم لا يعرفون كيف يتصرفون في تلك اللحظـــات، إذ لم يكونوا يعتقدون أن الفاجعة سوف تحل بهم مرة أخرى.

الأعاصير الاستوائية والعواصف

إن الحوادث الجوية مثل العواصف والأعاصير هي أيضاً من الآفات الطبيعية التي نشهد حدوثها باستمرار. إن الرياح الناتجة من هذه العواصف تمتلك القوة اللازمة لتشتيت المباني والبيوت والسقوف والأشجار وأعمدة الكهرباء والالقاء بها إلى مسافات بعيدة. والأعاصير القوية تستطيع إثارة البحار وتهيجها بصورة مفاجئة، وتكون أمواجاً بحرية عملاقة، وتضرب هذه الأمواج العاتية المتولدة من الأعاصير المدن الساحلية وهو ما يؤدي إلى غمر الأراضي الساحلية بالكامل بالماء. وإضافة إلى هذا فإن الأمطـــار المصاحبة لهذه الأعاصير تعمل على زيادة منسوب المياه في الأنهار.

فالرياح التي نحس بنفحاتها الرقيقة يمكن أن تتحول بقدرة الله تعالى إلى عواصف قوية تستطيع أن تقتلع بقوتها الأشجار وتدمر البشر والحيوانات والأحجار بل وحتى البيوت. فلو شاء الله تعالى لجعل هذه الحوادث الجوية مثل العواصف والأعاصير تهب بشكل أعنف وأشد مما هي عليه بشكل مستمر. بحيث أن الإنسان قبل أن يتلافى أضرار الإعصار الأول يلحق به إعصار آخر. وقد نبه القرآن الكريم إلى حقيقة أن الرياح هي تحت أمر الله تعالى بقوله:

﴿أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخسفَ بِكُمْ الأرض فإذا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (سورة الملك 16 – 18)

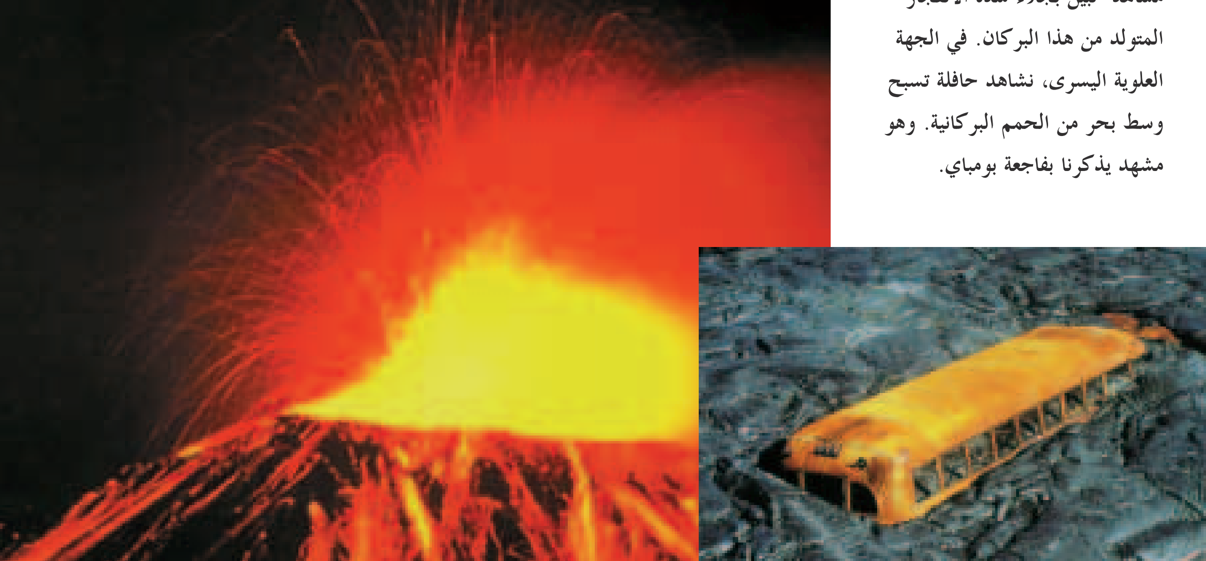
فالله تعالى يظـــهر حمايته للإنسان في كل مصيبة تلحق به فهو يرسل بين الحين والآخر هذه العواصف والأعاصير ينذره ويوقظـــه من غفلته، فهو يتعهده بهذه الوسائل من حين لآخر حتى يعرفه بعجزه وضعفه أمام قوة وعظمة الله تعالى، وأنه سوف يأتي اليوم الذي يحاسب فيه أمام رب العالمين.

البراكين

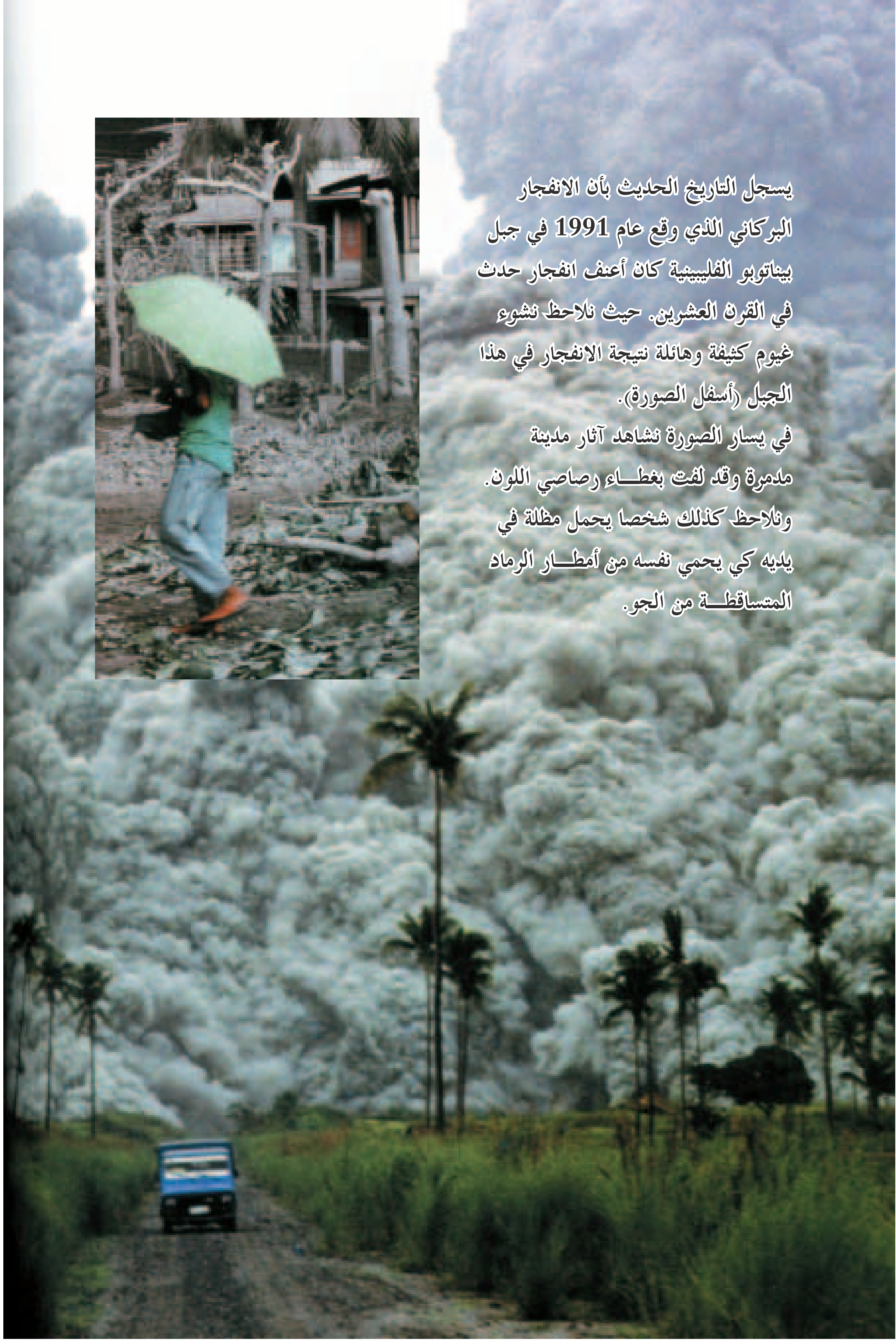
لقد استعرضنا كيف أن حركة القشور الأرضية تصاحبها حركات أرضية تدعى بالزلازل، فإن هناك كوارث طبيعية لا تقل خطورة عنها ألا وهي الانفجارات المتولدة في الجبال وتدعى البراكين.

تنتشر في الكرة الأرضية ما يقرب من 1500 بركان، منها 550 بركاناً على سطـــح الأرض[4] والباقي في أعماق البحار، ومن السهولة لأي واحد من هذه البراكين أن يثور في أية لحظـــة وفي فترة قصيرة يمكنها أن تؤثر على ما بجوارها من مناطق.

عندما تثور تلك الجبال البركانية لن تستطيع أي تكنولوجيا مهما كانت متقدمة أن تكون حائلاً تمنع حدوثها. فإذا نظرنا إلى التاريخ نرى آثاراً تدل على وقوع حوادث بركانية كبيرة. فقد محيت مدن كانت موجودة من قبل من على خارطـــة الوجود، كذلك اندثرت نتيجة لمثل هذه الكوارث مجتمعات بشرية بكاملها. فقد دمرت مزارع وتحولت إلى رماد، وغطت السماء بغيوم من الغبار، وقد أزال أحد هذه البراكين مدينة بومبي الإيطـــالية الكبيرة. وهذا الانفجار البركاني لم يعط الفرصة لأهالي هذه المدينة للفرار. وقد كانوا يعيشون حياة ملؤها الفجور والانحراف عن



مشاهد تبين بجلاء شدة الانفجار المتولد من هذا البركان. في الجهة العلوية اليسرى، نشاهد حافلة تسبح وسط بحر من الحمم البركانية. وهو مشهد يذكرنا بفاجعة بومباي.



يسجل التاريخ الحديث بأن الانفجار البركاني الذي وقع عام 1991 في جبل بيناتوبو الفليبينية كان أعنف انفجار حدث في القرن العشرين. حيث نلاحظ نشوء غيوم كثيفة وهائلة نتيجة الانفجار في هذا الجبل (أسفل الصورة).

في يسار الصورة نشاهد آثار مدينة مدمرة وقد لفت بغطـاء رصاصي اللون. ونلاحظ كذلك شخصا يحمل مظلة في يديه كي يحمي نفسه من أمطـار الرماد المتساقطـة من الجو.

الخلق القويم، وهو لا شك يمثل درساً يجب التوقف عنده.

ويمكن أن تثور هذه الجبال البركانية في يومنا هذا وبشكل مفاجئ وأن تسبب خسائر فادحة، ويمكن أن يشمل نطـــاق تأثيرها مسافات بعيدة.

وبالإضافة إلى التأثير المدمر للحمم البركانية فإن مزيجاً من الغازات والرماد تشكل رياحاً تملك تأثيراً فعالاً لأنها تحرق وتبتلع أي شيء تصادفه. وتصل سرعة الرياح في بعض الأحيان إلى 160 كم/ساعة. وبالإضافة إلى تأثيرها الحارق، فإن مسافة الرؤية أثناء هبوبها تكاد تنعدم. فأندونيسيا يوجد فيها 200 بركان نشيط، وقد تعرض أهالي مدينة كاراكاتو سنة 1883 إلى غازات منبعثة من جبالها البركانية ودُمرت أكثر من 160 قرية، وأختنق نتيجة هذه الغازات البركانية العملاقة حوالي 36000 شخص، وقد تساقط غبار هذه الانفجارات بعد 10 أيام على مسافة حوالي 3000 ميل[6].

ومن الخصائص الأخرى لهذه البراكين أنها تبدأ نشاطـــها في زمن غير متوقع، ومثال على ذلك ما حصل مع بركان جبل نشادر دل ريوز والذي كان خامداً منذ 150 عاماً حتى انفجر عام 1985، فعلى الرغم من كون الانفجار كان صغيراً فقد تسبب في مقتل المئات من الأشخاص. فقد كان انفجار جبل سانت هيلييز يمثل 3 % فقط من شدته الأصلية. ونعود إلى الانفجار البركاني في جبل نفادو دل ريوز، فقد أدت الحرارة المنبعثة نتيجة هذا الانفجار إلى إذابة كتل الجليد حول أطراف الجبل وأدى إلى تكون سيول من الطين والماء محت مدينة آرمرو من الوجود. ويمكن اعتبار الكارثة التي نجمت عن انفجار جبل بيل والذي وقع في جزيرة كاريب عام 1902 وخلف 30000 قتيل من أكبر الحوادث البركانية التي حدثت إلى حد الأن، حيث دفن من مجموع 25000 شخص الذين كانوا يتهيئون للنوم 23000 شخص تحت الطين الناتج من هذا الانفجار البركاني ونجا 2000 شخص فقط[7]. ومن خلال استعراضنا لهذه الحوادث، يريد الله تعالى أن يري البشر كيف أن الموت سهل وقريب من الإنسان، ويريد أن يدعوهم لكي يتفكروا لأي غاية وجدوا في هذه الحياة.

إن الواجب الذي يقع على عاتق الإنسان الذي يشاهد القدرة اللامتناهية لله تعالى هو أن لا ينسى أن حياته الأبدية في الآخرة وهو يعيش حياته الدنيوية والتي يتراوح معدلها ما بين 50 أو 60 عاماً وأن لا ينخدع فيعتبرها مدة طويلة، ويجب أن لا ينسى قطـــعاً بأنه سيموت في يوم ما، وأنه سيحاسب على ما عمله طوال حياته الدنيوية أمام رب العالمين.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾
(سورة إبراهيم 48)

أمواج تسونامي

وهي كلمة يابانية تحمل معنى أمواج الموانئ، وهذه الأمواج العملاقة تنشأُ في الغالب في البحار بعد حدوث الهزات الأرضية, والمثير هنا أن الدمار الذي تخلفه مثل هذه الأمواج العملاقة يعادل دمار القنبلة الذرية ! !

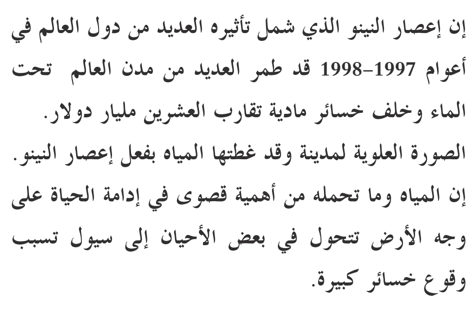
السيول

لاشك أن تعرض الكثير من المناطق على وجه الأرض لمثل هذا التهديد الكبير يحمل في طياته حقيقة مهمة هي أن الله تعالى قادر على استرجاع جميع ما وهبه الله تعالى للناس من نعيم وسلطان خلال ثوانٍ معدودات بإرساله العذاب لهم من كل جهة. وهذا يمثل برهاناً ساطعاً على أن الإنسانَ الذي تتربص به الكوارث في أي بقعة من بقاع الأرض لن يكون بأمان إلا بمشيئة الله تعالى، فهو سبحانه قادر على إرسال عذابه من تحت الأرض ومن فوق الأرض وفي اليابسة، في البحر وفي أي مكان, وقد حذر الله تعالى البشر بأن لا يتغافلوا عن هذه الحقيقة بقوله تعالى :

﴿أَفَأَمِنَ أهل الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ أو أَمِنَ أهل الْقُرَى أَنْ



تسونامي, وهي الأمواج البحرية العملاقة التي تستطيع في أي لحظة أن تدفن تحت أمواجها الكثير من المدن الساحلية.

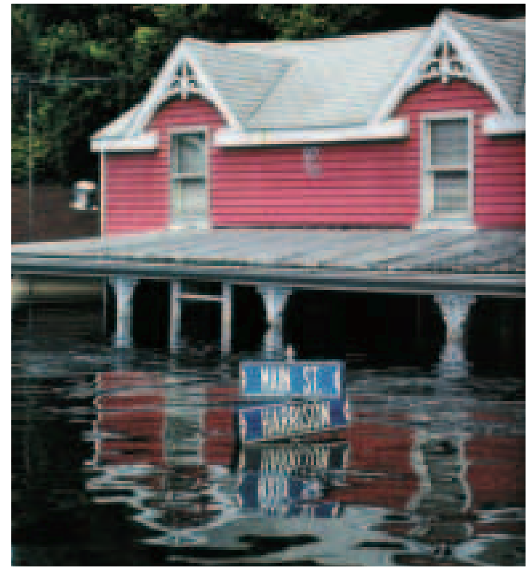


إن إعصار النينو الذي شمل تأثيره العديد من دول العالم في أعوام 1997–1998 قد طمر العديد من مدن العالم تحت الماء وخلف خسائر مادية تقارب العشرين مليار دولار.

الصورة العلوية لمدينة وقد غطتها المياه بفعل إعصار النينو.

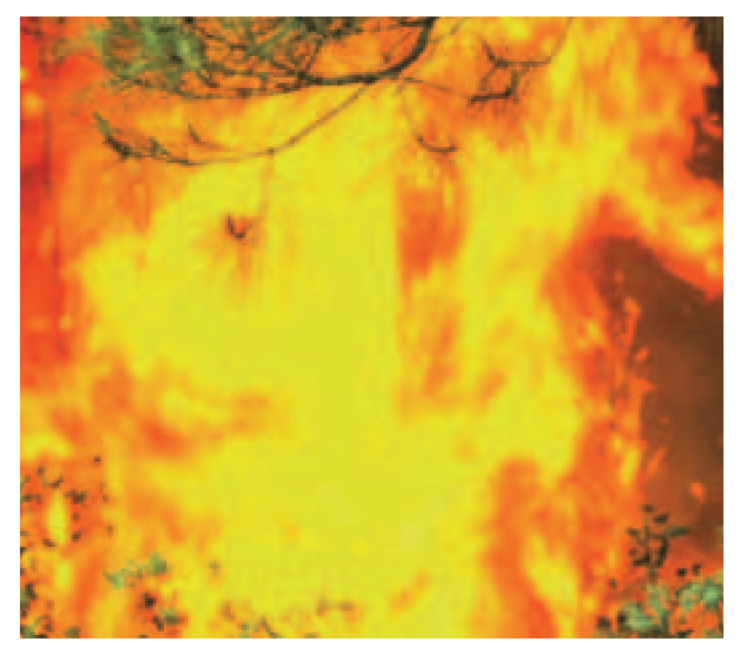
إن المياه وما تحمله من أهمية قصوى في إدامة الحياة على وجه الأرض تتحول في بعض الأحيان إلى سيول تسبب وقوع خسائر كبيرة.

الصورة الجانبية لبيت وقد طمرته المياه بفعل الفيضان.





في ولاية فلوريدا سببت قطـع البرَد المتساقطـة بسرعة 100 كم/ساعة في تحويل زجاج السيارات إلى ما يشبه الغربال!، وبنفس الشكل فإن البرد المتساقط قد أحدث ثقوبا في أسطـح المنازل.



يمكن أن تسبب الحرائق المندلعة إما نتيجة لظروف طبيعية أو نتيجة لإهمال الإنسان أضرارا مادية جسيمة.

لقد تسبب الحريق الذي شب في مدينة كاليفورنيا عام 1993 في تلف 14000 هكتار زراعي وفي إحراق 441 منزلا. والصورة أعلاه توضح حال المدينة قبل الحريق وفي أسفل الصورة نشاهد حالها بعد الحريق ومدى الخسائر التي تعرضت لها.

يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُون أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (سورة الأعراف 97 – 99)

وهكذا, فيمكن أن يتحول الماء الذي أرسله الله تعالى نعمة للناس إلى عذاب وبلاءٍ شديدين. ومن الغريب أن يرى الإنسان هذه الكوارث ويظن أنه بمنأى عنها.

عبر من التاريخ

إن التاريخ البشري مليء بالكثير من الحوادث التي يمكن اعتبارها عبراً لمن كان يثق بما يملكه من قوة وتقدم علمي متناسيا قدرة الله تعالى وعظمته. وكل واحدة من هذه الحوادث تحمل في طياتها أهمية كبرى بتذكير الإنسان أنه لا الغنى ولا القوة ولا العلم ولا المعرفة، وباختصار كل شيء يمكن أن يقف ضد إرادة وتقدير الله تعالى وقوته وعظمته التي هي فوق كل شيء في هذا الكون.

ويمكن ذكر عدد لا يحصى من هذه الحوادث ولكن يمكن الإشارة إلى إحدى أهم هذه الحوادث والتي وقعت لسفينة تحمل اسم تايتانك قبل قرابة 86 عاما في المحيط الاطلسي والتي تعتبر من أكبر الكوارث البحرية إلى حد الآن.

فقد كانت تايتانك هذه السفينة العملاقة المدهشة والتي صممت لنقل المسافرين عبر المحيطات هي ثمرة جهود 15 ألف عامل، حيث كانت تعتبر في ذلك التاريخ من أعظم وأكبر سفن نقل المسافرين، إذ صممت لكي تكون بطول 275 مترا وارتفاع 55 مترا.

فقد صدقوا أنفسهم أنهم ببناء هذه السفينة وفق أحدث تكنلوجيا ذلك العصر سيكونون تماما بمأمن من الغرق مهما كانت الظروف. ولكن كانت هناك حقيقة مهمة قد غابت عن بال هؤلاء الناس وهي أنه ليس هناك أي أحد يمكن أن يقف في وجه ما قدره الله تعالى.

وهكذا فإن ثقباً صغيراً قد تسبب على نحو لم يكن في الحسبان في إغراق هذه السفينة وفي وقت قصير، حيث لم تستطــع كل هذه التكنولوجيا أن تنقذها من مصيرها المحتوم. وقد ذكر الذين نجوا من هذه الحادثة أنه بعدما تأكد للجميع بأن السفينة على وشك الغرق، توجه الركاب إلى مقدمة السفينة وأخذوا يتضرعون بالدعاء.

وقد ذكر القرآن في كثير من آياته كيف أن الإنسان إذا وقع في مصيبة توجه بالدعاء إلى الله تعالى لكي ينقذه، ولكن حال زوال هذه المصيبة عنه ينسى ما قام به

من دعاء ورجاء لله تعالى :

﴿ **رَبُّكُمْ الَّذي يُزْجي لَكُمْ الْفُلْكَ في الْبَحْرِ لتَبْتَغُوا منْ فَضْله إنَّهُ كَانَ بكُمْ رَحيمًا وَ إذا مَسَّكُمْ الضُّرُّ في الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إلَّا إيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إلى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإنسان كَفُورًا أَفَأَمنتُمْ أَنْ يَخْسفَ بكُمْ جَانبَ الْبَرِّ أو يُرْسلَ عَلَيْكُمْ حَاصبًا ثُمَّ لَا تَجدُوا لَكُمْ وَكيلًا أَمْ أَمنتُمْ أَنْ يُعيدَكُمْ فيه تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسلَ عَلَيْكُمْ قَاصفًا منْ الرِّيح فَيُغْرقَكُمْ بمَا كَفَرْتُمْ أَمْ أَمنتُمْ أَنْ يُعيدَكُمْ فيه تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسلَ عَلَيْكُمْ قَاصفًا منْ الرِّيح فَيُغْرقَكُمْ بمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا به تَبيعًا** ﴾ (سورة الإسراء 66 – 69)

فيجب على الإنسان أن لاينسى ربه سواء تعرض لمثل هذه الحوادث أو لم يتعرض لها. فكل شيء في هذه الدنيا زائل، وإن القوة جميعا هي لله تعالى، لأن الإنسان عندما يواجه مثل هذه الحوادث والمصائب لا يملك فرصة لتلافي أخطائه السابقة لأن الله تعالى قد يفاجئه بالموت في أية لحظـــة:

﴿ **أَوَلَمْ يَنظُرُوا في مَلَكُوت السَّمَاوَات والأرض وَمَا خَلَقَ اللَّهُ منْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبأَيِّ حَديثٍ بَعْدَهُ يُؤْمنُونَ** ﴾ (سورة الأعراف 185)

رحمة من الله تعالى

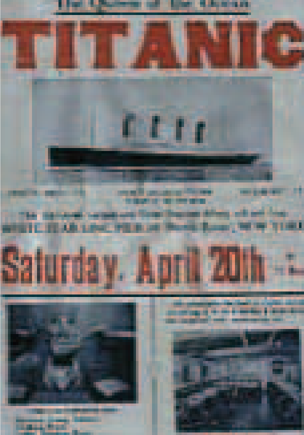
﴿ **فَكُلًّا أخذ نَا بذَنْبه فَمنْهُمْ مَنْ أرسلنَا عَلَيْه حَاصبًا وَمنْهُمْ مَنْ أخذتْهُ الصَّيْحَةُ وَمنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا به الأَرض وَمنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ ليَظْلمَهُمْ وَلَكنْ كَانُوا أنفسهم يَظْلمُونَ** ﴾ (سورة العنكبوت 40)

كان هدفنا إلى حد الآن بيان حقيقة مهمة حول الغاية من خلق الإنسان. فكل شيء له علاقة وارتباط بالله سبحانه وتعالى.

وكما تشير الآية الكريمة الآتية فإنه لا توجد أية قوة تستطيع أن تتحدى ما قدره الله تعالى وما قضى به:

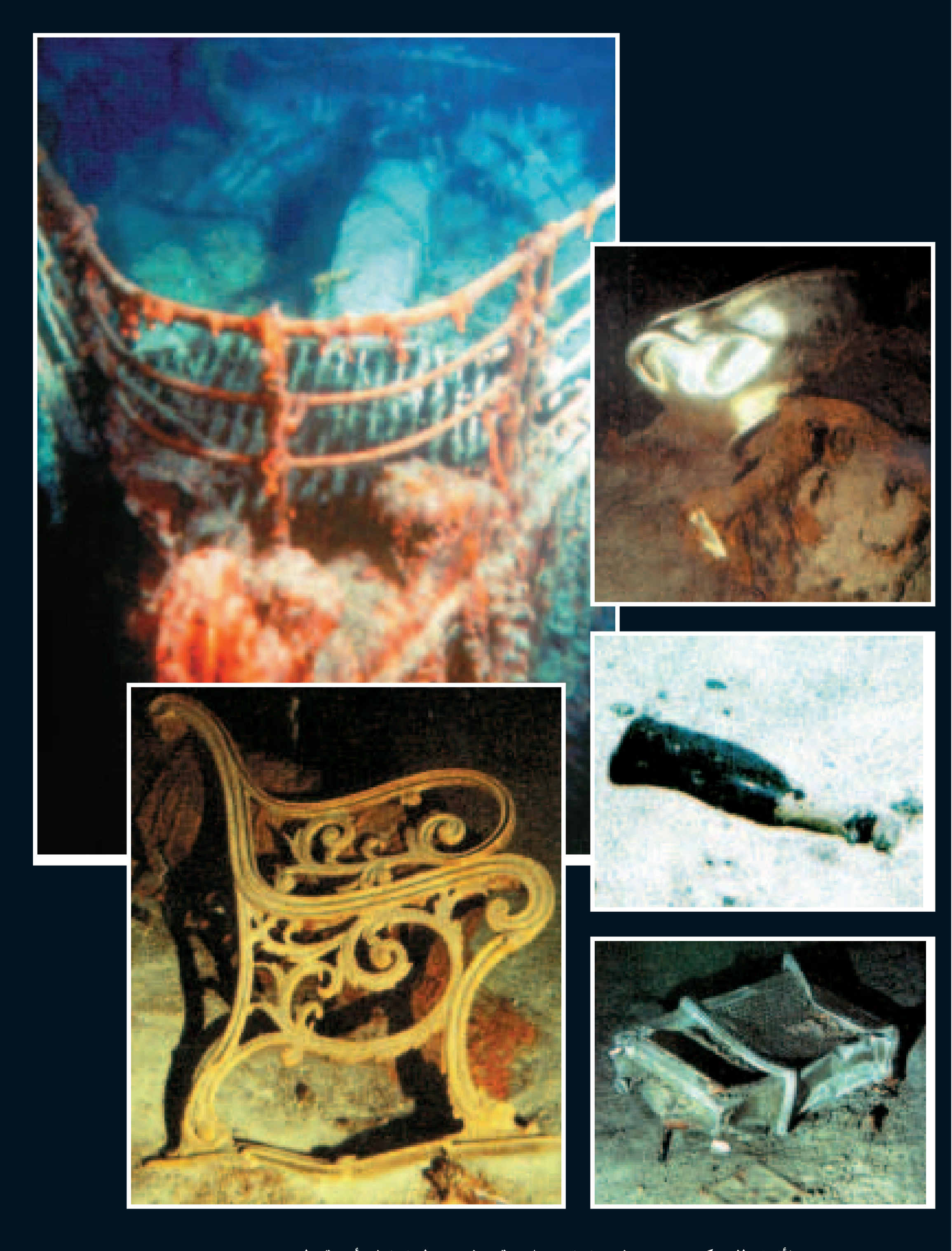
﴿ **وَقَالَ الَّذي اشْتَرَاهُ منْ مصْرَ لامْرَأَته أَكْرمي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أو نَتَّخذَهُ وَلَدًا وَكَذَلكَ مَكَّنَّا ليُوسُفَ في الأَرض وَلنُعَلِّمَهُ منْ تَأْويل الأَحَاديث وَاللَّهُ غَالبٌ عَلَى أَمْره وَلَكنَّ أكثر النَّاس لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ (سورة يوسف 21)




The Queen of the Ocean
TITANIC
Saturday, April 20th
TICKETS FOR SALE HER







جزء من الأثاث الذي كان موجودا في سفينة تايتانك وقد دفن مع السفينة في أعماق البحر.
أما الأشخاص الذين استعملوا هذا الأثاث فقد طواهم النسيان.

ولكن، وكما بينت الآية الكريمة فإن أغلب البشر لايعرفون هذه الحقيقة، فهم يعيشون في هذه الدنيا ظناً منهم أنه سوف لن تصيبهم أية مصيبة حتى أنه لايدور في خلدهم أنهم قد يواجهون في يوم ما إحدى هذه الكوارث التي تحيط بهم، ولكنهم يرون أن تلك الحوادث بعيدة عنهم كل البعد إذ أنها لا تمسهم بشكل مباشر. فهم عند سماعهم لإحدى هذه الكوارث يتأثرون لفترة قصيرة بهذه الحادثة ثم ينسونها بسرعة.

نحن نعلم من تذكير الله تعالى لنا أنه من الخطـــإ الاعتقاد بأن الأيام الجديدة القادمة ستكون على نفس منوال الأيام السابقة. وبالإضافة إلى ما استعرضناه سابقا، فعلى الأشخاص الذين عاشوا تجارب كارثية، أن لا يغيب عن بالهم بأن الأيام التي يعيشونها الآن لن تكون مختلفة عن باقي الأيام التي عاشوها، ولكن الفرق الوحيد هنا أن الله تعالى قد جعلهم يواجهون حادثة فقدوا من خلالها وفي لحظـــة واحدة جميع ما كانوا يملكونه.

هناك عدد كبير من الناس يعيشون في غفلة عن هذه الحقيقة فهم يتناسون كون الدنيا دار مؤقتة للبقاء، ويغفلون كذلك عن حقيقة كونهم سوف يحاسبون أمام الله تعالى. فهم بضلالهم هذا ينشغلون في حياتهم الدنيا بأشياء لن تجلب لهم أي نفع بدلا من العيش من أجل كسب رضى الله تعالى.

ومن هذه الناحية فإن الصعاب التي تحل بالإنسان تمثل رحمة من الله تعالى للذين يعيشونها وكذلك الذين يشهدون هذه الصعاب. وإن الله تعالى يحث البشر من أجل السعي في الطريق الذي رسمه الله تعالى لهم، وهو يدعوهم لكي يدركوا بأن هذه الدنيا الزائلة عبارة عن خدعة كبيرة.

ولهذا السبب فإن الله تعالى في الحقيقة يقدم الفرصة للبشر من خلال ما يتعرضون له من مصائب ومحن، وهذه المصائب تمنحهم الفرصة كي يتوبوا ويعدلوا من تصرفاتهم.

وقد بين الله تعالى من خلال قرآنه الكريم ما يجب أخذه من دروس وعبر من كل هذه الحوادث بقوله تعالى:

﴿أو لَا يَرَوْنَ أنهم يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أو مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (سورة التوبة 126)

الحضارات البائدة

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَو تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ (سورة مريم 98)

لقد اختار الله تعالى الدنيا مكانا لكي يختبر فيه الإنسان وأسكنه إياها. وطوال التاريخ أرسل الله تعالى كتب الحق بواسطة رسله لكي يدعوا البشر إلى طريق الحق ولكي ينذرهم ويخيفهم فيما إذا انحرفوا عن هذا الطريق. واليوم يوجد لدينا كتاب الحق يرشدنا إلى الهداية، وقد أرسله الله تعالى للمؤمنين، وهذا الكتاب هو القرآن الكريم وهو يفرق بين الخطإ والصواب والحلال والحرام ويخبرنا عما أصاب الأقوام الغابرة نتيجة لكفرهم وضلالهم. وينذرنا بأننا سوف نلقى المصير نفسه إذا سلكنا طريق الضلال.

وقد ذكر الله تعالى في قرآنه الكريم أنه أرشد جميع الأقوام عبر التاريخ إلى الطريق الصحيح مذكراً إياهم بواسطة رسله بأن دار الآخرة هي دار البقاء الحقيقي، وأن هذه الدنيا زائلة لا محالة. ولكن، ورغم ذلك نرى أن القرآن يخبرنا بأن أكثرية البشر ضلوا في عنادهم وعدم استجابتهم لنداء هؤلاء الرسل، ونتيجة لهذا فإن الله تعالى قد سلط عليهم عذاباً لم يكن في حسبانهم ومحى بعضهم تماما من خارطة الوجود كما ذكر في القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ

وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ (سورة الفرقان 38 - 40)

إن الدروس والعبر التي يجب أن نستقيها من خلال مراجعة ما حل بمصير الأقوام الغابرة قد عبر عنها القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿أَلَمْ يرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهم فِي الأرض مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأرسلنا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأنهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ (سورة الأنعام 6)

وهناك آية أخرى في هذا الموضوع تحذر الناس وتخوفهم وتعظهم:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أشد مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيص إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أو أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيد﴾ (سورة ق 36 – 37)

وكما رأينا في الآيات السابقة فمن أهم أسباب نقل أخبار ما عاشته المجتمعات الغابرة هو تحذير الإنسان اليوم حتى لا يقع فيما وقعت فيه الأمم السابقة من أخطـــاء.

من الخطـــإ النظر إلى المصائب وإلى الكوارث وآثارها التي حلت بالأمم السابقة من الزاوية التاريخية فقط:

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَـــةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة البقرة 66)

وهذه الحوادث التي كما وردت في الآية الكريمة بمثابة عبرة وتذكرة للآخرين. ولكن من المفيد أيضاً القول هنا : إن الله تعالى بدلاً من أن يرسل العذاب فورا على الذين يظلون على كفرهم وضلالهم، فإنه يرسل المنذرين لعل تلك الأقوام ترجع عن غيها وفسادها.

بالإضافة إلى هذا أشار القرآن الكريم إلى حقيقة الذين يلاقون الصعاب في الدنيا إذ هي ليست سوى تذكرة إلى ما سيلاقونه من عذاب أليم في الآخرة بقوله تعالى:

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (السجدة 21)

ولكن الهلاك سيصيب تلك الأقوام والذين لم ينتهوا من خلال ماجاءهم من نذير ووعيد، والذين استمروا وازدادوا في طــغيانهم. ولقد عاقب الله تعالى الأقوام التي نشرت الفساد بأن أزالهم وجاء بأقوام آخرين لأنهم قضوا كامل وقتهم في السعي خلف أهداف فارغة بعدما منحهم الله تعالى الغنى العيش في رغد، فلم يكونوا يدركون أن كل ما لديهم من أملاك سيصيبها التلف والبلى، ولم يكونوا يعقلون بأن الذي يملكونه بين أيديهم سوف يزيل يوما وينتهي، فهم عاشوا يومهم من دون التفكير في غدهم، وعاشوا دنياهم دون الاستعداد لآخرتهم. فقد ظنوا أن حياتهم الدنيوية دائمة لا تنتهي على الرغم من كون حياتهم الأبدية التي تبدأ بعد وفاتهم قريبة جداً منهم. وهذه الخديعة لم تمنحهم أي فائدة حيث أصبحت هذه الكوارث التي حلت بهم عبرا لاتنسى على الرغم من مرور آلاف السنين حيث انتقلت من جيل إلى آخر.

قوم ثمود

قوم ثمود هو أحد الأقوام التي دمرها الله تعالى لكفرهم وطــغيانهم والصد عن سبيل الله.

وكما أشار القرآن الكريم فقد كان أهل ثمود وقومه أغنياء وأقوياء، وكانوا يشتهرون كثيراً بأعمال الحرف الفنية وقد بينت الآيات الكريمة مهارة قوم ثمود حيث قال الله تعالى:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأرض تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الأرض مُفْسِدِينَ﴾ (الأعراف 74)

وآية أخرى تبين حال معيشة قوم ثمود :

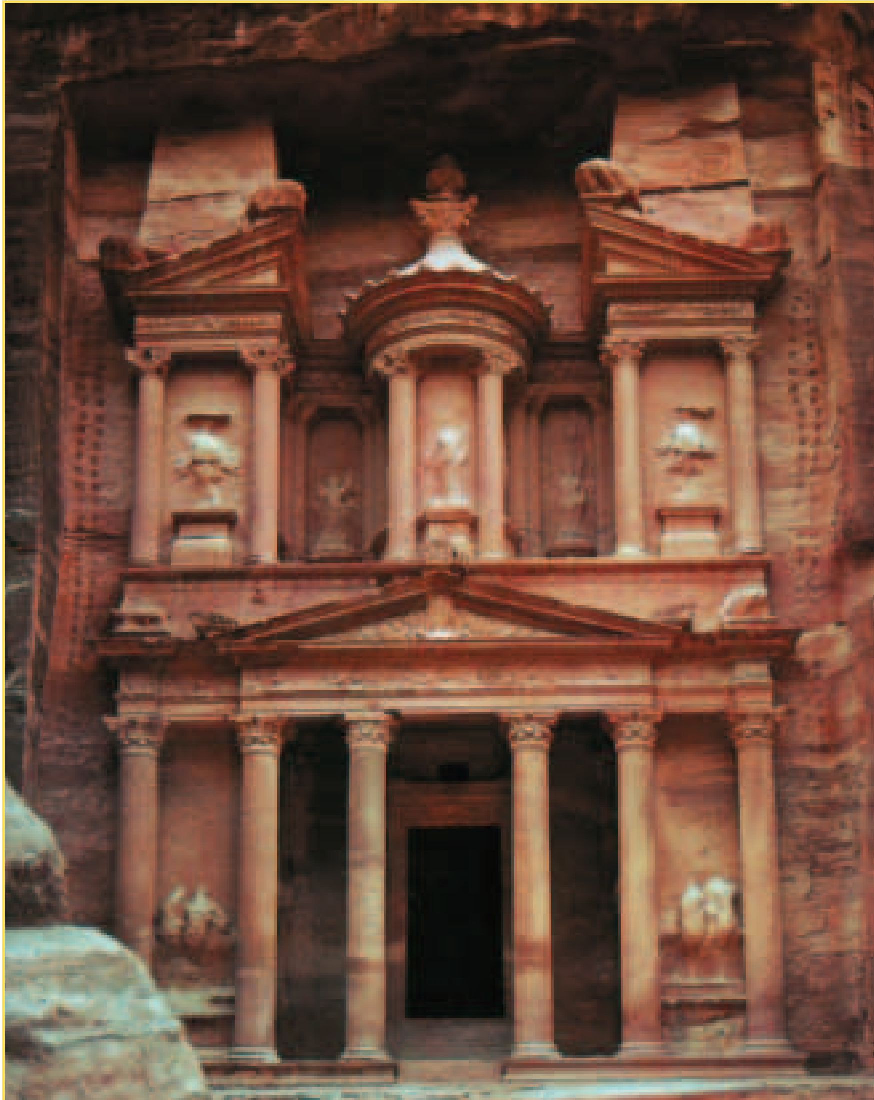
﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمنين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾

(سورة الشعراء 146 – 149)

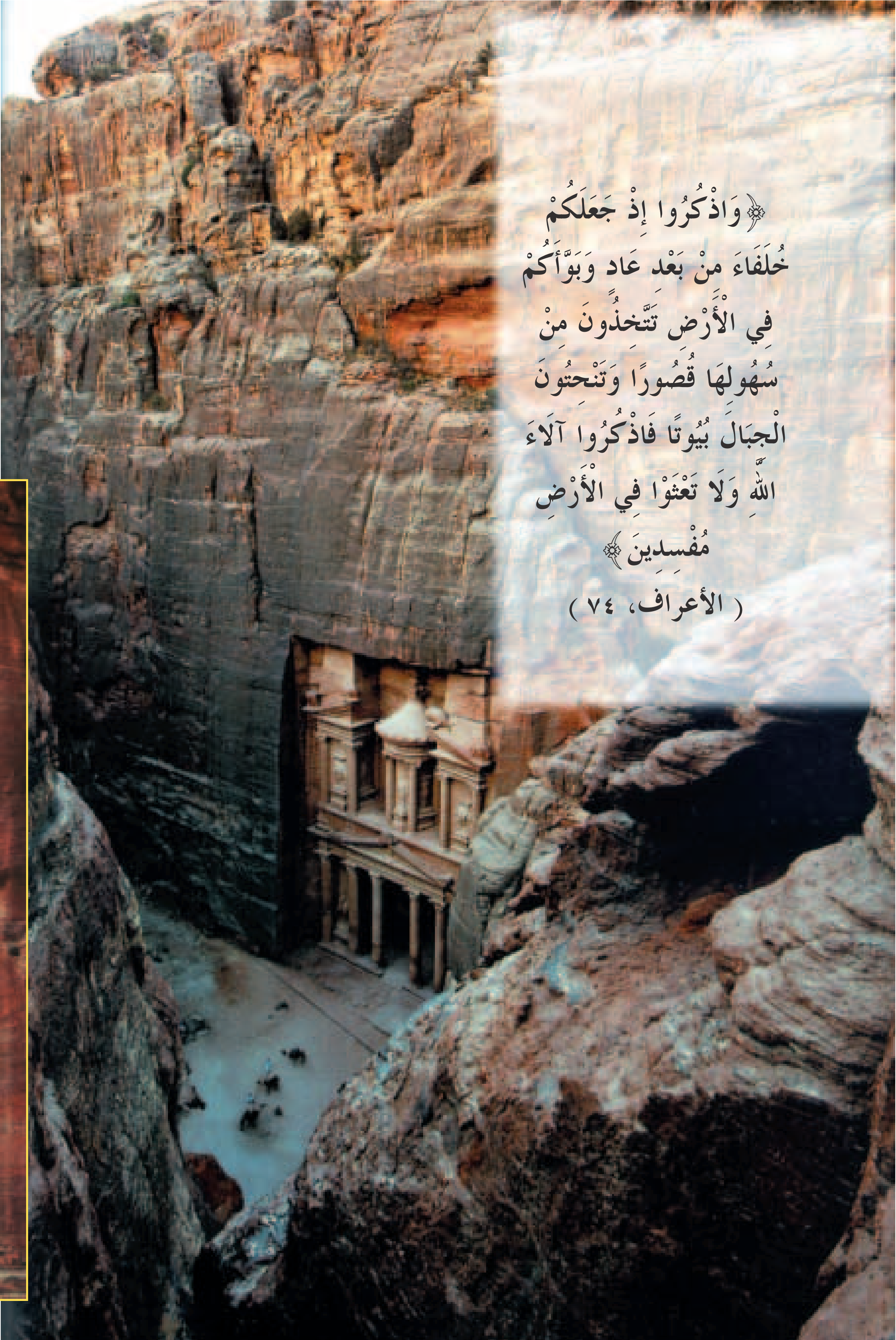
وقد بعث الله تعالى سيدنا صالح عليه السلام رسولا لكي ينذر قوم ثمود ويخيفهم من عذاب الله الشديد حيث ملكهم الغرور نتيجة عيشهم حياة مرفهة ومريحة.

وكان سيدنا صالح عليه السلام شخصا معروفا بين قومه، وقد ذهلوا حين دعاهم

لكي يبتعدوا عما هم فيه من ضلال وانحراف. فالأكثرية من قومه لم يقبلوا دعوته لهم إلا قلة من قومه أذعنوا لما دعاهم إليه، ولقد اتخذ الأغنياء وأصحاب النفوذ والقوة عند قوم صالح عليه السلام موقفا عدائياً إزاء دعوته حيث كان هؤلاء الأشخاص هم الأكثر عنادا وإنكاراً لسيدنا صالح عليه السلام ولدعوته. وقد عمد هؤلاء المعاندون والمنكرون إلى الضغط على الذين أذعنوا لرسالة سيدنا صالح عليه السلام من خلال التضييق عليهم وعرقلة مسعاهم. وحينما كان سيدنا صالح عليه السلام يدعوهم لعبادة الله تعالى كانوا يظـــهرون غضبهم الشديد. وفي الحقيقة فإن هذا الصد والغضب لم يكن شيئا خاصا بقوم ثمود بل هم وقعوا في الخطـــإ نفسه الذي وقع فيه قبلهم كل من قوم نوح وقوم عاد.



أنشأ النبطيون وهم إحدى الأقوام العربية في وادي الروم في الأردن مملكتهم. ولقد تفنن هؤلاء القوم في أعمال النحت على الحجر حيث تظـــهر الصورة مدى براعتهم في أعمال النحت التي قاموا بها في وادي البتراء. ولقد تناول القرآن الكريم كيف أن قوم ثمود هم أيضاً قد تفننوا في النحت وعمل الأشكال الفنية على الأحجار. أما اليوم فالمتبقي من هؤلاء القوم هو مجرد آثار تذكرنا بفنون تلك الأيام. وفي هذه الصورة نرى أمثلة للأعمال الفنية التي تم أجراؤها على الأحجار في وادي البتراء.



﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ
خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ
فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ
سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ
الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ
اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ﴾
(الأعراف، ٧٤)

والقرآن الكريم أشار إلى الأقوام الثلاثة هذه بقوله تعالى:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (سورة إبراهيم 9)

وقد كانوا قوما جادين في الوقوف ضد صالح عليه السلام بل وضعوا الخطط لقتله. وقد حذرهم نبي الله صالح عليه السلام من خلال ما ورد في الآيات التالية:

﴿أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ (سورة الشعراء الآية 146- 149)

حيث خاطب أشراف ثمود الذين كانوا يظنون بأن هذا النعيم الذي هم فيه سوف لن يزول أبدا، بعدما خدعوا بالمظـــاهر الدنيوية الكذابة وزينتها الزائلة وقد ازداد طـــغيان قوم ثمود وظلمهم لأنهم كانوا غير مؤمنين بأن هناك عذابا شديدا سيلحق بهم. وقد وصل الأمر بمكابرة قوم ثمود وضلالهم بأن تحدوا سيدنا صالح عليه السلام وقالوا له:

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (سورة الأعراف 77)

ومقابل هذا أخبرهم نبي الله صالح عليه السلام بعدما أوصى الله تعالى له بأن الهلاك واقع بهم لامحالة خلال ثلاثة أيام:

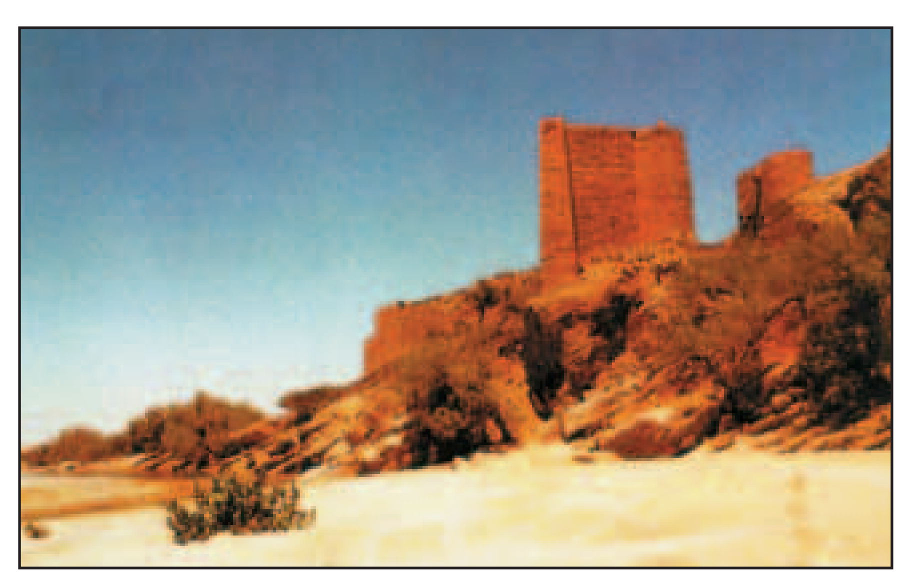
﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ (سورة هود 65)

وهكذا هلك قوم ثمود وتحقق إنذار سيدنا صالح عليه السلام:

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾

(سورة هود 67 – 68)

ومن هنا يتبين أنه ما من قوم عاشوا على وجه الأرض عاندوا وتكبروا إلا أصابهم الله تعالى بالعذاب غير آبه بما كانوا يملكونه من عظمة وثروة.



الأنقاض التي نراها تعود إلى سد مأرب حيث كانت تعتبر من أهم الأعمال التي قام بها السبئيون. ولقد غمرت مياه سيل العرم المزارع قرب السد بعدما هدمت السيول سد مأرب كما ذكر ذلك القرآن الكريم.

واليوم نرى بأنه ليس هناك أي أثر لقوم ثمود وما كانوا يملكونه من مال وقوة، والذين تمادوا في طـــغيانهم وكفرهم حتى أنهم كانوا مستعدين لقتل رسول الله صالح عليه السلام. لقد كان مصير هؤلاء البشر الذين لم تعرف حتى أسماؤهم مثل مصير بقية الكفار والمعاندين، نار جهنم خالدين فيها. وهذه النهاية هي عبرة ينبغي على البشر أن يتدبروها ويفكروا فيها.

أهل سبأ

تناول القرآن الكريم أهل سبأ:

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ (سورة سبأ 15 – 17)

فوفقا لهذه الآية الكريمة فإن أهل سبأ كانوا يعيشون حياة مرفهة، حدائق وبساتين وافرة، وكل ما كان الله تعالى يطلبه من قومه هو أن يشكروه على هذه النعم التي أسبغها عليهم. ولكن هؤلاء كذبوا بذلك وحسبوا بأنهم يملكون القوة والقدرة الكبيرتين، واغتروا بما لديهم فكان العذاب هو مصيرهم الحتمي.

السومريون العظماء

عندما نبتعد عن شواطــئ دجلة والفرات في جنوب العراق تمتد أمامك قفار شبيهة بالصحراء تبدوا هنا وهناك تلال عديدة في هذه القفار الواسعة لأن بقايا وآثار مدن كبيرة توجد تحت التلال المغطـــاة بالرمال. وقد أنشئت قبل 45 قرنا، وكانت تنبض بالحياة محاطـــة بالقنوات والجداول والبساتين والحدائق الغناء. ولم يتبق من



قبر الملكة بوابي الذي يمكن اعتباره من أهم المقابر المكتشفة، فهو يضم 270 قطـــعة أثرية تحت الحماية.

هذه المدن الآن سوى الرمال التي تنثرها العواصف وتأوي إليها بنات آوى والعقبان، ويخيم عليها صمت الموت. بينما كان يعيش فيها في يوم ما مجتمع حقيقي وحي كمجتمعاتنا اليوم. وقد عاش أناس ذلك الزمان كما نعيش نحن في هذا العصر، وأسسوا وبنوا مدنا عظيمة ومدهشة. هذه الجمل تعود إلى عالم الآثار الشهير "Guy Rachet".

لقد كانت الجنازة التي تم إعدادها لملكة ذلك العهد، وتدعى بوابي حقا ملفتة للنظر، فقد تم نقل معلومات من مصادر مختلفة فيما يخص هذه الجنازة. فقد تم تزيين جسم الملكة الميت بشكل مدهش لامثيل له و تم تزيين القسم العلوي من جسدها بغطـــاء وقلائد مصنوعة من الفضة والحجر الأزرق والعقيق الأحمر وعشرات الأنواع المختلفة من الأحجار الثمينة، بالإضافة إلى طبقة إضافية من أحجار اللؤلؤ الثمينة والعقيق الأبيض. بينما القسم الأسفل للجسد وحسب ما نقلت المصادر التاريخية فقد كان مغطـــى بغطـــاء وأهداب هذا الغطـــاء كانت تحوي على أحجار اللؤلؤة المحفورة، وكذلك نفس مجموعة الأحجار الثمينة التي كانت تغطـــي القسم العلوي من الجسد. وكذلك كانت هناك باروكة شعر ثقيلة تغطـــي رأس الملكة وفوقها تاج على شكل ورود وأوراق من الذهب الخالص. وتزين أذنيها بأقراط تحوي أحجارا ثمينة وكانت توضع قرب راس الملكة مجوهرات ثمينة لها خاصية اللمعان الشديدة عند سقوط الضوء عليها حسب ما نقلته لنا المصادر التاريخية[11].

ولكن رغم دخول الملكة قبرها مع كل هذه الكنوز، فإنها لم تمنعها من أن تتحول في النهاية إلى هيكل عظمي حالها حال كل البشر الذين دفنوا تحت التراب.

فقد دفنت تحت التراب حالها حال الفقير والضعيف، وقد تحول بدنها وأصبح طـــعاما تتغذى عليه الحشرات الأرضية والبكتيريا، وتعفن شيئا فشيئا وانتهى بها الأمر إلى أن تكون هيكلاً عظمياً.

إن هذا المشهد المثير يمثل عبرة لنا ذلك أنه مهما كانت درجة الغنى ومهما عاش الإنسان حياة مملؤها الأبهة والعظمة فإن كل ذلك سوف لن يوفر له أي فائدة .

حضارة كريت

هذه الحضارة التي اختفت فجأة كانت تمثل أولى أكبر الحضارات في القارة الأوروبية التي كانت مهدها مدينة كريت في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. فقد أنشأ

القادمون من آسيا واليونان الذين سكنوا فيها قبل 2000 سنة قبل الميلاد القصور الفخمة والعظيمة. ولكن أهم ما كان ما يلفت النظر عند هذا الشعب هو مفهوم الهوى المنحرف.

لذلك فقد كان الله تعالى يرسل لهم بين الحين والآخر هزات أرضية خفيفة الشدة كي ينذرهم وينبههم لكي يبتعدوا عن هذا الانحراف ولكي يتذكروا يوم القيامة. ولكن في النهاية حدثت كارثة كبيرة. فقد انفجر بركان في جزيرة ثيرا التي هي جزء من مجموعة جزر كيكلادس التي تقع في شمال جزيرة كريت، ونتيجة لهذا الانفجار الهائل حدثت هزة أرضية عنيفة[12] دمرت القصور العظيمة في جزيرة كريت. وقد غطت السحب البركانية الرمادية سماء المدينة وغرقت المدينة في ظـــلام دامس كما أن الرماد غطـــى أنقاض القصور المتهدمة. فقد حدث في البحر هيجان عظيم لم يشهد له مثيل من قبل ودفن ميناء كانوسوس تحت مياه البحر. لقد كان انهيار قصور كريت شيئاً يبعث على الرعب فقد غطت الأمواج البحرية العملاقة في وقت واحد جميع المدن الساحلية ودفنتها تحت المياه.

لم تكن حضارة كريت التي كانت في العديد من النواحي من أهم الحضارات في تلك الفترة تعتقد بأن نهايتها ستكون على هذه الشاكلة المرعبة، فهذه الكارثة المرعبة كانت السبب الرئيسي في هلاك أغلبية سكانها وتدمير قصورها العظيمة فمن ورائهم لم يبق هناك أناس يتباهون بغناهم، وكذلك لم يبق ما كانوا يحلمون به من حياة خالدة. وما تبقى هو مجرد أطـــلال حضارة اندثرت ومجرد أبنية متهدمة متناثرة هنا وهناك. ويشير القرآن الكريم إلى وجوب اتخاذ مصير مثل هذه الحضارات القديمة عبرة للإنسان المعاصر بقوله تعالى :

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ (سورة السجدة 26)

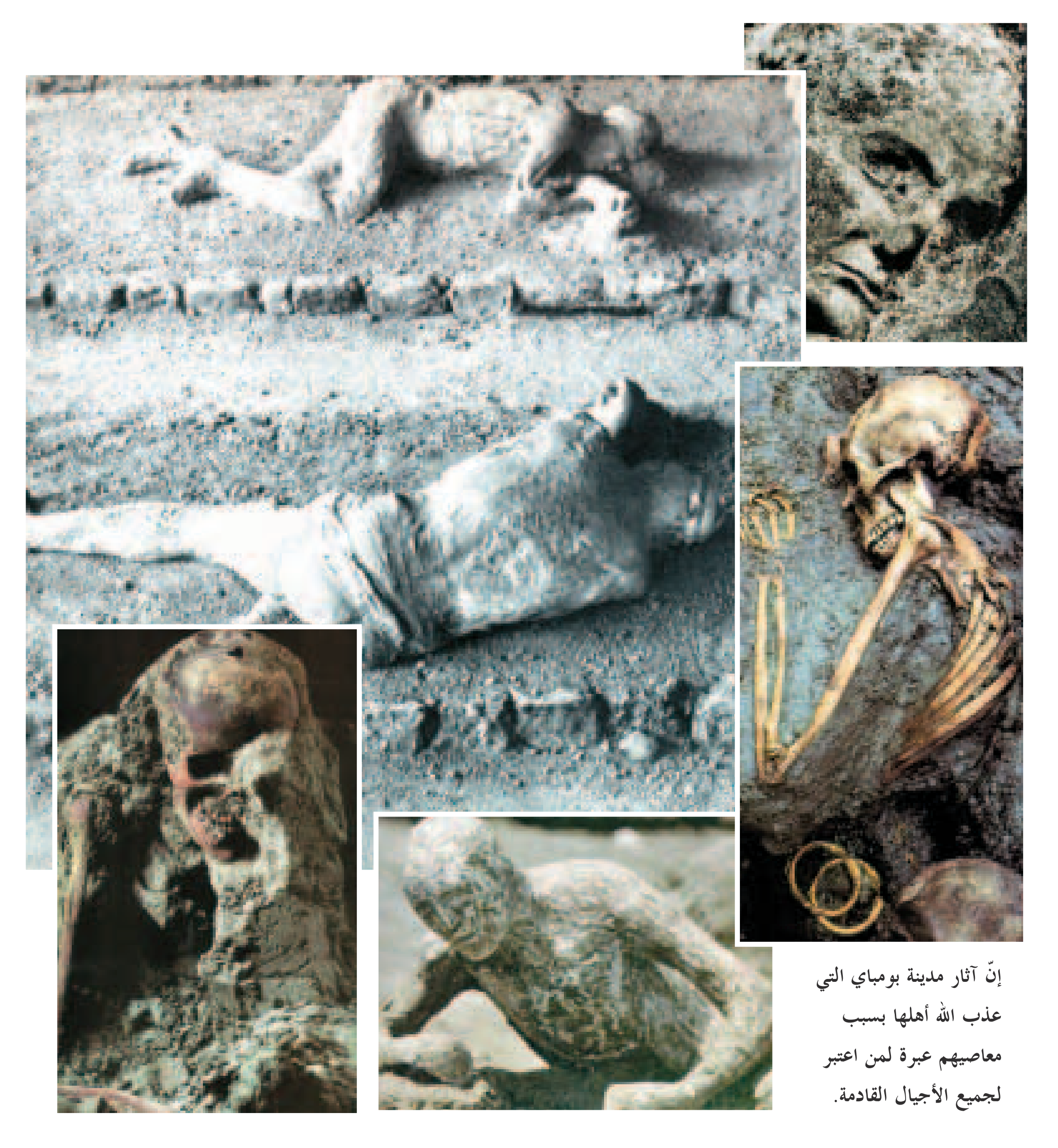
كارثة بومبي

حسب ما تورده المصادر التاريخية فقد كانت مدينة بومبي (تقع الآن في إيطاليا) قبل 2000 عام من أكثر المدن التي تتمتع بحياة رغيدة. وقد كانت المدن في العصور القديمة تعرف من خلال ما تشتهر به من ترف وبهجة لا تعرف الحدود، لذلك كانت مدينة بومبي إحدى هذه المدن. والزائر الآن لا يجد في هذه



لقد دمرت مدينة بومباي ذات العشرين ألف نسمة وقتل معظم سكانها مع جميع ما كانت تمتلكها من آثار فنية جميلة. ولقد دمر الزلزال هذه المدينة الجميلة وقضى على آثارها الجميلة.

المدينة سوى خرائب هنا وهناك حيث كانت في يوم ما محلا تنتشر فيه محلات بيع الخمور وبيوت الدعارة، وكانت هذه المدينة التي كان يقصدها الأغنياء من أهل روما ويفضلونها تقع في وسط تحدها من جهة غابات جبال فينوس والبحر من جهة أخرى. ولكن نتيجة لانفجار إحدى أهم براكينها في التاريخ أدت إلى طمس معالم هذه المدينة الجميلة، ويمكن اليوم رؤية جميع تفاصيل حياة أهل روما بعدما تحولوا



إنّ آثار مدينة بومباي التي عذب الله أهلها بسبب معاصيهم عبرة لمن اعتبر لجميع الأجيال القادمة.

إلى أحجار بفعل الحمم البركانية التي انبعثت نتيجة ذلك الانفجار الهائل.

لقد وقعت الكارثة في صباح 24 آب/أغسطس من سنة 79 ميلادية حيث جاء أغنياء الرومان لقضاء الصيف في القصور الفخمة المبنية على سفوح جبل فيزرف في مدينة بومبي[13]. فقد بدأت في بادي الأمر بهزة أرضية انطلقت بعدها أصوات انفجارات مدوية منطلقة من الجبل هزت السماء. وحسب ما نقلته المصادر التاريخية فإن أعمدة من النيران كانت تنطلق باتجاه السماء والتي كان يعقبها دخان عظيم. وفي الوقت نفسه كانت السماء ترتج بفعل الانفجارات الجديدة، وبدأ وابل من الأحجار والرماد والتراب والحمم البركانية في التساقط على المدينة على شكل قطـــع صلبة. وقد تملك سكان مدينة بومبي الرعب الشديد لكونهم كانوا أقرب من جبل فزوف البركاني فأخذوا في الفرار بعدما تملكهم الخوف الشديد نتيجة لتقدم سيل من الطين الحار الملتهب والذي تحرك باتجاه المدينة على شكل أمواج متدفقة. وأما الذين لم ينجحوا في الهرب فقد دفنوا تحت أنقاض البنايات المتهدمة وتحت الحمم البركانية المنصهرة ولكن الشئ الذي يبعث على الحيره بل ويجب أن يتخذ عبرة هو ما وجده وما شاهده علماء الآثار من معلومات نتيجة الحفريات التي أجروها هو تردد أكثرية أهالي المدينة في ترك المدينة خلال الكارثة. فقد لجأ الأغنياء والذين لم يفكروا في ترك أموالهم وممتلكاتهم إلى بيوتهم كي يحتموا من تساقط الرماد الحارق عليهم إحساسا منهم بإمكانية ان يجدوا الملاذ الآمن، ولكن الوقت قد فات لكي يفروا وماتوا.

فقد انمحت من التاريخ خلال يوم واحد جميع أشكال الحياة في كل من مدينة بومبي وبعض القرى المحيطـــة بها. وقد ذكر القرآن الكريم أخبار الذين لاقوا حتفهم على هذه الشاكلة بقوله تعالى:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ (سورة هود 100)

بعد إجراء الحفريات والبحوث تبين أن سكان بومبي كانوا وكأنما قد تجمدوا فجأة، فقد ظـــهر شكل الأهالي وهم متحجرون أثناء لفظهم أنفاسهم الأخيرة، فقد دهمتهم الكارثة فجأة. وحسب ما أخبر عن ذلك القرآن الكريم:

﴿وَكَذَلِكَ أخذ رَبِّكَ إذا أخذ الْقُرَى وَهِيَ ظَـــالِمَةٌ إِنَّ أخذهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾
(سورة هود 102)

إن ما نشاهده اليوم من آثار تعود إلى حضارات عاشت قبل مئات الآلاف من

السنين تظـــهر بوضوح أنه على الرغم من كل ما كانوا يتمتعون به من غنى فإن هذا لم يغن عنهم من الله شيئا. وإن كل شيء تركوه من خلفهم أضحى ميراثا للذين أتوا من بعدهم. وتجدر الإشارة هنا إلى أن أكبر وهم وقع فيه أولئك الذين عاشوا في مثل هذه المجتمعات واندثروا هو اعتقادهم بأنهم سيملكون النعم الدنيوية إلى الأبد، وما صنعوه من أبنية سوف يخلدهم إلى الأبد، وهذا الوهم نراه واضحاً في يومنا هذا، فالملاحظ أن الإنسان يحاول أن يجعل ذكراه تعيش إلى الأبد بقيامه بعمل مختلف الآثار الفنية لترسيخ هذه الفكرة، وهناك قسم آخر يضحي بالكثير كي يقوم بجمع المزيد من الأموال ظناً منه أنها ستعود عليه بالفائدة.

وهؤلاء قد تجاوزوا الذين سبقوهم من قبل لما أبدوه من الزيغ والضلال وحتى عدم اكتراثهم لجميع أنواع الإنذارات التي أرسلها الله تعالى لهم ليكفوا عمّا هم عليه. ولكن هناك حقيقة مهمة جدا يجب على هؤلاء الأشخاص أن لاينسوها وهي أخذ عبرة خلفتها شواهد وآثار عظيمة لمجتمعات وجدت من قبل ثم اندثرت فلم يبق في هذه الدنيا أحد منهم مخلدا. والذين سعوا إلى تخليد ذكراهم قبل موتهم في هذه الدنيا بما قاموا به من أعمال وما تركوه من آثار لم تجلب لأجسامهم المتآكلة أي منفعة تذكر ولكن بقايا الآثار الموجودة تمثل عبرة للذين يريدون أن يستخلصوا العبر والدروس من هذه الدنيا، ولكي لا ينسوا ويتذكروا ما سيحل بهم من عذاب إلهي أليم. ولهذا فإن الله تعالى من خلال هذه الأمثلة ينذر الذين يتعلقون برغبة شديدة بهذه الدنيا. ومما لا شك فيه أن الذين يتدبرون ويأخذون الدروس من هذه الحوادث سيعلمون أن الله تعالى قد أوجد هذه الحوادث وأنه قادر في أي لحظـــة أن يمتحن البشر بإرسال أشد أنواع العذاب. إن الدنيا هي فقط مكان الاختبار والامتحان. فالذي يؤدي هذا الامتحان حسب ما يطلب منه فإنه سيكون رابحا. أما الذين يرون هذه الدنيا دار بقاء، فإنهم سيواجهون خسارة مماثلة كما هو الحال بالنسبة للأقوام التي مر ذكر أحوالها. وهذا بالتأكيد ناتج عما جنته أيديهم وأنهم في الآخرة سيحاسبون على ما اقترفته أيديهم وما قاموا به من الأعمال، ولا شك أن الله تعالى هو الذي يعرف المحسن من المخطـــئ.

الآخرة هي دار البقاء

يحسب العديد من الناس أن بإمكانهم تأسيس حياة كاملة لا ينقصها شيء في هذه الدنيا، لأنهم يظنون أنهم حازوا على الثروة المادية الضرورية فإن حياتهم في هذه الدنيا تكون كافية لإشباع جميع حاجات الإنسان وتطلعاته، وكافية لإسعاده. وحسب القناعة السائدة فإن الإنسان يكون قد أسس حياة كاملة لا يشوبها أي نقص إن حصل على ثروة مادية وعلى بيت سعيد أو حاز على شهرة وصيت ذائع يجعله محترما في عيون الآخرين. . . هذا هو ما يعتقدونه.

بينما لا نعثر في كتاب الله تعالى على مثل هذه النظرة ولاعلى ما يؤيدها. بل على النقيض فالقرآن الكريم يقول بأن الحياة الدنيا لا يمكن أن تكون كاملة ومثالية دون نقص لأنها صممت على قاعدة وعلى أساس النقص وعدم الكمال.

إن اشتقاق كلمة الدنيا يحمل إيماءة مهمة في هذا الموضوع، لأنها مشتقة في اللغة العربية من " الدناءة " وهي صفة للشيء الذي لا يملك قيمة. والدنيا هي محل وضع هذه الصفة. لذا وكما مر بنا في فصول هذا الكتاب فقد كرر القرآن عدم أهمية هذه الحياة الدنيوية، وأشار إلى أن جميع أشكال الزينة الموجودة في هذه الحياة كالغنى وحياة العمل والزواج و الأولاد والنجاح لا قيمة لها وهي من المتاع الزائل:

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَ الأولاد كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَــامًا وَفِي الآخرة عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (الحديد 20)

وفي آية أخرى:

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ الآخرة خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (الأعلى 16 – 17)

والحقيقة أن المشكلة تبدأ – كما تذكر الآية السابقة – عند إيثار الحياة الدنيا على الآخرة، لأن الإنسان عندما يؤثر الحياة الدنيا على الآخرة يكون قد أدار ظـــهره لله تعالى، والله تعالى يقول في كتابه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ (يونس 7)

وينذرهم بأن مصيرهم إلى النار. إن نقص الحياة الدنيا وعدم كمالها لا يعني طبعا عدم وجود أشياء جميلة فيها. فقد ملأ الله تعالى الدنيا بنعم عديدة لا تذكر. ولكن بجانب أوجه الجمال هذه تم وضع أوجه قبح وأوجه نقص وقصور فيها تذكر بجهنم وبعذابها. وبسبب ما تقتضيه حكمة الابتلاء والامتحان في الحياة الدنيا فقد وضعت الصفات العائدة للجنة مختلطـــة مع الصفات العائدة لجهنم، وهكذا يستطيع المؤمنون أخذ فكرة واضحة عن الجنة وعن جهنم من جهة، ويتوجهون نحو الآخرة وهي الدار الخالدة والكاملة البريئة من أي نقص بدلا من التوجه للحياة الفانية القصيرة والانخداع بها. والدار الآخرة هي الدار التي يرتضيها الله تعالى لعباده. ويشير القرآن إلى أن الدار الآخرة هي الدار الأبدية للإنسان والدار الحقيقة وهي دار القرار لهم. لذا كان من الواجب ومن الضروري بذل كل الجهد للفوز بالدار الآخرة والفوز بنعيم الجنة، وهذا هو ما يأمر به الله تعالى عباده:

﴿وَسَارِعُوا إلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ والأرض أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران 133)

وضع المتنافسين للفوز بالجنة

لقد بشر القرآن الكريم المؤمنين بأجر كريم وبمغفرة وبثواب وسعادة لا حد لها، ولكن هناك أمر كثيراً ما يغيب عن البال وهو أن المؤمن يعيش هذه البشارة ضمن شريط الزمن اللانهائي الممتد إلى الجمال اللامحدود وهو لا يزال في الحياة الدنيا، لأن المؤمن علاوة على أنه مبشر بالجنة في الآخرة فلم يترك محروما من ألطـــاف الله تعالى ونعمه في هذه الدنيا. ويذكر القرآن الكريم أن المؤمنين الصالحين سيحيون حياة طيبة في هذه الحياة الدنيا:

﴿مَنْ عَملَ صَالحًا منْ ذَكَرٍ أو أُنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل / 97)

إن قيام الله تعالى بمنح عباده الصالحين ألطـــافا دون أي مقابل كتشويق وحث أمر لا يتغير. ونظرا لكون الغنى والعظمة والجمال من أخص صفات الجنة ومن أسسها، لذا يخلق الله تعالى في هذه الدنيا لعباده المصطفين الأخيار، ولعباده الذين يحبهم ويرضى عنهم نعما تذكرهم بنعم الجنة وتشير إليها ليزيد من شوقهم إلى الجنة. لذا فكما يبدأ العذاب اللانهائي للمنكرين

والملحدين في هذه الحياة الدنيا كذلك يبدأ الجمال اللانهائي الموعود للمؤمنين والصالحين في حياتهم الدنيوية. وقد يبتلي الله المؤمنين في هذه الحياة بصور من الضيق والمصاعب والآلام ولكن المؤمنين الصابرين لوجه الله تعالى يتذوقون من هذه المحن والآلام لذائذ معنوية لا يمكن أن تخطر على بال المنكر.

إن المؤمن يعيش في هذه الحياة الجديدة بعيدا عن أي هم أو حزن أو ضيق نفسي طوال حياته في الدنيا لأنه يعلم بأنه باتباعه أوامر ونواهي خالقه وبعيشه شكل الحياة الذي يحدده الدين الذي اختاره له سيعيش افضل حياة. وهو يحمل بعد وفاته آمالا كبيرة حول حياته الأخروية، ويتوقع أفضالا ًعديدة من ربه، فهو يعلم قبل كل شيء بأن عون ربه وتأييده له على الدوام. ومثل هذا الأمن والطمأنينة والسكينة التي يشعر بها المؤمنون ناشئة من علمهم بأن كل صلاة وعمل صالح يقومون به طـــالبين رضا الله تعالى يسجل في دفاتر حسناتهم من قبل الملائكة، كما يعلمون بأن الله تعالى يؤيدهم ويحفظـــهم بملائكة لا يرونها.

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ (الرعد 11)

ويعلم المؤمنون بأن النصر حليفهم في كل كفاح يدخلونه في سبيل الله، وأنهم هم الموعودون بالجنة، وهذا يعطيهم شعوراً بالثقة وبالأمل لعلمهم بأن الله تعالى قد أمر ملائكته بنصر المؤمنين وتثبيتهم.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (الأنفال 12)

المؤمنون هم الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت 30)

وهم يعلمون مع هذا أن الله لا يكلف أحدا فوق طـــاقته:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (الأعراف 42)

ولأنهم يؤمنون بالقدر وأن الله تعالى هو فاعل كل شيء، لذا يعلمون أن كل ما يصيبهم هو من عند الله:

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة 51)

لذا يتوكلون عليه ويرضون بحكمه:

﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾ (آل عمران 173-174)

لذا لا يصيبهم أي مكروه. ولكن بما أن الدنيا دار امتحان وابتلاء فمن الممكن أن تظـــهر العديد من الصعوبات أمام المؤمن كالجوع والمرض والأرق وحوادث السير والخسائر المالية....إلخ.

وقد يمتحن بالفقر والبأساء والضراء. والآية الكريمة الآتية تسجل بعض هذه الابتلاءات:

﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾ (البقرة 214)

ولاشك أن هذه البأساء والضراء والمصاعب التي ظـــهرت أمام الرسول وأمام المؤمنين معه لم تزدهم إلا عبودية لله تعالى وخشية منه ورضاء بقضائه وزادت أشواقهم الى الجنة. فالله تعالى يبشرهم في نهاية الآية بأن نصر الله قريب وفي النتيجة:

﴿**وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ (الزمر 61)

ولما كان المؤمن يعلم بأن المصاعب هي لامتحان إيمانه أنها وأوجدت لهذا الغرض فإن أظـــهر صبراً وتوكلاً فسينال ثوابا كبيرا في الآخرة، وستكون عاملا لنضوجه وفرصة لكماله، لذا فلا يفقد شيئاً من أمنه وطمأنينته وسكينة نفسه. ولا تستطيع هذه المصاعب النيل من سكينة نفسه بل سيزداد شوقه وحماسته.

بينما يكون الوضع على النقيض بالنسبة إلى الكافر الذي يتعذب لا جسدياً فقط بل نفسياً وروحياً.

إن المشاعر السلبية كالخوف والحزن والأسى والقلق والتشاؤم من المشاعر الرئيسية الملازمة و اللصيقة بمشاعر الملحد والمنكر. وهذه المشاعر السلبية تعد بداية مصغرة للجانب المعنوي من العذاب الذي سيتجرعونه في جهنم، ويشبه الله تعالى هؤلاء الضالين والمنحرفين كما يأتي:

﴿**فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ (الأنعام 125)

ومقابل هذا يخبرنا الله تعالى في آيات أخرى كيف أنه يحسن لعباده المؤمنين الصالحين

الذين يستغفرونه ويتوبون إليه ويؤتهم من فضله في هذه الحياة الدنيا :

﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إليه يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إلى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ (هود 3)

وآية أخرى يعرف القرآن الكريم الحياة الدنيوية للمؤمن:

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ماذا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخرة خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ (النحل 30)

إن الدار الآخرة خير من دار الدنيا هذه وأفضل، وعندما يتم قياس صور الجمال الموجودة في هذه الدنيا بالموجود في الآخرة نرى أنها تتضاءل حتى تفقد كل قيمتها. لذا فإذا تعين علينا تعيين هدف لنا، لكان من الضروري أن تكون الدار الآخرة هي الهدف. والمؤمنون الذين يسعون الدار الآخرة يغمرهم الله تعالى بأفضاله في حياتهم الدنيا هذه.

الجنة: الوطن الحقيقي للمؤمنين

لقد وعد الله الجنة لعباده المؤمنين. ووعد الله حق لاريب فيه أبداً. والذين يؤمنون بأن هذا الوعد سيتحقق حتما، لايحملون في جوانحهم أي شبهة أو قلق أو ريبة. وعندما يسلمون أرواحهم كمؤمنين يعلمون بأن ذنوبهم ستغفر لهم وبأن أبواب الجنة ستفتح لهم وسيدخلونها:

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ (مريم 61)

وأخيرا تقبل تلك اللحظـــة المرتقبة، وتكون الجنة – التي هي الدار الحقيقة للمؤمن ودار القرار له التي تمناها المؤمن طوال حياته وعمل كل ما في جهده للفوز بها ونيلها – قد تهيأت للمؤمنين. والقرآن الكريم يرسم صورة رائعة لدخول المؤمنين الجنة.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى﴾ (الرعد 23 -24)

صور الجمال في الجنة

﴿مَثَلُ الْجَنَّة الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ (الرعد 35)

قبل الولوج في الموضوع هناك نقطـــة مهمة يجب بيانها: إن الفكرة الشائعة من أن الجنة تحتوي فقط على مناظر طبيعية جميلة وعلى بساتين وأنهار جارية. . . هذه الفكرة ليست فكرة

قرآنية. لاشك أن جمال الطبيعة والبساتين والأشجار والأنهار تكمل الجو الساحر للجنة. وهذه هي الحكمة من وجود القصور في الظـــلال والبساتين التي تجري من تحتها العيون والأنهار. ولكن هذه البساتين والمساحات الخضراء لا تكفي لتعريف الجنة تعريفا شاملا وكافيا.

إن صور الجمال في الجنة ونعمها خارج نطـــاق كل التصورات وخيالات الإنسان وخارج قدرة الإنسان في التعبير عنها فقسم منها تذكر بما كان موجودا في الدنيا وقسم منها جديد كل الجدة ولم يعرفه الإنسان من قبل: ﴿**ذَوَاتَا أَفْنَان**﴾ (الرحمن 48)

ويجب أن يكون معلوما لدينا بأن صورا عديدة من الجمال ومن المفاجات أعدها الله تعالى بعلمه اللانهائي للمؤمنين في الجنة وجعلها في انتظارهم، وفي الآية الآتية يخبرنا الله تعالى بأن كل شيء سيتحقق حسب مشيئة المؤمن وإرادته وطلبه للجنة.

﴿**تَرَى الظَّـــالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ**﴾ (الشورى 22)

أي أن قوة خيال الإنسان ستؤدي بإذن الله ولطف منه إلى تشكيل صور جمال عديدة في الجنة علاوة على صور الجمال الموصوفة في القرآن الكريم.

الجو الذي سيعيش فيه المؤمنون في الجنة

﴿**وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ (التوبة 72)

البيوت التي عاش فيها المؤمنون في الحياة الدنيا هي بيوت طـــاهرة.

﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ**﴾ (النور 36)

وستكون بيوت الجنة مشابهة لهذه البيوت يذكر فيها المؤمنون الله سبحانه وتعالى ويشكرونه على أفضاله ونعمه. فكما أن المساكن الجميلة الطـــاهرة التي يعيش فيها المؤمنون من قصور ومنازل يمكن أن تكون ضمن جو الجمال الذي ذكرناه في السابق، كذلك يمكن أن تكون ضمن مدن حديثة جدا ذات هندسة معمارية راقية، وتملك لمسات جمالية عديدة.

المساكن المذكورة في القرآن مقامة ضمن أجواء من الجمال الطبيعي، فمثلا تذكر إحدى الآيات القرآنية:

﴿**لَكِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ**﴾ (الزمر 20)

قد يكون لهذه المساكن العالية المذكورة في هذه الآية نوافذ واسعة للإشراف على

هذه المناظر، فيها صالونات واسعة تحيط بها النوافذ من جهاتها الأربع. وهكذا يتمتع المؤمن بمساكن مؤثثة بأجمل ديكور يتمناه الإنسان، وعندما يسترخي على كراسي ناعمة ويرزق بأطيب الفواكه والأشربة يتطلع من مكانه العالي على أجمل المناظر التي تخلب الألباب.

يكون تصميم هذه القصور وتأثيثها بأفضل الأثاث وأجوده وبألوان متناغمة، فيها كراسي مريحة وأسرة متقابلة يذكرها القرآن الكريم في عدة آيات:

﴿**عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ**﴾ (الواقعة 15 – 16)

﴿**مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ**﴾ (الطور 20)

وكما يتبين من هذه الآيات فالسرر هنا رمز للغنى والعظمة والقدرة. والله تعالى رأى المؤمنين مستحقين لمثل هذه النعم في الجنة. والمؤمنون – وهم متكئون على هذه السرر – يذكرون الله ويشكرونه ويحمدونه:

﴿ **وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ**﴾ (فاطر33 – 35)

والشيء الغالب في مواد الجنة أنواع عديدة من عناصر الأناقة وصور الجمال التي هي انعكاس للفن وللعلم اللامحدود لله تعالى، مثلا فالأسرة المحلاة بالجواهر موضوعة في أماكن عالية ومرتبة ومؤثثة بعناية، والملابس من الحرير مزينة بقلائد من الفضة والذهب. ومع ورود تفاصيل عديدة فالله تعالى استعمل في وصف الجنة عبارات تترك مجالاً للخيال أيضاً. وبإمكان المؤمن أن يختار ما يعجبه من أنواع الزينة والأثاث. ولاشك أن الله تعالى هيأ لعباده المؤمنين الذين استحقوا الفوز بالجنة مفاجآت عديدة لا يمكن أن تخطر على بال أحد ولا على خياله.

الجنة تفوق جميع الخيالات

﴿**يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ (الزخرف 71)

إن الشروح الواردة في القرآن حول الجنة وتصويرها وتقديم الأمثال عنها تنطلق من كونها ليست غريبة تماما عن الموجود في الدنيا بل تحمل بصمات من الشبه بها لذا يقول الله تعالى: ﴿**وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ**﴾ (محمد 6)

لذا نستطيع بإذن الله معرفة الحياة في الجنة ونحن لا نزال في الحياة الدنيا، وأن نملك حولها المعلومات، وهذه المعلومات هي المعلومات التي علمها الله لنا لكي تكون وسيلة للتفكر في الجنة والشوق إليها. ولكن لا يمكننا القول بأن هذه المعلومات تصف الجنة تماما ومن جميع جوانبها وأوجه النعم فيها، ففي بعض الآيات تمت الإشارة إلى نقطة مهمة وهي أن

أوصاف الجنة هذه هي لتحريك قوة الخيال عندنا. وقبل تقديم هذه الآيات علينا أن نذكر أمرا مهما وهي أن آيات مثل:

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّــعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ (محمد 15)

فهذه الآية تشير إلى أن الجنة مكان يفوق الخيال الإنساني، وإلى أنها دار المفاجآت التي لا تخطر على قلب أحد. والآية الآتية تصور الجنة كمكان ضيافة واحتفال:

﴿لَكِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ (آل عمران 198)

ولاشك أن الفوز في امتحان الحياة الدنيا والوصول إلى دار المقامة حسب تعريف القرآن للجنة أي إلى الموطن الحقيقي والباقي للمؤمن أمر يستحق الاحتفال به. ولاشك أن مثل هذا الاحتفال سيكون من العظمة ومن الأبهة بحيث لا يمكن قياسه بأي احتفال لأي قوم في الدنيا منذ خلقها وحتى فنائها.

وهذه الاحتفالات في الحياة الأبدية، والتمتع بأنواع لا تعد ولا تحصى من النعم والمسرات سمة خاصة بالجنة التي لا يصاب فيها المؤمن بأي نوع من أنواع التعب أو الملل أو النصب، لذا نرى المؤمنين يقولون وهم يحمدون الله تعالى:

﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (فاطر 35)

ولاشك أن التعب الذهني أو النفسي أو المعنوي يندرج في هذه الآية.

الإنسان في ظروف الحياة الدنيا يتعب بسرعة لأنه خلق ضعيفاً. وعندما يتعب يتكدر ذهنه ويضعف عنده التركيز، ويضعف عنده التفكير السليم. بينما لا يوجد هذا الأمر في الجنة، فذهن المؤمن يكون هناك صافياً وشعوره حاداً على الدوام لكي يستطيع إدراك نعم خالقه تمام الإدراك ودون أي نقص. ونظراً لانتفاء الشعور بالتعب في الجنة، هذا التعب الذي يعد من نقائص الحياة الدنيا يكون بإمكان المؤمن هناك الاستفادة القصوى ودون أي حدود من النعم اللانهائية الموجودة في الجنة. ويكون الشعور باللذة هناك دون أي انقطاع، بل يكون هناك انتقال من نعمة إلى أخرى، ومن لذة لأخرى. وقد تم التعهد من قبل الله تعالى على عدم حدوث أي ملل أو سأم هناك.

والله تعالى يسبغ على المؤمنين في الجنة نعمه في جو يخلو من التعب ومن النصب ومن السأم ومن الضجر، فيخلق لهم كل ما يشتهونه:

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (ق 35)

أي أن الله تعالى يهب لهم حتى ما لا يخطر على بالهم ولا يبلغه خيالهم، فيحصل المؤمنون هناك على أضعاف وأضعاف ما كانوا يتمنونه.

ويجب ألا ينسى أحد بأن أهم نعمة في الجنة — التي هي دار المقامة — هو الصيانة والحفظ من نار جهنم. (**سورة الدخان 56**) فلا يسمعون حسيسها (**سورة الأنبياء 102**) ولكنهم يستطيعون مشاهدة أهل جهنم والتحدث معهم إن شاؤا، وهذا الأمر يكون وسيلة لحمد وشكر عظيمين.

﴿**قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ**﴾ (الطور 26 – 28)

الجنة مكان في الذروة من العظمة والفخامة حتى إن القرآن يقول عنها:

﴿**وَ إذا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا**﴾ (الإنسان 20)

ولا يوجد في الجنة مكان يمكن أن تقع عليه العين ولا يثير الإحساس بالجمال وبالنشوة، ففي كل شبر في الجنة ترى نعما منعكسة عن العلم اللانهائي لله تعالى، وهي نعم مهداة من الرحمة الإلهية وخاصة للمؤمنين في الجنة:

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ

(الحجر 47)

﴿ **خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا**﴾ (الكهف 108)

أعظم نعمة في الجنة وأفضلها: رضوان الله تعالى

﴿**وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّات عَدْن وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ (التوبة 72)

أشرنا في الصفحات السابقة إلى نعم الجنة التي تبهر الأبصار، وكانت النتيجة التي خلصنا إليها أن الله تعالى أفاض على المؤمنين في الجنة أنواعاً عديدة من النعم تخاطب حواسه الخمسة.

ولكن هناك نعمة تفوق كل النعم وتفضلها وهي: رضوان الله تعالى. وهي السعادة العظمى التي يشعر بها المؤمن في الجنة عندما يعلم أنه نال رضوان الله تعالى، وهي سعادة ما بعدها سعادة. وهذه السعادة نابعة من إحساس المؤمن بأنه في موضع شكر لكل نعمة يهبها له الله تعالى. وعندما يصف القرآن الكريم أهل الجنة يقول:

﴿**قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أبدا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ (المائدة 119)

والحقيقة أن رضوان الله تعالى هو الذي يهب القيمة للنعم الأخرى للجنة. لأن هذه النعم يمكن أن توجد في الدنيا وإن كانت بمقياس أقل كثيراً. ولكن إن لم تكن ضمن رضوان الله تعالى فلا تحمل أي أهمية بالنسبة للمؤمن.

هذه النقطـــة الأخيرة مهمة جدا ويجب التفكير فيها جيدا، والقاعدة الأساسية هي:

إن الذي يجعل النعمة شيئا ذا بال ليس ما تحمله من لذة، بل هو شيء وراء هذا بكثير. القيمة الحقيقة تكمن في ان تلك النعمة "هبة " من قبل الله تعالى. والمؤمن الذي يستعمل تلك النعمة ويحمد ويشكر الله يعلم أنه مخاطب من قبل الله وأنه تعالى يحبه ويحفظـــه ويصونه، ويذيقه من رحمته، وهذا هو سر اللذة الأصلية والحقيقية للمؤمن.

لذا فقلب الإنسان لا يشبع تماما الا بالجنة. فقد خلق الإنسان لكي يعبد الله تعالى ، لذا فلا يتلذذ الا بهباته وأفضاله. وهو لا يجد الأمن والطمأنينة إلا في الأجواء التي تذكره بالجنة، أي أن الأجواء التي تستعمل فيها هذه الأفضال والهبات في شكر الله تعالى والإحساس بكرمه. أما أمنية "المدينة الفاضلة " في الدنيا والتي جالت في أذهان المنكرين فهي مستحيلة لهذا السبب. فلو قمت بجمع كل صور الجمال المادية الموجودة في الجنة فلا تساوي شيئا إن لم يكن هناك رضوان الله تعالى. لأن الله قد يمحق كل تلك النعم وكل صور الجمال تلك وكل اللذات المصاحبة لها.

والخلاصة أن الجنة نعمة وفضل وكرم من الله تعالى ولهذا السبب فلها قيمة كبيرة. وكما ورد في سورة(الأنبياء 26) فلكون الجنة هي مكافأة لأهلها فإنهم سيعيشون بسعادةٍ وفرحٍ أبدي. وأحكم ما يمكن قوله هنا هو ما ورد في القرآن الكريم :

﴿**تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾ (الرحمن 78)

جهنم هي مأوى الكافرين

إن جهنم هي المكان الخاص الذي خلقه الله ليكون مثوى أبدياً للكافرين لكي يذوقوا فيها العذاب بدنياً وروحياً. ولأن الكفار هنا مذنبون، فإن العدالة الإلهية تقتضي أن يعاقب كل شخص اقترف ذنبا. إن من أكبر الذنوب وأقبحها في هذا الكون على الإطـــلاق هو قيام الإنسان بالعصيان والجحود بحق الله تعالى الذي خلقه ومنحه الحياة. ولكون هذا الذنب المقترف بحق رب العالمين يعتبر ذنبا كبيرا فإن ذلك يقتضي بالمقابل جزاءً كبيرا. لهذا فإن جهنم قد وجدت لتحقيق هذه العدالة والاقتصاص من المذنب. لقد خلق الله تعالى الإنسان لكي يقوم بحقوق العبودية الحقة تجاه رب العالمين. لذا فإنه سوف يواجه عواقب إنكاره. والله تعالى يقول في إحدى آياته:

﴿**وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ**

دَاخِرِينَ﴾ (غافر 60)

فما دام أكثر البشر سوف يدخلون جهنم وليس هناك أي ضمان أكيد حول خروجهم من جهنم، لذا فيجب أن يحتل هذا الموضوع لدى الناس كلهم الأولوية الكبرى. ولاشك أن أكبر تهديد يواجهنا هو جهنم، وليس هناك شيء أهم من محاولة حماية أنفسنا منها وليس هناك عمل أهم على وجه الأرض من العمل على تفادي الوقوع في نار جهنم. وأمام هذه الحقيقة الواضحة نرى غالبية البشر وكأنهم سكارى فهم يشغلون أنفسهم بمشاكل أخرى، وينشغلون حيث يعملون أشهر وسنين من أجل تحقيق تلك الغايات الفانية ويتناسون أكبر خطر يهددهم ألا وهو عذاب جهنم.

فهم عمي لدرجة أنهم لا ينتبهون للنار التي هي قرب إلى رؤوسهم. والقرآن الكريم يتناول حال هؤلاء الغارقين حتى أذقانهم في الضلالة فيقول:

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُون مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ (الأنبياء 1 – 3)

إن الإنسان ينغمس غالبا في رغباته وأهوائه، ويستهلك عمره كله في أشياء تافهة. فمنهم من يجري خلف مناصب عالية، ومنهم من يحاول أن يؤسس عائلة سعيدة، وغيره يدافع عن أيديولوجيات فارغة والبعض يصرف جلّ وقته في كسب المزيد من الأموال. وهكذا يحاولون أن يجعلوا هدفهم في الحياة تحقيق هذه الأشياء، ولا يقدرون حجم الخطورة الماثلة أمامهم. بل يرى معظمهم أن جهنم تصور لمكان وهمي. لكن جهنم هي أكثر حقيقة من هذه الدنيا التي يرتبطون بها بكل هذه الشدة. فجهنم ستظل إلى الأبد، بينما الدنيا زائلة. فالله تعالى خالق جهنم ويوم الآخرة هو خالق السماوات والأرض والبشر حسب موازين في غاية الدقة، يكشف عظمة الله تعالى وقدرته. وإن جهنم قد أعدت لتكون مأوى الكافرين والمشركين والمنافقين. وهذا المكان المخيف الذي لا يكاد يستوعبه العقل يمثل مصدراً مرعباً للعذاب ومصدراً مخيفًا للآلام يعادل أضعاف أضعاف أكبر الآلام الموجودة في الدنيا. وقد خلقت لكي تتناسب مع عظمة وجلال الله تعالى. وهناك حقيقة ثانية تصدم الإنسان ألا وهي استمرار العذاب لجميع الذين يدخلون نار جهنم إلى ما لا نهاية. هناك قول شائع ينتشر بين أفراد مجتمع الجاهلية مفاده إن الذين سيدخلون جهنم سيعذبون إلى أجل مسمى، وبعدها يتم العفو عنهم ويخرجون منها. وهذا الاعتقاد ينتشر بالأخص بين من يعتبرون أنفسهم مسلمين، ولكن لا يقومون بأداء فروض العبادات بالشكل التام والصحيح. فهم يظنون أنهم سيبقون في جهنم لفترة ما ثم يتم العفو عنهم بعدها بعدما عاشوا حسب أهوائهم في الدنيا. ولكن ما سوف يلاقونه من مصير سيكون مؤلماً أضعاف أضعاف ما كانوا يتخيلونه. لأن جهنم هي المكان الذي يستمر العذاب فيه إلى ما لا نهاية. والقرآن الكريم لم يتطرق في أي آية من آياته إلى دخول أناس إلى جهنم

وتعرضهم إلى عذاب قليل، ومن ثم أخذهم إلى الجنة. بل على العكس، فإن جميع الآيات القرآنية الكريمة تتطرق إلى حقيقة كون عذاب جهنم يستمر إلى ما لانهاية، وإن جهنم قد خلقت لتكون مثوى خاصا بالكافرين، ولا مجال هناك للخلاص منها. وسيستحق العذاب الأبدي أولئك الذين أظـــهروا لله تعالى جحوداً وعصياناً بعدما منحهم الله تعالى من النعم والخيرات الشيء الكثير. يقول تعالى :

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (سورة النحل 78)

لن تكون هناك أي فائدة للذين يقدمون المغالطـــات والمقاييس الفاسدة لإلهاء أنفسهم، فالحكم قد تحقق وصدر في حق هؤلاء الذين قضوا حياتهم الدنيا في الجحود والضلال، وما أظـــهروه من حقد دفين وعدم مبالاة تجاه دين الله تعالى، وسيتم مخاطبة أولئك الذين كانوا يتكبرون على الله تعالى:

﴿فَادْخُلُوا أبواب جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (سورة النحل 29)

وإحدى أهم الصفات المخيفة لجهنم هي عدم انقطـــاع عذابها أبداً. فليس هناك مجال للعودة والخروج منها بعد الدخول إليها، فهناك حقيقة واحدة هي استمرار عذاب نار جهنم إلى الأبد. ومن أهم صفات الله تعالى في الأسماء الحسنى صفة " القهار" وتتجلى في هذه اللحظـــة . وسيلاقي الذين سيكونون وجهاً لوجه مع هذه الحقيقة انهياراً نفسياً، لأنه لن يبقى لهم أي أمل في النجاة، والقرآن الكريم يشرح لنا الوضع البائس لأصحاب النار فيقول:

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهم النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (السجدة 20)

بيئة العذاب في جهنم

فبعد محاسبة الكفار أمام الله تعالى يستلمون كتب أعمالهم بشمالهم، وهذا يمثل لحظـــة سوقهم إلى جهنم التي سيبقون فيها إلى الأبد، حيث لن يجد الكفار وسيلة للهرب، فلن يوفر تجمع المليارات من البشر يوم الحساب الفرصة لهؤلاء الكفار كي يهربوا ويختفوا عن الأنظار، ولا يستطيع أحد الاستفادة من هذا الأزدحام كي يختفي أو يجعل نفسه شخصا منسيا. وكل فرد من أفراد أهل النار سيرافقه سائق وشاهد من الملائكة:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ لَقَدْ كُنْتَ

فِي غَفْلَة مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيد أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَد مُرِيب الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيد﴾ (سورة ق 20 – 26)

وهكذا فإن الكفار سيتم سحبهم على وجوههم باتجاه ذلك المكان المخيف. وكما أفاد القرآن الكريم فإن هؤلاء الكفار سيساقون زمراً زمراً إلى جهنم, وقبل وصولهم إلى هذا المكان وهم في الطريق إلى جهنم سيصاب هؤلاء الكفار بالخوف وبالرعب الشديد وبالهلع، حيث يسمعون ومن مسافات بعيدة أصوات شهيق جهنم وهي تتلظـــى بالنار:

﴿إذا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُور تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنْ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (سورة الملك 7 – 8)

وكما تبين الآية الكريمة، فإن إحساس الكفار بما سيصيبهم من عذاب جهنم سيكون واضحاً حال بعثهم من الموت حيث سيدركون أي عاقبة ستكون بانتظـــارهم فتكون أعناقهم مطـــأطـــأة من شدة الخجل والمذلة.

فهم بعد انكسار كبريائهم سيكونون في حالة انهيار تام، حيث تكون رؤوسهم منحنية، فقد أصبحوا دون حول ولا قوة، وبلا مساعدة وبلا صديق. وهم لشدة خجلهم لا يرفعون رؤوسهم، بل يكتفون بالنظر من طرف أعينهم، وفي آية كريمة تتوضح لنا هذه الحالة:

﴿وَتَرَاهم يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنْ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْف خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أنفسهم وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَة أَلَا إِنَّ الظَّـــالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾ (سورة الشورى 45)

إن جهنم مكان تنبض بالكراهية الشديدة، فهي متعطشة لتعذيب البشر ولا تشبع أبدا من التهام الكافرين :

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ (سورة ق 30)

عندما تتلقف جهنم أحد الكفار من أهل جهنم فإنها تبقيه فيها إلى الأبد. والقرآن الكريم يصف لنا جهنم بقوله تعالى:

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَر لَا تُبْقِي وَلَا تَذَر لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ﴾ (سورة المدثر 26 – 29)

الحياة الأبدية خلف الأبواب المغلقة

سيجابه الكفار الذين سيدخلون جهنم بعد غلق الأبواب عليهم منظراً مخيفاً للغاية. فهم

سيدركون أنهم بعد قليل سوف يتم رميهم في نار جهنم إلى الأبد. فغلق الأبواب من خلفهم سيجعلهم يدركون أنه ليس هناك مفر ولا خروج من هذا المكان المخيف. ويخبر الله تعالى عن وضع الكفار هذا فيقول:

﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُوصَدَةٌ** ﴾ (سورة البلد 19 – 20)

وحسب الآيات الكريمة

(**عذاب كبير**) سورة آل عمران 176) و

(**عذاب شديد**) (سورة آل عمران 40) و

(**عذاب مؤلم**) (سورة آل عمران 21)

وهكذا يبين القرآن الكريم العذاب المرعب والأليم الذي سيواجهه الكفار.

إن المقياس الذي يملكه الإنسان في الحياة الدنيا لا يستطيع فهم واستيعاب عذاب جهنم بشكل كامل.

فالإنسان الذي لا يتحمل التعرض إلى الماء الحار أو النار لثوان معدودات لا يستطيع تجسيم منظر عذاب النار في ذهنه والذي سيستمر إلى الأبد ولا حتى تخيله. لأن شدة الألم في نار جهنم لا يمكن مقارنتها بأي ألم ناتج من أي نار موجودة على الأرض, لأنه ليس هناك شبيه لعذاب الله تعالى:

﴿ **فَيَوْمَئِذ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَد وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ** ﴾ (سورة الفجر 25 – 26)

وكما يوضح القرآن الكريم فإن في جهنم حياة بمعنى الكلمة, ولكن هذه الحياة يملؤها العذاب في كل آن ومن كل جهة, والحياة في جهنم تحوي مختلف صنوف الإهانة والخزي والمهانة والذل. وكذلك فهناك عذاب جسدي وعذاب نفسي، ولا يمكن مطلقا قياس أي عذاب واقع في الأرض مع العذاب الحاصل في جهنم. فأهل النار سيحسون بعذاب جهنم بحواسهم الخمسة. فعيونهم ستشاهد أفظع وأقذر المناظر وآذانهم ستسمع أفظع الأصوات وأكثرها رهبة من دمدمات وضجيج وصياح وتآوهات وصراخ. وستملأ أنوفهم روائح قذرة وكريهة لا يمكن تحملها، وستذوق ألسنتهم أفظـــع المذاقاتً وأكثرها إيلاماً. وستحترق جلودهم وجميع أجزاء أجسامهم بحيث لا ينجو من هذا الحرق حتى خلية واحدة من خلايا جسده وسيتلوون من شدة هذا العذاب. فهم لا يموتون ولا يفنون ليتخلصوا من هذا العذاب. وهذا العذاب سيستمر إلى ما لانهاية، لأن جلودهم ستتجدد، ولن يخفف العذاب عنهم ولن ينقطـــع عنهم أبداً. وكما جاء في القرآن الكريم:

﴿ **أولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ** ﴾ (سورة البقرة 175)

وسيقال للكفار حسب التعبير القراني:

﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أو لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (سورة الطور 16)

وهناك عذاب نفسي شديد ومؤلم بجانب العذاب الجسدي، فهم يهانون ويحقرون، فيندمون وكلما فكروا في وضعهم اليائس وعدم وجود أي بصيص من الأمل أمامهم ستبكي قلوبهم دماً، وكلما خطر ببالهم أن وضعهم سيستمر إلى الأبد تضاعفت آلامهم إلى درجة أنه لو يعلمون بأن هذا العذاب سينتهي بعد مليون سنة أو بليار سنة أو حتى بعد مليارات من السنين فسيشكل هذا لهم مصدر أملٍ كبير ولكن علمهم بأن العذاب لن ينتهي بل سيستمر إلى أبد الآبدين سيولد عندهم شعوراً شديدا بالاحباط واليأس لا يمكن مقارنتهما بأي شعور بالاحباط واليأس في هذه الدنيا. وحسب التصوير القرآني لجهنم فهي مكان قذر، تفوح بمختلف صنوف الروائح الكريهة، ضيقة يعلوها الضوضاء، مظلمة، كريهة، كل زاوية وحجرة تغلي من شدة وهول الحرارة، تحتوي على أمقت المأكولات والمشروبات. وملابس من نار يلبسونها تظل عليهم إلى الأبد، إضافة إلى مختلف صنوف العذاب. كل هذا وأكثر من هذا يشير إلى نوع المكان الأبدي الذي سيكون مأوى الكافرين والضالين من أهل النار، ويمكن تصوير بيئة جهنم من خلال مايمكن رويته في بعض الأفلام التي تصور انفجار قنبلة نووية وما تخلفها من ظلمة، وقذارة إلى أبعد ما يمكن تصورها، وسط ممقوت وسط ملؤه الذهول. وطبعا ومما لاشك فيه أن هناك حياة تتلاءم مع هذه البيئة. فأهل جهنم يكونون في وعيهم التام حيث يسمعون، ويتكلمون، ويتناقشون، ويحاولون الهرب، يحرقون في النار، يتضرعون ويطلبون تخفيف العذاب عنهم، يعطشون، يجوعون، يحسون بالندم القاتل. لهذا فإن أهل جهنم يعيشون في بيئة قذرة ممقوته كالحيوانات. فهم يجدون فقط شجرة الزقوم كمأكل لهم وأشواك الأشجار، أما شرابهم فمن دم وصديد ومن ماء مغلي لا غير. وفي هذه الأثناء فإن النار تحيط بهم من كل جانب. حيث تبدل جلودهم المحترقة بأخرى جديدة وهكذا. حيث يستمر هذا العذاب من دون تخفيف من حدتها وشدتها. وهم علاوة على تساقط جلودهم ولحومهم المحترقة، واندفاع وخروج أعضائهم الداخلية إلى الخارج، واحتراق كامل جسدهم، وعلى الرغم من كونهم في وسط يملؤه الدم والصديد فإنه يتم ضربهم وجلدهم بسلاسل من حديد. ويتم ربطـــهم من أعناقهم وربط أيديهم إلى أعناقهم حيث يتم جرهم ورميهم في أماكن ضيقة من جهنم. ويمددون من قبل زبانية جهنم على أسرة من نار. حيث يقومون بتغطيتهم بأغطية من نار. فلن تكون هناك آذان صاغية لصراخهم ولجميع توسلاتهم المستمرة. فهم يطلبون أن يخفف عنهم العذاب ولو ليوم واحد ولكن العذاب والإهانة سيكون الجواب الموجه إليهم، فاليوم الواحد لهم من أيام جهنم لا يشبه بأي شكل من الأشكال يوما من أيام الدنيا.

فكل ما يجري في جهنم من حوادث هي حوادث حقيقية، فهي حقيقية بل وأكثر حقيقية من حياتنا هذه والتي نعيشها في هذه الدنيا. وهذا هو أيضا مصير الذين لا يعبدون الله كما ينبغي بل يؤدون عبادتهم بشكل ناقص:

﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَ الآخرة ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الحج 11)

كذلك فهذا هو مصير الذين يقترفون الآثام ويقولون بأن الله تعالى سيغفر لنا في نهاية الأمر، والذين يحسبون أنهم لن يبقوا في جهنم إلا أياما معدودات:

﴿ ذَلِكَ بأنهم قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أيام ا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (آل عمران 24)

والذين يتخذون الهاً غير الله، ولا يهدفون في الحياة إلا الحصول على الثروة وعلى الصيت والشهرة، والذين يغيرون دين الله حسب أهوائهم ورغباتهم والذين يشوهون تفسير القرآن حسب مصالحهم ومنافعهم الشخصية أو الذين يرتدون من بعد إيمانهم كفاراً. والخلاصة أن جميع الكفار والمشركين والمنافقين سيملؤون جهنم. فهذا الوعد القاطـــع لله تعالى قد أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (سورة السجدة 13)

وهؤلاء البشر قد خلقوا خصيصاً لجهنم:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنْ الْجِنِّ وَ الأنس لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أولئك كالأنعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أولئك هُمْ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف 179)

ومقابل هذا، فليس هناك أحد يستطيع أن يتألم لحال أهل جهنم وأن يخلصهم من عذاب النار وحتى أن يساعدهم. والله تعالى لن يكلمهم إلى الأبد. فهم سيقاسون آلام الاهمال والنبذ والنسيان.

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾ (سورة الحاقة 35)

وزبانية جهنم، وهم من الملائكة الموكلين بتطبيق أسوإ العذاب وأقساه على واردي جهنم لا يملكون ذرة من الرحمة والشفقة سيذيقونهم سوء العذاب ومختلف صنوف الآلام والتعذيب و إلى ما لا نهاية. وهم على درجة عالية من الشدة وعدم الرحمة والقوة ويكونون مخيفين جدا. فهم مكلفون بأن يقتصوا من الكفار والمشركين الذين تجاسروا بكفرهم بالله رب العالمين حيث يقومون بأداء واجبهم على أتم وجه. فليس من الممكن أن يقدموا التماساً وأن يؤدوا بشكل ناقص واجب التعذيب أو أن يجعلوا الكافرين يهربون من أمام أعينهم، ولهذا فإن الإنسان يجابه خطرا حقيقياً. فالإنسان سيعاقب بهذا العقاب إذا قام بجحود وعصيان تجاه رب العالمين، وهذا يعني اقترافه أعظم الذنوب، لهذا فإن الله تعالى ينبه الإنسان كي لا يقع في مثل هذه الأخطـــار وأن لا يقترف تلك الذنوب:

﴿يَاأَيُّهَا الذين آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ

غلاظٌ شدادٌ لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (سورة التحريم 6)

﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَ بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَه سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾

(سورة العلق 15 – 18)

تضرعات يائسة لا طــائل من ورائها

إن أهل جهنم يعيشون حالة من الإحباط الشديد، فالعذاب المسلط عليهم يكون أبديا من جهة وأيضاً يكون أليماً جداً من جهة اخرى، فالتوسل وإصدار أصوات تنم عن ألم كبير سيكون طريقهم وأملهم الوحيد. فهم يتوسلون لكل من يرونه، يرون أهل الجنة فيطلبون منهم قليلا من الماء والطــعام. يتوسلون إلى الله تعالى ويأملون رحمة منه، ولكن كل هذا لا يجدي. وحراس جهنم وهم الزبانية يكونون ضمن الذين يتوسلون بهم، أي يصل الأمر بهم بأن يتوسلوا إلى زبانية جهنم الذين يقومون بإذاقتهم مختلف صنوف العذاب والذين لا يخطر ببالهم أن يقوموا بالتوسط لدى الله تعالى لكي يخفف عن هؤلاء العذاب حيث يكون العذاب شديدا لدرجة أنهم يتوسلون كي يخفف عنهم ولو ليوم واحد فقط. ولكنهم لا يأخذون أي رد.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنْ الْعَذَابِ قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (سورة غافر 50 – 49)

وهم بجانب هذا يعملون من أجل الحصول على رحمة من الله تعالى ولكن أيضاً تبوء جميع محاولاتهم بالفشل.

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِن عُدْنَا فَإِنَّا ظَــالِمُونَ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِي إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمين فَأتخذتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُون إِنِّي جَزَيْتُهُمْ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أنهم هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ (سورة المؤمنون 111 – 106)

ويفهم من هذه الآية الكريمة أن هذا هو الخطاب الأخير الذي يوجهه الله تعالى لأهل جهنم. لأن الله تعالى عندما قال لهم "اخسأوا ولا تكلمون " فلم يعد هناك أي مجال لأي حديث أو كلام بعد. وبعد هذا لن يخاطبهم الله تعالى إلى أبد الأبدين وهذا وضع مؤلم لا يمكن حتى تصوره وتخيله. وبينما يقاسي أهل جهنم العذاب ويصطرخون في النار يكون المؤمنون الفائزون والواصلون إلى السعادة في أحضان النعيم. وهناك عذاب معنوي آخر لأهل جهنم وهو الحوار الذي يجري بينهم وبين أهل الجنة. فعندما يعاني أهل جهنم من أصناف

العذاب المهول ييسر لهم الله إمكانية رؤية الجنة ومشاهدة أنواع النعم الموجودة فيها، حيث يرون المؤمنين الذين كانوا يستهزئون بهم في الدنيا في بحبوحة من العيش وفي قصور فخمة ومراتب عالية ومع نساء حسناوات وحور عين يخطف حسنهن الأبصار، يتناولون ألذ أنواع الأطــعمة والمشروبات فيقارنون بين العذاب الذي يعيشون فيه والهوان والخزي الذي يلاقونه مع هذه النعم الكبيرة والسعادة اللامحدودة الموجودة هناك في الجنة، وهذا سيزيد من عذابهم أضعافا مضاعفة ويبلغ شعور الندامة عندهم درجة لا يمكن تحملها ويغرقون في بحر من الندامة الممضة الموجعة لأنهم – على العكس من المؤمنين – لم يؤمنوا بالله ولم يخضعوا لأحكام الله، وفي لجة هذه المشاعر يحاولون إجراء حوار مع أهل الجنة وطلب المعونة منهم فيتوسلون إليهم ولكن هيهات هيهات. وفي هذه الأثناء يرى أهل الجنة حال أهل النار فيزدادون سعادة ويزداد شكرهم لله تعالى، ويخبرنا القرآن الكريم عن هذا الحوار الذي سيجري بين أهل النار واهل الجنة:

﴿**فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنْ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْــعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِين وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**﴾ (سورة المدثر 40 - 48)

تذكير من أجل الخلاص من العذاب الأبدي

قمنا هنا بتلخيص حال الإنسان (الذي لم يخلقه الله عبثا ولم يترك حبله على غاربه) سواء المؤمن منهم بالله تعالى أو المنكر منهم، ولكن يجب أن لا يغيب عن البال بأن الغاية من شرحنا هذا يختلف تماما عن هدف تقديم قصة الجنة وجهنم بالشكل الذي اعتاد الناس على سماعه منذ ولادته. فليس من هدفنا إعطـــاء معلومات دينية فقط بل التذكير وللمرة الأخيرة بأن ما يقاسونه من آلام وضيق في حياتهم الدنيا نتيجة إنكارهم وعدم إيمانهم سيستمر في الآخرة ولن يجدوا منه خلاصا.

ولاشك أن الإنسان حر في اختيار نمط عيشه في الحياة الدنيا، ولا يستطيع أي شخص أن يكره شخصا آخرا بأي شكل من أشكال الإكراه. ولكننا كمؤمنين بالله تعالى وبعدالته غير المحدودة نرى أن من واجبنا تنبيه الضالين والغافلين في حياتهم الدنيا عن الحقيقة لكي يخافوا وتخشع قلوبهم لأن الله تعالى يشرح مدى وخامة الوضع الذي يعيش فية هؤلاء فيقول تعالى:

﴿**أَفَمَنْ أسس بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أسس بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّــالِمِينَ**﴾ (التوبه 109)

إن الذين يديرون ظــهورهم لآيات الله وينكرون الله تعالى دون أي وعي أو شعور، لايوجد لهم أي خلاص في الآخرة ولا أي نجاة. إذن فالواجب على كل إنسان عندما يرى

الحقائق التحول عن الطريق المنحرف الذي يسير فيه دون إضاعة أي وقت وتسليم نفسه لله تعالى فإن لم يفعل هذا فسيعيش الندم الكبير الذي تشرحه الآية الآتية:

﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمْ الأمل فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الحجر 2 – 3)

أما طريق الخلاص من العذاب ومن الندم وكسب رضى الله تعالى وجنته فواضح وبين!

الإيمان بالله تعالى من صميم القلب ومن دون أي تأخير، وإفناء العمر في السعي للحصول على رضا الله تعالى.

انهيار الدّاروينية

لقد ظهرت النظرية الدّاروينية، يعني نظرية التطور بهدف رفض فكرة الخلق، بيد أنها لم تنجح في ذلك، واُعتبرت مجرد سفسطة خارجة عن نطاق العلم. وهذه النظرية تدّعي أن الكائنات الحية تولدت بطريق المصادفة من الكائنات غير الحية، وقد تم ردها ونقضها بعد أنّ أثبت العلم أنّ الكون والكائنات الحية تحتوي على أنظمة غاية في الإعجاز. وعلى هذا النحو أثبت العلم كذلك أن الله تعالى هو خالق الكون وخالق جميع الكائنات الحية.

وهذه النظرية لا تقوم سوى على مناقضة الحقائق العلمية والأكاذيب التي ترتدي لباس العلم وجملة من التزييفات، وقد تم القيام بحملة واسعة على نطاق العالم لكي تبقى هذه النّظرية قائمة على أقدامها، غير أن هذه الحملة لم تتمكن من إخفاء الحقيقة.

لقد تعالت الأصوات خلال الثلاثين سنة الماضية في دنيا العلم تبيّن بأن نظرية التطور تمثل أكبر خديعة في تاريخ العلم. وقد أثبتت الأبحاث التي أجريت بشكل خاص اعتبارًا من عام 1980 بأنّ الإدعاءات الدّاروينية عارية تماما من الصّحة، وقد تم التصريح بذلك من قبل العديد من كبار رجال العلم. ففي الولايات المتحدة بشكل خاص، صرح الكثير من علماء البيولوجيا والكيمياء الحيوية وعلم الحفريات وغيرها من العلوم الأخرى بأن الداروينية وصلت إلى طريق مسدود وأنّ أصل الكائنات الحية هو الخلق. واليوم تؤكد التطوّرات العلمية بأن الكون وجميع الكائنات الحية قد خُلقت من قبل الله تعالى.

لقد تناولنا مسألة انهيار نظرية التطور ودلائل الخلق في مواضع كثيرة من أعمالنا، وسوف نُواصل ذلك في أعمال أخرى. ولكن بالنظر إلى الأهمية البالغة التي يكتسيها هذا الموضوع رأينا أنه من الفائدة إيراد ملخص لذلك في هذا الموضع أيضا.

الانهيار العلمي للنظرية الداروينية

بالرغم من أن هذه النظرية تعود في جذورها إلى التاريخ الإغريقي القديم، إلا أنها شهدت أوسع انتشار لها في القرن التاسع عشر . كان أهم تطور شهدته النظرية هو صدور كتاب تشارلز داروين "أصل الأنواع" الذي صدر عام 1859. في هذا الكتاب ينكر داروين أن الأنواع المختلفة على الأرض قد خلقها الله. يقول داروين أن جميع الكائنات الحية لها جد مشترك وأنها قد تنوعت واختلفت بسبب اختلافات طارئة متدرجة أتت عليها عبر الأزمان.

وكما يقر داروين نفسه، فإن نظريته لا تقوم على أي حقيقة علمية ثابتة، بل إنها مجرد "إفتراض". علاوة على ذلك، يعترف داروين في فصل مطول من كتاب بعنوان "المصاعب التي تواجهها النظرية" أن النظرية تتهاوى أمام العديد من الأسئلة الحرجة.

عقد داروين آماله على الاكتشافات العلمية التي كان يظن أنها ستزيل العقبات التي تواجهها نظريته، إلا أن ما أثبتته هذه الاكتشافات جاء عكس ما تمناه الرجل.

وتظهر هزيمة داروين أمام العلم الحديث من خلال ثلاث نقاط رئيسية:

1-لم تتمكن هذه النظرية بأي وسيلة من الوسائل أن تفسر كيف نشأت الحياة على وجه الأرض.

2-لا يوجد أي اكتشاف علمي يدل على قدرة "التقنيات التطورية" التي تفترضها النظرية على التطور في أي حال من الأحوال.

3-مايثبته السجل الإحاثي هو عكس الادعاءات التي تقوم عليها نظرية التطور.

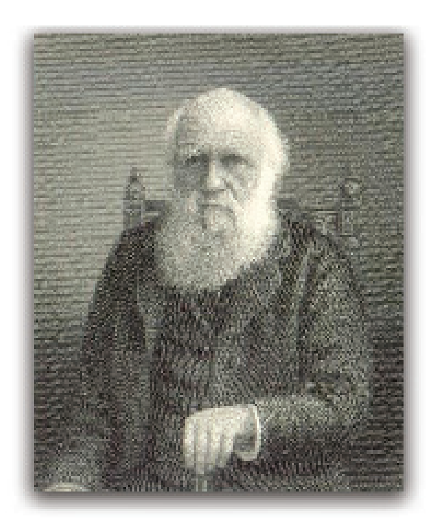
سنناقش في هذا الفصل هذه النقاط الثلاث الرئيسية:

العقبة الأولى التي لم تذلل: أصل الحياة

تقول نظرية التطور أن جميع الكائنات الحية قد تطورت عن خلية وحيدة ظهرت على سطح الأرض البدائية منذ 3.8 ملايين سنة. ولكن كيف يمكن لخلية وحيدة أن ينشأ عنها الملايين من الأنظمة والأنواع الحية؟ وإذا كان هذا التطور قد حدث فعلاً فلماذا لم تظهر علائمه في السجلات الإحاثية ، هذا سؤال لم تتمكن النظرية الإجابة عليه. إلا أن السؤال الأول الذي بقي يواجه هذه النظرية، التي لم تجد جوابا عليه حتى الآن، هو كيف نشأت "الخلية الأولى".

تفسر نظرية التطور، التي لا تعترف بالخلق ولا تقبل بوجود خالق، نشوء الخلية الأولى على أنها أتت عن طريق الصدفة التي تتضمنها قوانين الطبيعة. حسب هذه النظرية تكون المادة الحية قد نشأت من مادة غير حية نتيجة للعديد من المصادفات، ومن المؤكد أن هذا الزعم لا يتوافق مع أبسط قواعد علم الأحياء.

الحياة تنشأ من الحياة



شارلز داروين

في هذا الكتاب، لم يتطرق داروين إلى أصل الحياة. فقد كان الفهم البدائي لحقيقة الحياة في عصره يعتمد على الإفتراض بأن الكائنات الحية ذات بنيات بسيطة جداً. لقد لاقت نظرية النشوء التلقائي التي انتشرت في القرون الوسطى، والتي تقول أن المواد غير الحية تجمعت من تلقاء نفسها لتشكل كائن حي، رواجاً واسعاً في ذلك الزمن. من الاعتقادات التي نتجت عن هذه النتيجة هي أن الحشرات تنشأ عن بقايا الطعام، وأن الجرذان تأتي من القمح. هنا يجدر بنا أن نتعرض لتجربة مضحكة قام بها البعض، حيث تم وضع بعض القمح على قطعة وسخة من القماش، وكان المنتظر أن يخرج جرذاً بعد برهة من الزمن.

ومن المنطلق ذاته كان يعتقد أن الديدان تخرج من اللحم؛ إلا أنه لم يلبث العلم أن أثبت أن الديدان لا تخرج من اللحم بشكل تلقائي، وإنما يحملها الذباب بشكل يرقانات لا ترى بالعين المجردة.

كان هذا الاعتقاد سائداً في الزمن الذي كتب فيه داروين كتاب "أصل الأنواع" ، فقد كان يعتقد بأن البكتريا جاءت إلى الوجود من مادة غير حية وكان هذا الاعتقاد مقبوا علمياً.

لم يطل الوقت حتى أعلن باستور نتائج دراساته الطويلة وأبحاثه الكثيرة التي تدحض أساس نظرية داروين. قال باستور في محاضرته التي أعلن فيها عن انتصاراته في السوربون عام 1864:

"لا يمكن أن تستفيق نظرية النشوء التلقائي من الضربة الصاعقة التي أصابتها بها هذه التجربة البسيطة."

1

قاوم المدافعون عن النظرية الداروينية اكتشافات باستور لوقت طويل. إلا أن ماجاء به باستور بالإضافة إلى ما كشف عنه التقدم العلمي من البنية المعقدة لخلية المادة الحية، أبقيا فكرة وجود الحياة على سطح الأرض عن طريق الصدفة في مأزق لم تستطع الخروج منه.

المحاولات العاجزة في القرن العشرين

إن أول من تبنى موضوع منشأ الحياة في القرن العشرين كان التطوري المشهور ألكسندر أوبارين. تقدم هذا العالم بالعديد من الآراء العلمية في الثلاثينيات من ذلك القرن، حاول من خلالها إثبات إمكانية

تطور خلية الكائن الحي عن طريق الصدفة. إلا أن دراساته لم تنته إلا بالفشل، مما حدا بأوبرين تقديم الاعتراف التالي:

" للأسف، بقيت مشكلة منشأ الخلية الأولى أكثر النقاط غموضاً في دراسة تطور الأنظمة الحية".[2]

حمل التطوريون بعد أوبرين مسؤولية حل مشكلة منشأ الحياة. وكان أكثر هذه التجارب شهرة تلك التي قام بها الكيميائي الأمريكي ستانلي ميللر عام 1953. قام هذا العالم بدمج عدد من الغازات التي يفترض أنها كانت موجودة في المناخ البدائي للأرض، وأضاف إليها مقدار من الطاقة. من خلال هذه التجربة تمكن ميللر من تركيب عدد من الحموض الأمينية (الجزيئات العضوية) التي تتواجد في تركيب البروتينات.

إلا أنه لم تمض عدة سنوات حتى ثبت بطلان هذه النظرية، التي كانت تعتبر خطوة رائدة في تقدم نظرية التطور، فالمناخ الذي استخدم في هذه التجربة كان مختلفاً جداً عن الظروف الأرضية الحقيقية.[3]

وبعد فترة من الصمت اعترف ميللر أن المناخ الذي استخدمه في تجربته كان غير حقيقياً.[4]

لقد باءت جميع محاولات التطوريين في إثبات نظريتهم في القرن العشرين بالفشل. يعترف العالم الجيولوجي بادا من معهد سكريبس في سانت ياغو بهذه الحقيقة في مقالة نشرتها مجلة "الأرض" عام 1998:

"ها نحن اليوم نغادر القرن العشرين دون أن نتمكن من حل المشكلة التي بدأنا القرن معها وهي : كيف بدأت الحياة على الأرض؟"[5]

البنية المعقدة للحياة

السبب الرئيسي الذي أوقع نظرية التطور في مأزق "كيف بدأت الحياة" هو أن الكائنات الحية، حتى البسيطة منها، تنطوي على بنيات في غاية التعقيد. فالخلية الواحدة من الكائن الحي أكثر تعقيداً من أي منتج تقني صنعته يد البشر. فحتى يومنا هذا لا يمكن لأي مختبر كيميائي مهما بلغت درجة تطوره أن ينجح في تركيب خلية حية من خلال تجميع عدد من المواد العضوية مع بعضها.

إن الظروف المطلوب توفرها لتركيب خلية حية هي أكثر بكثير من أن تُعرض. فإمكانية تركيب أحد البروتينات التي تعتبر حجر الأساس في الخلية بشكل عشوائي هي 1 إلى 10^{950} وهذا بالنسبة لبروتين مكون من 500 حمض أميني؛ وفي الرياضيات يعتبر أي احتمال أصغر من 150 مستحيلاً!

إن جزيء الـــ DNA الذي يتواجد في نواة الخلية والذي يخزن المعلومات الوراثية، هو في حد ذاته بنك معلومات معجز. فلو أن المعلومات المشفرة في جزيء DNA قد أفرغت كتابة فإنها ستشغل مكتبة عملاقة مكونة من 900 مجلداً من الموسوعات كلا منها يتألف من 500 صفحة.

وهنا تنشا مشكلة أخرى مثيرة: فجزيء الـــ DNA لا يمكنه أن يتضاعف إلا بمساعدة بعض

البروتينات المختصة (الأنزيمات)، وهذه الأنزيمات لا يمكن أن تتشكل بدورها إلا من خلال المعلومات المشفرة في جزيء الـــ DNA. وبما أن كل منهما يعتمد على الآخر ، فمن الضروري أن يتواجدا في الوقت نفسه عند عملية التضاعف.وهذا يأتي بالنظرية القائلة أن الحياة قد نشأت من تلقاء نفسها إلى طريق مسدود. وقد اعترف البروفسور ليسلي أورجيل ، وهو تطوري مشهور من جامعة سانت ياغو كاليفورنيا بهذه الحقيقة من خلال موضوع نشر في مجلة العلوم الأمريكية عام 1994:

"من المستحيل أن تكون البروتينات والحموض الآمينية، وكلاهما جزيئات معقدة، قد نشأت من تلقاء نفسها في نفس الوقت وفي نفس المكان. أضف إلى عدم إمكانية تواجد أحدهما دون الآخر . وهكذا ومن النظرة الأولى يجد أحدنا أنه من المستحيل أن تكون الحياة قد نشأت من خلال عمليات كيميائية بحتة"[6]

لا شك أنه إذا كان من المستحيل أن تنشأ الحياة من أسباب طبيعية، فلا بد أنها قد "خلقت" بيد خالق. هذه الحقيقة تلغي نظرية التطور ، والتي تهدف بالدرجة الرئيسية إلى إنكار الخلق، من أساسها.

الأفكار الخيالية لنظرية التطور

النقطة الثانية التي تدحض نظرية داروين هي أن كلا المفهومين اللذين وضعتهما النظرية كـــ "تقنيات تطورية" ثبت أنها في الحقيقة لا تملك أي قوة تطورية.

لقد اعتمد داروين في خدعة التطور التي خرج بها على فكرة "الإصطفاء الطبيعي". وقد ضمن هذه الفكرة في كتابه: "أصل الأنواع ، عن طريق الاصطفاء الطبيعي..."

يقول قانون الاصطفاء الطبيعي أن الكائنات الحية التي تمتلك خصائص قوية فقط هي التي يمكن أن تبقى في معركة الحياة. على سبيل المثال، عندما تهاجم الحيوانات المتوحشة قطيعاً من الغزلان، فإن الغزلان الأقوى والتي يمكنها أن تركض بسرعة أكبر هي التي ستنجوا وتبقى على قيد الحياة. وهكذا يتشكل قطيع جديد من الأقوياء والسريعين فقط. ولكن، ولنفترض أننا سلمنا بهذا جدلاً، فهل يمكن لهؤلاء الأقوياء من قطيع الغزلان أن يتطوروا بأي شكل من الأشكال ليصبحوا خيولاً مثلاً؟ بالطبع لا.

لذلك نقول أن هذه الفكرة لا قوة تطورية لها. داروين نفسه كان قلقاً بشأن هذه الحقيقة التي وضعها في كتابه أصل الأنواع حيث قال:

"لا يمكن لقانون الاصطفاء الطبيعي أن يحقق شيئاً مالم تحدث تغييرات فردية إيجابية".[7]

تأثير لامارك

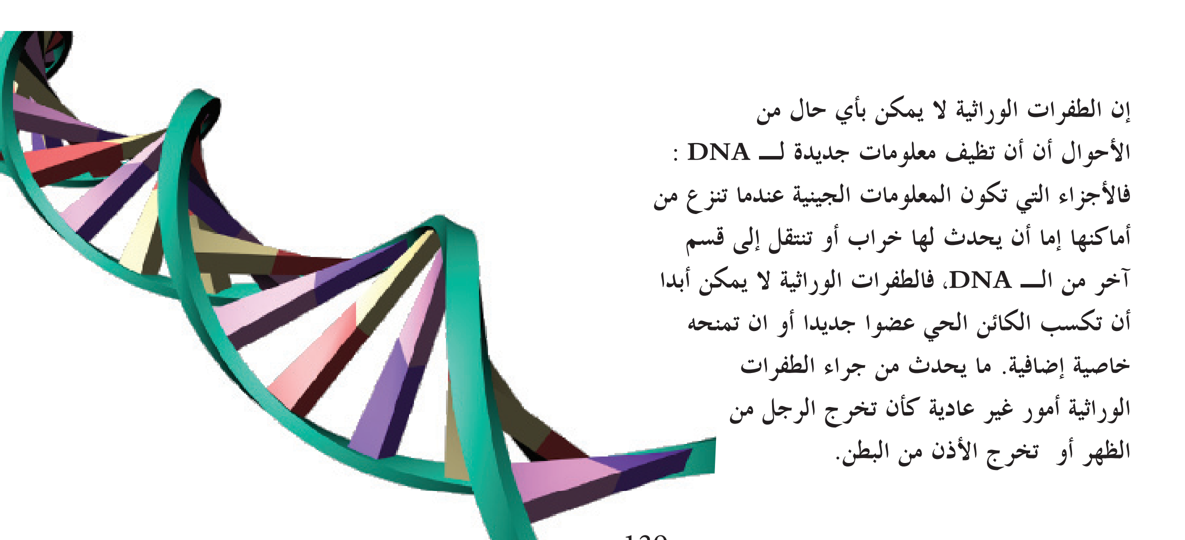
ولكن كيف تحدث هذه "التغيرات الإيجابية"؟ حاول داروين الإجابة على هذا السؤال من خلال الفهم البدائي للعلوم في ذلك الوقت. فحسب نظرية لامارك الذي عاش قبل داروين، فإن الكائنات الحية تورث صفاتها التي اكتسبتها خلال حياتها إلى الأجيال التالية ، وهذه الصفات تتراكم من جيل إلى آخر لتشكل أنواع جديدة من الكائنات الحية. فحسب لامارك، الزرافات هي كائنات تطورت عن الظباء عندما كانت تجاهد من أجل الوصول إلى الثمار التي تحملها الأشجار العالية، فطالت رقبتها من جيل إلى آخر حتى استقرت على هذا الطول.

وباقتفاء أثره، أورد داروين مثالاً مماثلاً في كتابه فقال أن الدبب غطست في الماء أثناء بحثها عن الطعام فتحولت إلى حيتان على مر الأجيال".[8]

إلا أنه ما لبثت أن ظهرت قوانين الوراثة على يد العالم ماندل في القرن العشرين، مما أحبط أسطورة امتداد الصفات عبر الأجيال. وهكذا سقط الاصطفاء الطبيعي كدعامة من دعامات نظرية التطور.

الداروينية الجديدة والطفرات

ومن أجل الوصول إلى حل، قام الداروينيون بتطوير "نظرية تركيبية جديدة" أو ما يدعى بـــ "الداروينية الجديدة" في نهاية الثلاثينيات من القرن العشرين. أضافت الداروينية الجديدة نظرية "الطفرات"وهي تشوهات جينية تطرأ على الكائن الحي وتحدث بفعل تأثيرات خارجية مثل التعرض إلى الإشعاعات وأخطاء في تضاعف الـــ DNA، بالإضافة إلى الطفرات الطبيعية.



إن الطفرات الوراثية لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تضيف معلومات جديدة لـــ DNA : فالأجزاء التي تكون المعلومات الجينية عندما تنزع من أماكنها إما أن يحدث لها خراب أو تنتقل إلى قسم آخر من الـــ DNA، فالطفرات الوراثية لا يمكن أبدا أن تكسب الكائن الحي عضوا جديدا أو ان تمنحه خاصية إضافية. ما يحدث من جراء الطفرات الوراثية أمور غير عادية كأن تخرج الرجل من الظهر أو تخرج الأذن من البطن.

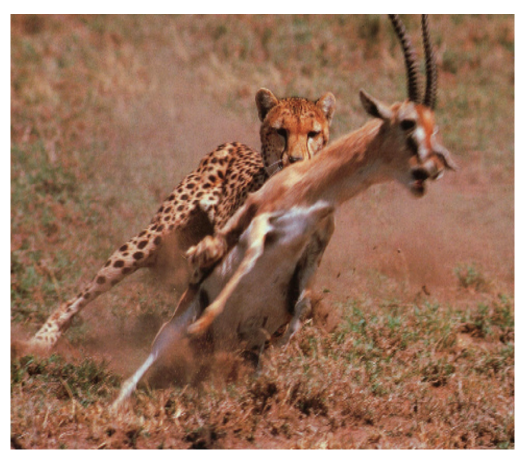
و النموذج الذي يقف مدافعاً اليوم عن نظرية التطور هو الداروينية الجديدة.تقول هذه النظرية الجديدة ـــأن الملايين من الأحياء المتواجدة على سطح الأرض قد جاءت نتيجة لطفرات طرأت على الأعضاء المعقدة لهذه الكائنات مثل الآذان والعيون والرئات والأجنحة، أي إضطرابات وراثية. إلا أن الحقيقة العلمية تأتي في عكس الاتجاه المطلوب. فالطفرات لم تكن في يوم من الأيام إيجابية تؤدي إلى تقوية وتعزيز القدرة الحيوية الكائن الحي، وإنما إلى إنهاكها وإضعافها..

والسبب وراء هذا ببساطة هو أن جزيء DNA يحمل بنية معقدة جداً وأي تغيير عشوائي فيها سيؤدي ضرراً كبيراً. يشرح عالم الجينات رانغاناتان الموضوع كالتالي:

"أولاً، الطفرات الجينية نادرة الحدوث. ثانياً الطفرات في معظمها ضارة ومهلكة في بعض الأحيان لأنها تغيرات عشوائية ، وأي تغير غير منظم، علاوة على المنظم ، في أي كائن حي راقييتنحدر به نحو الأسوء ولا ترتقي به إلى الأفضل. فالهزة الأرضية التي قد تصيب أحد الأبنية على سبيل المثال، ستتسبب في تغيير في الإطار العام لها، وهذا بالطبع ما لن يكون تحسيناً في البناء."[9]

لهذا ليس غريباً غياب أي دليل على وجود طفرة كانت السبب في تغيير الشفرة الوراثية نحو الأفضل. على العكس فجميع الطفرات كانت ناكسة . أصبح واضحاً إذاً أن الطفرة التي اعتبرت من تقنيات التطور لا تجلب على الكائن الحي إلا المزيد من الضعف وتجعله عاجزاً. (من التأثرات الشائعة للطفرة في العصر الحديث مرض السرطان). وطبيعي أن لا تكون تقنية مدمرة من تقنيات "التطور"، كما لا يمكن لـــ "الاصطفاء الطبيعي " أن ينجز شيئاً بنفسه. وهذا يعني أنه لا يوجد تقنيات تطور في الطبيعة. وبانتفاء وجود هذه التقنيات تنتفي عملية التطور.

ليس هناك أي مكسب حصل لنظرية النشوء والإرتقاء من فكرة الانتقاء أو الاختيار الطبيعي. ذلك لأن هذه الآلية لم تعمل في يوم من الأيام على تطوير المعلومات الجينية أو إغنائها لدى أي نوع من الأنواع. إنه لا يمكن لأي نوع أن يتغير إلى نوع آخر مختلف عنه؛ بمعنى أن التطور لا يمكن أن يغير نجم البحر فيصبح سمكة، أو يغير الأسماك فتصبح ضفادع، أو يغير الضفادع فتصبح تماسيح أو يغير التماسيح فتصبح طيورا.



السجلات الإحاثية:

لا دليل على وجود أشكال مرحلية

في الحقيقة لا يوجد أي دليل في سجل المستحاثات على أكثر الادعاءات وضوحاً في سيناريو نظرية التطور.

حسب نظرية التطور، فإن كل كائن حي قد نشأ عن كائن قبله، أي أن الكائنات السابقة قد تحولت إلى كائنات أخرى، وكل الأنواع نشأت بهذه الطريقة. وحسب النظرية، فإن هذه التحولات استغرقت ملايين السنين.

وإذا كان هذا الافتراض حقيقي ، فمن الضروري وجود عدد كبير من الأنواع المرحلية التي عاشت في فترة التحول الطويلة. على سبيل المثال لابد من وجود كائن نصفه سمكة ونصفه سلحفاة يحمل صفات السلحفاة بالإضافة إلى صفات الأسماك التي يحملها أصلاً. أو كائنات نصفها طير والنصف الآخر زواحف، أي تحمل بعض صفات الطيور بالإضافة إلى صفات الزواحف التي تحملها أصلاً. وبما أنها في الطور المرحلي، فهي كائنات عاجزة غير مؤهلة، ومعاقة؛ ويطلق التطوريون على هذه الأشكال الخيالية إسم "الأشكال التحولية"

لو كان هناك حيوانات كتلك حقاً، فيجب أن يكون هناك الملايين بل البلايين منها وبشكل متنوع. والأهم من ذلك يجب أن تحمل سجلات المستحاثات بقايا هذه الأحياء الغريبة. يقول داروين في كتابه "أصل الأنواع":

"إذا كانت نظريتي صحيحة، فلابد من وجود عدداً كبيراً من الأنواع المختلفة التي تصنف ضمن فئة واحدة، وهذا الوجود ستثبته السجلات الإحاثية". [10]

آمال داروين تتبدد

بالرغم من جميع محاولات التطوريين الجادة في إيجاد مستحاثات تدعم تصوراتهم في وجود مخلوقات تحولية في منتصف القرن العشرين في جميع أنحاء العالم، إلا أنهم لم يجدوا أ ياً منها . لقد أثبتت جميع المستحاث التي اكتشفت أثناء الحفريات الجيولوجية عكس ما قالت به النظرية الداروينية تماماً: لقد نشأت الحياة فجأة وبتشكل تام لا وجود لأي شكل تحولي.

أقر أحد علماء التطور، العالم الإنجليزي ديريك آغر Derek Ager بهذه الحقيقة عندما قال:

النقطة هي أننا عندما قمنا بتقصي السجل الإحاثي بالتفصيل سواء على مستوى الأنواع أو الترتيب الزمني المرة تلو المرة، لم نجد تطور تدريجي أو مرحلة انتقالية، وإنما ظهور مفاجئ لمجموعة من الكائنات





إنّ علماء الأحياء الذين هم من أنصار نظرية التطور قد أخذوا يبحثون عن نموذج مفيد للطفرات الأحيائية حيث عرَّضوا الذباب للطفرات الأحيائية منذ بداية القرن، إلا أنه في نهاية تلك المساعي والمجهودات لم يتم الحصول إلا على ذباب مريض، وعليل، وغير تام. ويوجد في الأعلى وعلى اليسار صورة لذبابة فاكهة طبيعية، وفي الأسفل وعلى اليمين توجد ذبابة فاكهة أخرى تعرضت للطفرات الأحيائية وخرجت سيقانها من رأسها، أما في أعلى اليمين فتوجد ذبابة فاكهة قد خرجت أجنحتها بشكل مشوه وذلك بالطبع نتيجة لما تعرضت له من طفرات أحيائية.

على حساب أخرى.[11]

هذا يعني أن السجل الإحاثي يبرهن أن جميع الكائنات الحية قد ظهرت على الأرض بشكل مفاجئ بأشكالها التامة، ودون أي طور تحولي، وهذا عكس الإدعاء الدارويني تماماً وإثبات قوي على حقيقة الخلق. فالتفسير الوحيد لنشوء الكائنات الحية بشكل مفاجئ على سطح الأرض بشكلها الكامل ودون تطور عن أجداد سابقين، إنما يعني أن هذه الأنواع قد خلقت خلقاً. ويقر هذه الحقيقة عالم الأحياء التطوري دوغلائس فيوتويما:

"الخلق والتطور، وبينهما التفسيرات المحتملة عن أصل الكائنات الحية. فإما أن تكون الأنواع قد ظهرت على سطح الأرض بتكوينها الكامل، أو لا تكون. إذا لم يكن الأمر كذلك فهذا يعني أنها قد تطورت عن أنواع وجدت مسبقاً من خلال بعض عمليات التحول. أما إذا كانت قد ظهرت بشكلها الكامل ، فلابد أنها قد خلقت خلقاً.[12]

والمستحاثات تثبت أن الكائنات الحية قد نشأت بشكلها المكتمل على سطح الأرض، وهذا يعني أن "أصل الأنواع" ليس كما يدعي داروين، إنه خلق وليس تطور.

قصة تطور الإنسان

الموضوع الذي يحاول مؤيدوا نظرية التطور الكلام به دائماً هو موضوع أصل الإنسان. يدعي

الداروينيون أن الإنسان الحالي قد تطور عن نوع من أشباه القردة. وخلال هذه العملية التطورية المزعومة، التي يفترض أنها استغرقت من 4-5 ملايين عاماً، ظهرت "أشكال تحولية" تفصل بين الإنسان الحديث وأجداده، كما يزعمون. وحسب هذه الصورة الخيالية البحتة، صنفت هذه الأشكال في أربعة فئات:

1-أوسترالوبيثيكوس

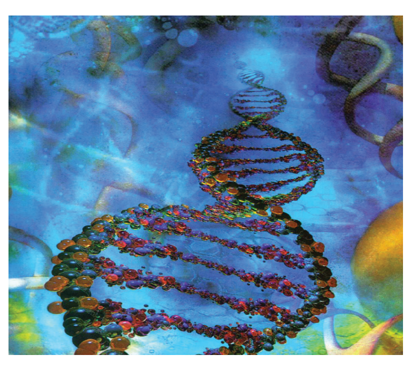
2-هومو هابيليس.

3-هومو أريكتوس

4-هومو سابينس

يطلق التطوريون على الجد الأول للإنسان " أوسترالوبيثيكوس" ويعني "قرد جنوب إفريقيا".والحقيقة هو أن هذا المخلوق ليس إلا نوعا من القرود القديمة المنقرضة. أثبتت الأبحاث الواسعة التي أجراها عالما التشريح ، اللورد سولي زوكرمان والبروفسور تشارلز أوكسنارد، من إنكلترا والولايات المتحدة، على مستحاثات أوسترالوبيثيكوس أن هذه المستحاثات تعود إلى أنواع عادية من القردة التي انقرضت والتي لا تحمل أي شبه مع الإنسان.[13]

والفئة الثانية التي يصنفها التطوريون هي "هومو" وتعني "الإنسان" وحسب نظرية التطور، فإن سلالة الهومو أكثر تطوراً من سلالة أوسترالوبيثيكوس. وهنا اخترع التطوريون خطة مثيرة بتركيبهم لهدة مستحاثات من هذه المخلوقات ووضعها بترتيب معين. إلا أن تلك الخطة خيالية لأنه لم يثبت وجود أي علاقة تطورية بين هذه الفئات المختلفة. يقول أحد أهم المعلقين على نظرية التطور إيرنست ماير في كتابه "من المناظرات الطويلة:



" تعتبر الأحجية التاريخية التي تتكلم عن أصل الحياة أو أصل الهومو سابينس أحجية صعبة حتى أنها تتعارض مع الاكتشافات الأخيرة."[14]

ومن خلال السلسلة التي وضعها التطوريون فإن الفئات الأربع: أوسترالوبيثيكوس، هومو هابيليس، هومو أريكتوس، هومو سابينيس ناشئة عن بعضها البعض. إلا أن الاكتشافات الأخيرة التي ظهرت على يد علماء المستحاثات البشرية قد أثبتت أن هذه الفئات الأربعأوسترالوبيثيكوس ، هومو هابيليس، هومو أريكتوس، هومو سابينيس قد عاشت في بقاع مختلفة من العالم وفي زمن واحد.[15]

علاوة على هذا، فإن الأجزاء البشرية التي صنفت في فئة "هومو أريكتوس" لم تنقرض حتى وقت قريب جداً، أما النياندرتاليين والهوموسابينيس فقد تعايشوا في زمن واحد وفي منطقة واحدة.[16]

هذا الاكتشاف يدحض الادعاء بأن أحد منهم يمكن أن يكون جداً للآخر. يفسر عالم الأحياء القديمة ستيفن جاي غولد Stephen Jay Gould من جامعة هارفارد النهاية المسدودة التي وصلت إليها نظرية التطور، بالرغم من أنه عالم تطوري:

ماذا سيكون مصير فكرتنا إذا كان هناك تزامن معيشي لثلاث من فئات الهومو (الإفريقي والأوسترالوبيثيكوس القوي والهومو هابيليس) وثبت أن أحداً منهم لم ينشأ عن الآخر؟ أضف إلى أن أحدا من هؤلاء لم يثبت عليه أي تحول تطوري خلال فترة حياته على سطح الأرض.[17]

نقول باختصار، أن سيناريو التطور البشري الذي ينص على وجود مخلوق نصفه إنسان ونصفه قرد والذي قام على استخدام العديد من الصور الخيالية التي ظهرت في الكتب الدعائية لنظرية التطور، ليست إلا قصة لا أساس لها من الصحة العلمية.

وبالرغم من كون العالم سولي زوكرمان، الأكثر شهرة في المملكة المتحدة، عالماً تطورياً، إلا أنه اعترف في نهاية أبحاثه، التي استغرقت عدة سنوات والتي تناولت بشكل خاص مستحاثات أوسترالوبيثيكوس لمدة 15 عاماً، أنه لا يوجد شجرة بشرية تتفرع عن مخلوقات شبيهة بالقرود.

صنف زوكرمان العلوم ضمن طيف أسماه "طيف العلوم" يتدرج من العلوم التي يعتبرها علمية لينتهي في العلوم التي يعتبرها غير علمية. وحسب طيف زوكرمان، فإن أكثر العلوم "علمية" — أي التي تقوم على بيانات ومعلومات ملموسة– هي الفيزياء والكيمياء، تليهما العلوم البيولوجية وفي الدرجة الأخيرة العلوم الاجتماعية. وفي نهاية الطيف تأتي العلوم "غير العلمية" والتي يحتل مكانها "الإدراك الحسي المفرط" — وهي مفاهيم الحاسة السادسة والتيليباثي (التخاطر عن بعد) — ويليها "التطور البشري". ويشرح لنا زوكر عمله هذا:

نحن هنا إذاً نتحول من الحقيقة المسجلة موضوعياً إلى تلك المجالات التي يشغلها علم الأحياء الافتراضي، مثل الإدراك الحسي المفرط، أو التفسير التاريخي للمستحاثات الإنسانية، والتي يبدو فيها كل شيء جائز بالنسبة للتطوري، حيث يكون التطوري مستعداً لتصديق العديد من الأمور المتناقضة في وقت واحد.[18]

لقد انحدرت قصة التطور البشري لتصل إلى مستوى التفسيرات المتحيزة لبعض المستحاثات التي استخرجها بعض الأشخاص الذين تعلقوا بهذه النظرية بشكل أعمى.

المعادلة الداروينية

إلى جانب كل ما تناولناه إلى الآن من أدلة تقنية ، نود أن نوجز ـــ إن شئتم ـــ وبمثال واضح بحيث يمكن حتى للأطفال أن يفهموه ، كيف أن التطوريين أولو عقيدة خرفاء فاسدة .

تزعم نظرية التطور أن الحياة تشكلت محض صدفة؛ وعليه وطبقاً لهذا الزعم فإن الذرات الجامدة وغير الواعية اجتمعت وشكلت أولاً خلية، ثم جاءت الذرات نفسها بطريقة أو بأخرى بالكائنات الحية والبشر. ولنفكر الآن: إننا حينما نجمع عناصر مثل الكربون والفسفور والأزوت والبوتاسيوم وهي المفردات الأساسية في بنية الكيان الحي، فإنه تتشكل كومة. ومهما مرت كومة الذرات هذه بأي من العمليات، فإنها لا يمكن أن تشكل كائنا حيا واحدًا. ولنجر تجربة في هذا الصدد إذا ما شئتم ، ولنتناول بالبحث والاستقصاء، باسم التطوريين وتحت عنوان "المعادلة الداروينية"، الزعم الذي ينافحون عنه في الأصل، إلا أنهم لا يستطيعون أن يجهروا به:

فليضع التطوريون كميات وفيرة من عناصر مثل الفسفور والأزوت والكربون والأوكسجين والحديد والماغنسيوم وهي العناصر التي تتشكل منها بنية الكائن الحي، داخل أعداد هائلة من البراميل العظيمة. وليضيفوا حتى إلى هذه البراميل ما يرون أنه من الضروري وجوده داخل هذا المزيج من مواد لا توجد حتى في الظروف الطبيعية. وليفعموا هذا المزيج بقدر ما يشاؤون من الأحماض الأمينية، والبروتين (احتمال تشكل الوحدة الواحدة منه تصادفياً بنسبة 10 قوة 950). وليمدّوا هذا المزيج بالحرارة والرطوبة بالنسبة التي يرونها مناسبة، وليخفقوه ما شاؤوا من الأجهزة المتطورة، وليقيّضوا على رأس هذه البراميل صفوة علماء العالم، ولينتظر هؤلاء الخبراء في مكانهم هذا وبشكل مستمر مليارات، بل تريليونات السنين بالتناوب من الأب إلى الابن، ومن جيل إلى جيل، ولتكن لهم مطلق الحرية في أن يستخدموا كافة ما يعتقدون في ضرورة وجوده من الظروف من أجل تشكل الكائن الحي. إنّهم مهما فعلوا، ليس بمقدورهم بالطبع أن يُخرجوا كائنا حيّا من تلك البراميل. ولا يتأتى لهم أن يأتوا بواحدة من الزّرافات أو الأسود أو النحل أو عصافير الكناريا أو البلابل أو الببغاوات أو الخيل أو حيتان يونس أو الورود أو زهور الأوركيد أو الزنابق أو زهور القرنفل أو الموز أو البرتقال أو التمر أو الطماطم أو الشمام أو البطيخ أو التين أو الزيتون أو العنب أو الخوخ أو الطواويس أو طيور الدُّراج أو الفراشات مختلفة الألوان وملايين من الأنواع الحية من مثل هؤلاء. بل ليس بوسعهم أن يأتوا ولو بخلية من هذه الكائنات الحية التي أحصينا عدداً منها، لا بواحدة منها كاملة الخلق.

جملة ما نبغي قوله هو أن الذرات غير الواعية ليس بوسعها أن تجتمع فتشكل خلية حية، ولا تستطيع أن تتخذ قرارًا جديدًا من بعد فتقسم الخلية نصفين، ثم تتخذ قرارات أخرى تباعًا فتأتي بكيان العلماء الذين اخترعوا المجهر الإليكتروني، ممن يراقبون بنية الخلية ذاتها فيما بعد تحت المجهر. إنّ الخلية تدب فيها الحياة فقط بالخلق المعجز لله عز وجل. أما نظرية التطور التي تزعم عكس هذا، فهي سفسطة تتنافى تماما مع العقل والمنطق. وإن إعمال الفكر ولو قليلا في المزاعم التي طرحها التطوريون، ليظهر بجلاء هذه الحقيقة مثلما في النموذج الوارد أعلاه.

التقنية الموجودة في العين والأذن

أما الموضوع الآخر الذي لم تستطع نظرية التطور أن تأتي له بتفسير جازم، فهو جودة الإدراك الفائقة الموجودة في العين والأذن.

وقبل الولوج إلى الموضوع المتعلق بالعين، نود أن نجيب بإيجاز عن سؤال هو: كيف تبصر العين ؟

إن الأشعة المنبعثة من جسم ما، تسقط بشكل عكسي على شبكية العين، وتقوم الخلايا الموجودة هنالك بتحويل هذه الأشعة إلى إشارات كهربية، تصل إلى نقطة تسمى مركز الإبصار موجودة بالجزء الخلفي للمخ. وهذه الإشارات الكهربية، بعد مجموعة من العمليات يتم التقاطها كصورة في هذا المركز الكائن في المخ. وبعد هذه المعلومة فلنفكر:

إن المخ محجوب عن الضوء، بمعنى أن داخل المخ ظلامًا دامسًا، ولا يتأتى للضوء أن ينفذ إلى حيث يوجد المخ. والموضع الذي يسمى مركز الإبصار موضع حالك الظلمة ليس الضوء ببالغه أصلا، ولعله مظلم بدرجة لم نصادفها قط. إلا أنكم في هذه الظلمة الحالكة تشاهدون عالما مضيئا متوهجا.

فضلا عن كونه منظرًا على درجة من النقاء والجودة تعجز حتى تقنية القرن الحادي والعشرين ـــ رغم كل الإمكانيات ـــ أن تأتي بمثلها. انظروا مثلا إلى الكتاب الذي بين أيديكم الآن، وانظروا إلى أيديكم التي تمسك الكتاب، ثم ارفعوا رأسكم وانظروا حولكم. أرأيتم منظرًا بهذا النقاء والجودة في أي موضع آخر؟ إن شاشة أكثر أجهزة التلفاز تطورًا والتي تنتجها شركة أجهزة التلفاز الأولى على مستوى العالم، لا يمكن أن تمنحكم صورة بهذا القدر من النقاء. ومنذ مائة عام وآلاف المهندسين يسعون للوصول إلى هذا النقاء، ومن ثم تُشيَّد المصانع والمؤسسات العملاقة، وتُجرى الأبحاث، ويتم تطوير الخطط والتصميمات. ولتنظروا ثانية إلى شاشة التلفاز، وفي اللحظة ذاتها إلى الكتاب الذي بين أيديكم، فسوف ترون أن هناك فرقاً شاسعاً في النقاء والجودة. فضلا أن شاشة التلفاز تبدي لكم صورة ثنائية الأبعاد، في حين أنكم تتابعون مناظر ثلاثية الأبعاد ذات عمق.



ومنذ سنوات طوال يسعى عشرات الآلاف من المهندسين لتصنيع

شاشات جهاز تلفاز تعطي صورة ثلاثية الأبعاد، والوصول إلى جودة رؤية العين. نعم لقد أمكنهم تصميم نظام تلفاز ثلاثي الأبعاد، غير أنه ليس في الإمكان رؤيته ثلاثي الأبعاد دون ارتداء النظارة. ومع أن هذه الأبعاد الثلاثة اصطناعية. فالجهة الخلفية تظل عكرة، أما الجهة الأمامية فتبدو وكأنها صورة من ورق. ولا يتشكل أبدا منظر في جودة ونقاء المنظر الذي تراه العين. ويحدث بالطبع أن تضيع الصورة في الكاميرا والتلفاز.

وها هم التطوريون يزعمون أن آلية الإبصار في العين والتي تظهر هذا المنظر الذي يتسم بالجودة والنقاء، إنما تشكلت بمحض المصادفة . والآن إذا ما قال أحد لكم إن التلفاز الموجود في حجرتكم، إنما قد تشكل نتيجة مصادفات، وأن الذرات تجمعت وجاءت بالجهاز الذي يشكل هذه الصورة، ماذا تعتقدون فيه؟! كيف لذرات غير واعية أن تصنع ما لم يتأت لآلاف الأشخاص مجتمعين أن يصنعوه ؟!

إنّ الآلة التي تشكل منظرًا هو أكثر بدائية مما تراه العين، لو أنها لا تتشكل مصادفة، فإنه من الواضح للغاية أن العين والمنظر الذي تراه بدورهما لن يتشكلا محض مصادفة، والحال كذلك بالنسبة للأذن. فالأذن الخارجية تجمع الأصوات المحيطة بواسطة صوان الأذن، وتقوم بتوصيلها إلى الأذن الوسطى، لتقوم هي الأخرى بتقوية الذبذبات الصوتية ونقلها إلى الأذن الداخلية، لتقوم بدورها بتحويل هذه الذبذبات إلى إشارات كهربية، وإرسالها إلى المخ. وعملية السمع أيضا كما هو الشأن في عملية الإبصار تتم في مركز السمع الموجود في المخ.

والوضع الذي في العين يسري كذلك على الأذن. بمعنى أن المخ محجوب كذلك عن الصوت مثلما هو محجوب عن الضوء، فالصوت لا ينفذ، وعليه فإنه مهما بلغت شدة الضجيج خارج المخ، فإن داخله ساكن تمام السكون. ورغم هذا فإن أنقى الأصوات تُلتقط في المخ. ولو أنكم تسمعون سيمفونيات أوركسترا في مخكم الذي لا ينفِذ إليه الصوت، فإنكم تشعرون بكل صخب أحد الأوساط المزدحمة. وإذا ما قيس مستوى الصوت الذي بداخل المخ باستخدام جهاز حساس في تلك اللحظة، فسيتضح أنه يُطبق عليه السكون التام.

وعلى نحو ما استخدمت التقنية أملا في الحصول على صورة نقية، فإن المساعي نفسها تتواصل منذ عشرات السنين بالنسبة كذلك للصوت. وتُعد أجهزة تسجيل الصوت وأشرطة الكاسيت وكثير من الأجهزة الإليكترونية، والأنظمة الموسيقية التي تلتقط الصوت، بعض ثمار هذه المساعي. ولكن على الرغم من كل التقنيات، وآلاف المهندسين والخبراء العاملين بحقلها، لم يتأت الوصول إلى صوت بنقاء وجودة الصوت الذي تلتقطه الأذن. وتأملوا أجود أشرطة الكاسيت التي تنتجها كبرى شركات الأنظمة الموسيقية، فحينما يسجل الصوت، حتما يضيع شطر منه، أو يحدث تشوش بالطبع ولو قليلا، أو أنه حينما تقومون بتشغيل شريط الكاسيت فإنكم لا بد أن تسمعوا له صريرًا قبل أن تبدأ الموسيقى. في حين أن الأصوات التي من نتاج التقنية الموجودة بالجسم الإنساني تتسم بأقصى درجات النقاء، ولا تشوبها شائبة. ولا تلتقط أذن إنسان أبدًا الصوت بشكل به صرير أو تشويش. وأيا ما كانت طبيعة الصوت فإنها تلتقطه بشكل كامل ونقي. وهذا الوضع لا يزال على ذات الكيفية منذ أن خُلق الإنسان وإلى يومنا هذا.

وإلى الآن ليس ثمة جهاز بصري أو صوتي من صنع بني الإنسان يلتقط الصورة والصوت بشكل حساس وناجح مثل العين والأذن.

وفيما عدا هذا كله، فإنه ثمة حقيقة عظيمة للغاية في عملية الإبصار والسمع.

لمن تعود حاسة الإبصار والسمع داخل المخ ؟

من ذا الذي بداخل المخ يشاهد عالما مضيئا ملونا، ويسمع السيمفونيات وزقزقة العصافير، ويتنسم عبير الورود؟ إن التنبيهات الآتية من عيني الإنسان وأذنيه وأنفه تمضي إلى المخ في صورة إشارة كهربية. وإنكم لتطالعون تفصيلات كثيرة في كتب علم الأحياء والطبيعة والكيمياء الحيوية، بيد أنكم لا يمكن أن تصادفوا في أي موضع قط أهم حقيقة ينطوي عليها هذا الموضوع ألا وهي: من ذا الذي بالمخ يتلقى هذه الأشارات الكهربية ويدركها على أنها صورة وصوت ورائحة وإحساس. إن ثمة حاسة توجد بداخل المخ تلتقط هذا كله دون حاجة إلى عين أو أذن أو أنف، لمن تعود هذه الحاسة. بالطبع لا تعود على ما يشكل المخ من أعصاب وطبقات دهنية وخلايا عصبية. وهكذا ولهذا السبب ليس بمقدور الماديين الداروينيين ممن يظنون أن كل شيء ليس سوى مادة، أن يجيبوا على هذه التساؤلات، لأن هذه الحاسة إنما هي الروح التي خلقها المولى عز وجل. فهي لا تحتاج إلى عين حتى ترى الصورة، ولا أذن حتى تسمع الصوت. وعلاوة على هذا كله، فهي ليست بحاجة إلى مخ كيما تفكر. إن كل امرئ يطالع هذه الحقيقة العلمية الجلية، عليه أن يفكر في الله عز وجل الذي جمع بمكان حالك الظلمة داخل المخ يقدَّر بعدة سنتيمترات مكعّبة، الكائنات كافة بصورة ثلاثية الأبعاد ذات ألوان وظلال وضياء، ويخشاه ويلوذ به.

عقيدة مادية

إن ما تناولناه إلى الآن بالبحث والتدقيق ليظهر أن نظرية التطور ما هي إلا زعم يتعارض بوضوح مع الاكتشافات العلمية، ويجافي زعم النظرية ــــ فيما يتعلق بأصل الحياة ــــ المنطق العلمي. فليس لأية آلية تطور قط طرحتها النظرية أي تأثير تطوري. وتكشف الحفريات أن الكائنات الحية لم تمر بمراحل بينية تلك التي تستوجبها النظرية. وفي هذه الحالة يتعين تنحية نظرية التطور جانبا باعتبارها فكرة مجافية للعلم. لا سيما وأن كثيرًا من الأفكار التي ظهرت على مدار التاريخ، مثل فكرة أن الأرض هي مركز الكون،

قد حُذفت من أجندة العلم. في حين أن نظرية التطور يُتشبث بها وبإصرار في هذه الأجندة، حتى إنه من الناس من يسعى لإظهار أي انتقاد موجه إلى النظرية وكأنه هجوم على العلم ! لِمَ هذا إذن؟!

إن السبب في هذا الوضع إنما هو تكون عقيدة جازمة لنظرية التطور لا يمكن النكوص عنها بالنسبة إلى بعض الأوساط. وتخلص هذه الأوساط إخلاصاً أعمى للفلسفة المادية، وتتبنى الداروينية كذلك لأنها التفسير المادي الوحيد للطبيعة الذي يمكن الإتيان به.

وأحيانا يعترفون صراحة بهذا، ويعترف ريتشارد لونتين (Richard Lewontin) ــ عالم الوراثة الشهير بجامعة هارفرد وفي الوقت ذاته تطوري بارز، ــ بأنه "مادي في المقام الأول، ثم عالم في المقام الذي يليه"، إذ يقول:

"إن لنا إيمانا بالمادية، وهو إيمان استباقي (اعتُنق سلفا، وافترضت صحته). والشيء الذي يدفعنا إلى الإتيان بتفسير مادي للعالم، ليس هو أصول العلم وقواعده، بل على العكس من ذلك فإننا ــ بسبب من إخلاصنا سلفا للمادية ــ نختلق أصول ومفاهيم بحثية تأتي بتفسير مادي للعالم. ونظرا إلى كون المادية صحيحة صحة مطلقة، فإننا لا يمكن أن نسمح بدخول تفسير إلهي إلى الساحة".[19]

وتُعد هذه الكلمات اعترافات صريحة بأن الداروينية مولود يحيا في سبيل الإخلاص للفلسفة المادية. وهذا المولود يفترض أنه ما من وجود قط سوى المادة. ولهذا السبب يعتقدون أن المادة الجامدة عديمة الوعي إنما خلقت الحياة. ويذهبون إلى أن ملايين الأنواع الحية المختلفة مثل الطيور والأسماك والزرافات والنمور والحشرات والأشجار والأزهار وحيتان البال والبشر إنما تشكلت من داخل المادة الجامدة وبالتفاعلات الحادثة داخل المادة ذاتها؛ أي بالمطر الساقط، والبرق الخاطف. أما في حقيقة الأمر فإن هذا يتنافى مع العقل والمنطق على السواء. بيد أن الداروينيين يستمرئون المنافحة عن هذا الرأي بُغية "عدم دخول تفسير إلهي إلى الساحة" على حد تعبيرهم.

أما من لا ينظرون إلى أصل الكائنات الحية وفي أذهانهم حكم مادي مسبق، فسوف يدركون هذه الحقيقة الجلية. والكائنات الحية كافة إنما هي من صنع خالق ذي قوة وعلم وعقل معجز. إنه الله الذي خلق الكون كله من العدم، ونظّمه بشكل لا تشوبه شائبة أو قصور، وخلق الكائنات الحية كافة وصوّرها.

إن نظرية التطور هي أشد السحر تأثيراً في تاريخ العالم

يتعين هنا أن نوضح أن أيما إنسان يُعمِل عقله ومنطقه دون أحكام مسبقة ودون الوقوع تحت تأثير أي أيديولوجية، سيدرك بسهولة ويسر أن نظرية التطور التي تذكرنا بخرافات المجتمعات التي عاشت بمنأى عن العلم والحضارة، ليست سوى زعم يستحيل تصديقه.

وعلى النحو المتقدم تبيانه، فإن من يؤمنون بنظرية التطور يعتقدون أن الأساتذة الذين يفكرون ويعقلون

ويخترعون، والطلاب الجامعيين والعلماء مثل إينستين هوبل (***Einstein Hubble***)، والفنانين مثل فرانك سيناترا (***Frank Sinatra***) وتشارلتون هيستون (***Charlton Heston***)، يضاف إليهم كائنات مثل الغزلان وأشجار الليمون وزهور القرنفل، سوف يخرجون مع مرور الزمان من مزيج من كثير من الذرات والجزئيات والمواد غير الحية التي تملأ برميلا عظيما. لا سيما وأن من يؤمنون بهذا الخَرَف هم علماء وأساتذة وأناس على قدر من الثقافة والتعليم. ولهذا السبب فإن استخدام تعبير "أشد السحر تأثيرًا في تاريخ العالم" بالنسبة إلى نظرية التطور سيكون استخدامًا في محله. إذ إنه ليس في تاريخ العالم اعتقاد أو زعم آخر سلب عقول البشر بمثل هذه الدرجة وحرمهم من فرصة التفكير بالعقل والمنطق، وكأنه أسدل ستارًا أمام أعينهم، حال دون أن يروا الحقيقة التي كانت واضحة بجلاء. وإنّ هذا لغفلة وعدم بصيرة لا يستسيغها عقل مثلها كمثل عبادة بعض القبائل الإفريقية للطوطم وعبادة أهل سبأ للشمس وعبادة قوم إبراهيم عليه السلام للأوثان، التي كانوا يصنعونها بأيديهم، وعبادة قوم موسى عليه السلام للعجل الذي صنعوه من ذهب. وهذا الوضع في حقيقته إنما هو حماقة أشار إليها الله تعالى في القرآن الكريم. وينبئنا المولى عز وجل في كثير من آياته بأن من الناس من سيستغلق عليه الفهم ويتردون إلى حال يعجزون فيه عن رؤية الحقائق. ومن بين هذه الآيات قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ﴾ [البقرة: 6–7]

وقوله أيضا :

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: 179]

أما في سورة الحِجْر فيخبرنا الله عز وجل بأن أولئك الناس قد سُحروا بحيث أنهم لن يؤمنوا حتى ولو رأوا المعجزات، إذ يقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: 14–15]

وإن امتداد هذا السحر بشكل مؤثر على قطاعات عريضة من الناس بهذا القدر، وابتعاد الناس عن الحقائق بهذه الدرجة، وبقاء هذا السحر منذ 150 عاما، لهو وضع مثير للحيرة والدهشة بدرجة لا يمكن شرحها بكلمات، لأنه من الممكن أن يستسيغ العقل اعتقاد شخص أو عدة أشخاص لسيناريوهات مستحيلة ومزاعم حافلة بالخَرَف والهراء والأمور غير المنطقية، إلا أن اعتقاد الكثيرين من البشر في كافة أنحاء العالم بأن الذرات اللاوعية والجامدة قد اجتمعت بقرار فجائي، فأتت بالكون الذي نراه يعمل

بنظام لا تشوبه شائبة، ويكشف عن تنظيم غير عادي ونظام متقن غاية الاتقان، وبكوكب الأرض الذي يختص بكافة السمات المناسبة للحياة، وبكائنات حية مزودة بأنظمة معقدة تفوق الحصر، ليس له من تفسير سوى أنه سحر.

كما أن الله عز وجل ينبئنا من خلال تلك الحادثة التي وقعت بين موسى عليه السلام وفرعون، بأن بعض الأشخاص ممن ينافحون عن الفلسفة الإلحادية، يؤثّرون على الناس بما يصنعونه من السحر. فحينما قص موسى عليه السلام نبأ الدين الحق على فرعون، طلب فرعون إلى موسى أن يلتقي بسحرته في موضع يحتشد فيه الناس. وحينما التقى موسى السحرة أمرهم أن يبادروا هم باستعراض مهاراتهم. والآية التي تسرد هذه الحادثة تقول:

﴿ قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف:116]

. وعلى نحو ما تبدى تمكن سحرة فرعون بما صنعوه من خدع أن يسحروا الناس جميعا باستثناء موسى والذين آمنوا به. إلا أن البرهان الذي ألقاه موسى في مواجهة ما ألقاه هؤلاء على حد التعبير الوارد بالقرآن الكريم "تَلَقَّفَ مَا يَأْفِكُونَ"، أي أنّه أبطل تأثيره، يقول تعالى:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف: 117–119]

وعلى نحو ما ورد في الآيات، و مع إدراك أن ما فعله هؤلاء الأشخاص الذين سحروا الناس من قبل وأثروا عليهم إنما هو إفك، باؤوا بالذل والضعَّة. وأولئك الذين يؤمنون بمزاعم خرقاء إلى أقصى درجة تحت غلاف من العلم وبتأثير السحر في عصرنا الراهن، وينذرون حياتهم للدفاع عنها، فسوف يسقط شأنهم ويُذلوا ما لم يتخلوا عن هذه المزاعم، وذلك حينما تظهر الحقيقة بجلاء بكامل معانيها، و"يبطل تأثير السحر".

ويشرح مالكوم موجريدج (Malcolm Muggeridge) الذي ظل ينافح عن نظرية التطور حتى ناهز الستين من عمره، وكان فيلسوفاً ملحداً، ولكنه أدرك الحقائق من بعد الوضع الذي ستتردى إليه نظرية التطور في المستقبل القريب قائلا:

"إنني أنا نفسي صرت مقتنعا بأن نظرية التطور ستكون إحدى مواد المزاح الموجودة بكتب تاريخ المستقبل لا سيما في المجالات التي طُبقت فيها. وسيتلقى جيل المستقبل بالدهشة والحيرة اعتناق فرضية متهرئة يكتنفها الغموض بسذاجة لا يصدقها عقل" .[20]

وهذا المستقبل ليس ببعيد، بل على العكس من ذلك، فإن البشر في المستقبل القريب للغاية، سيدركون أن المصادفات ليست إلهاً وسوف يتم الاعتراف بأن نظرية التطور إنما هي أكبر خدعة وأشد أنواع السحر في تاريخ العالم. وسرعان ما بدأ هذا السحر الشديد ينحسر عن الناس في شتى أنحاء

الأرض، وبات الكثيرون ممن وقفوا على سر خدعة التطور، يتساءلون بدهشة وحيرة كيف انطلت هذه الخدعة عليهم.


﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا
إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾
[البقرة: ٣٢]

المراجع

77. Sidney Fox, Klaus Dose, Molecular Evolution and The Origin of Life, New York: Marcel Dekker, 1977. p. 2
78. Alexander I. Oparin, Origin of Life, (1936) New York, Dover Publications, 1953 (Reprint), p. 196
79. "New Evidence on Evolution of Early Atmosphere and Life", Bulletin of the American Meteorological Society, vol 63, November 1982, p. 1328.1330.
80. Stanley Miller, Molecular Evolution of Life: Current Status of the Prebiotic Synthesis of Small Molecules, 1986, p. 7
81. Jeffrey Bada, Earth, February 1998, v. 40
82. Leslie E. Orgel, "The Origin of Life on Earth", Scientific American, vol 271, October 1994, p. 78
83.Charles Darwin, : A Facsimile of the First Edition, Harvard University Press, 1964, p. 189
84. Charles Darwin,, p. 184.
85. B. G. Ranganathan, Origins?, Pennsylvania: The Banner Of Truth Trust, 1988.
86. Charles Darwin, The Origin of Species: A Facsimile of the First Edition, Harvard University Press, 1964, 179.
87. Derek A. Ager, "The Nature of the Fossil Record", Proceedings of the British Geological Association, vol 87, 1976, p. 133
88. Douglas J. Futuyma, Science on Trial, New York: Pantheon Books, 1983. p. 197
89. Solly Zuckerman, Beyond The Ivory Tower, New York: Toplinger Publications, 1970, ss. 75.94; Charles E. Oxnard, "The Place of Australopithecines in Human Evolution: Grounds for Doubt", Nature, vol 258, p. 389
90. J. Rennie, "Darwin's Current Bulldog: Ernst Mayr", Scientific American, December 1992
91. Alan Walker, Science, vol. 207, 1980, p. 1103; A. J. Kelso, Physical Antropology, 1st ed., New York: J. B. Lipincott Co., 1970, s. 221; M. D. Leakey, Olduvai Gorge, vol. 3, Cambridge: Cambridge University Press, 1971, p. 272
92. Time, November 1996
93. S. J. Gould, Natural History, vol. 85, 1976, p. 30
94.. Solly Zuckerman, Beyond The Ivory Tower, p. 19
95. Richard Lewontin, "Billions and billions of demons", The New York Review of Books, 9 January, 1997, p. 28.
96. Malcolm Muggeridge, The End of Christendom, Grand Rapids: Eerdmans, 1980, p. 43